ثمن البقاء إنساناً
مذكرات السجن
خمس سنوات ونصف خلف القضبان
شهادة سجينة سياسية عن التعذيب والظروف الجحيمية
في سجون إيران
أعظم حاج‌حیدری

ثمن البقاء إنساناً

مذكرات السجن

أعظم حاج‌حيدري

ثمن البقاء إنساناً

مذكرات السجن

أعظم حاج‌حيدري

الطبعة الثانية ـ أغسطس ٢٠٢٦

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

أهـدي هـذا الكتـاب إلى جميع الأخوات اللواتي كن إلى جانبي في ســنوات الأســر تلـك، وإلى رفيقـات الـدرب اللواتي أعـدمن وهن لا يزلن يبتســمن، وســقين بدمائهن شــجرة المقـاومـة والحريـة، وإلى جميع رفيقات ورفاق دربي اليوم في جيش التحرير الوطني الإيراني، الـذين هم ثمرة نضــجت من تلك الدماء.

الفهرس

مقدمة المؤلفة

الفصل الأول العائلة والأوضاع الاجتماعية ---------- ١

العائلة ---------- ٢

الخروج على الأخ الأكبر ---------- ٥

كراهية النساء في جوهر قسوة أتباع خميني ---------- ٩

الثورة المختطفة ---------- ١١

الفصل الثاني: عالم آخر ---------- ١٥

التعرف على مجاهدي خلق ---------- ١٦

العصيان الأول ---------- ٢٠

بداية صراع طويل ---------- ٢٣

الأيام السعيدة للصراع ---------- ٣١

صراع قوتين ---------- ٣٣

اعتقالات واسعة ---------- ٣٦

الهروب من بطش الأب ---------- ٤٢

الفصل الثالث: الأسر ---------- ٤٥

في غرف الماكينات ---------- ٤٦

عجوز وحيدة تبكي ---------- ٤٨

النقل إلى سجن إيفين ---------- ٤٩

أخي وابن عمي المعذبان ---------- ٥٣

شخصية جلاد ---------- ٥٥

تلك الفتاة الغضة ---------- ٥٦

نهاية محاولة هروب ---------- ٦٣

الخونة أسوأ من الجلادين ---------- ٦٥
أساليب المقاومة ---------- ٦٧
الحيوية والبهجة ---------- ٧٠
ضد الخونة ---------- ٧٨
تعذيب أم أمام طفلتها ---------- ٨٦
يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٨١ في السجن ---------- ٨٨
فتاة كانت تضحك دائمًا ---------- ٩١
يوم ٨ فبراير ١٩٨٢ في سجن إيفين ---------- ٩٥
صدى "٨ فبراير" في العنابر ---------- ٩٧
موجة الإعدامات ---------- ٩٩
عيد النوروز في السجن ---------- ١٠٠
من هو "المنافق"؟ ---------- ١٠١
"لا يتذمر المجاهد" ---------- ١٠٣
قصة حزينة لفتاة شابة ---------- ١١٠
المحاكمة! ---------- ١١٢

الفصل الرابع: صراع بين عالمين ---------- ١١٣
نظرية لاجوردي ---------- ١١٤
النقل إلى سجن "كوهردشت" ---------- ١١٧
النقل إلى عنبر القفص ---------- ١٢٢
سبعة أشهر ونصف معصوبة العينين في القفص ---------- ١٢٧
قانون الصمت المطلق ---------- ١٣٧
التدريس وصنع التماثيل داخل القفص! ---------- ١٤٣
الإنهاك الجسدي ---------- ١٥٦
حيلة دنيئة لكسر النساء ---------- ١٦٠

الفصل الخامس: نهاية الصراع! ---------- ١٦٧
هزيمة عنبر "القيامة" ---------- ١٦٨
عنبر "العزل" ---------- ١٧٢
العائدات من عنبر "الوحدة السكنية" ---------- ١٧٥
انعكاس "الثورة الإيديولوجية" داخل السجن ---------- ١٧٨
النقل إلى سجن إيفين ---------- ١٨٢
أسبوع من الإعدامات الوهمية! ---------- ١٨٧
النقل مجددًا إلى العنبر العام ---------- ٢٠٤
يوم حلو ---------- ٢١٢
التعليم في السجن ---------- ٢١٨
إعادة المحاكمة ---------- ٢١٩
الخروج من السجن ---------- ٢٢٢

مقدمة المؤلفة

هذا الكتاب هو رواية سنوات تعلمت فيها ما الذي يعنيه أن يبقى الإنسان إنسانًا، وما الثمن الذي يتعين عليه أن يدفعه من أجل ذلك. ثمن لا يقاس بالذهب ولا بعدد سنوات العمر، بل بكل لحظة تقرر فيها، تحت التعذيب، وفي عتمة الزنازين، وأمام الجلادين، أن تبقى إنسانًا، وأن تقاوم، وألا تحني رأسك أمام الجلاد.

أنا أعظم حاج‌حيدري. فتاة نشأت في أحد أفقر أحياء جنوب طهران، في أسرة متدينة متشددة، كان أبي وأخي الأكبر فيها يضعان الإيمان بخميني فوق كل عاطفة إنسانية. ذلك الأخ الذي أصبح فيما بعد أحد محققي سجن إيفين وجلاديه. أما أمنا، فقد رحلت عن الحياة قبل أوانها تحت وطأة القسوة التي فرضها ذلك الجو المعادي للمرأة والخالي من العاطفة. نشأت أنا في ذلك المناخ نفسه؛ مناخ كان يغرس في ذهن المرأة أن كونها امرأة يعني أن تكون بلا هوية، وأن تكون خادمة للرجل، وأن تلتزم الصمت.

لكن ثورة ١٩٧٩ جاءت، ومعها انفتحت أمامي أبواب عالم آخر؛ عالم "مجاهدي خلق". هناك، ولأول مرة، شعرت أن كون المرأة امرأة ليس نقصًا ولا عارًا. وهناك علمتني "طاهرة محرر خوانساري" ومئات الأخوات الأخريات، بثباتهن ومحبتهن، أن الإنسان يستطيع أن يبقى إنسانًا حتى عندما يكون كل شيء مصممًا لسحقه.

هذا الكتاب هو حكاية ذلك الصمود. حكاية نساء قاومن في إيفين وقزل حصار وكوهردشت، وفي الأقفاص العمياء التي أبقونا فيها سبعة أشهر ونصف معصوبي الأعين، بلا حركة، في مواجهة أبشع صنوف التعذيب. تعذيب لم يكن يستهدف تحطيم الجسد فحسب، بل كان يريد تدمير الروح والهوية الإنسانية

أيضًا. كان الجلادون يريدون دفعنا إلى الخيانة، أو على الأقل تحويلنا إلى كائنات محطمة تائبة، لا تشكل بعد ذلك أي خطر عليهم، لكننا صمدنا. صمدنا حين كانوا يجلدون الأمهات أمام أعين أطفالهن. وصمدنا حين كانوا يعذبون الفتيات المراهقات حتى حافة الموت، ثم يقولون لهن: "هذا نصيبك اليومي". وصمدنا حين كنا نجلس ساعات في الأقفاص في وضع القرفصاء، بلا حركة، بلا صوت، جائعات، وكان أصغر تحرك يقابل بالكابلات واللكمات والركلات. وصمدنا حين كانت الخائنات، بعد الإعدامات، يأتين ليلًا، وكانت كلماتهن أشد قسوة من الجلادين، فيعدن فتح جراحنا. وصمدنا حين كانوا يحرقون كتبنا، وحين كانوا يحرقون القرآن، وحين كانوا يريدون، بذريعة اتهامات أخلاقية منحطة، ولدت من أفكار والمعتقدات الرجعية والقذرة للملالي، أن يجلدونا أمام أعين أخواتنا لإذلالنا.

لكننا لم نستسلم فحسب، بل صنعنا الحياة في قلب ذلك الجحيم. درسنا، وصنعنا تماثيل من عجين الخبز، وغنينا، وتبادلنا الابتسامات، وحققنا كل يوم انتصارًا صغيرًا لأنفسنا. كانت هناك فتيات شابات، مثل "سيمين هجبر"، كن يعدن من التحقيق وأجسادهن مليئة بالجراح، ثم يشرعن فورًا في الغناء. وكانت هناك فتيات شابات يقدمن الدروس للآخريات من خلال ما حفظنه في ذاكرتهمن، حتى تحت أشد صنوف التعذيب. وكانت هناك نساء، حتى في الظلام الدامس للأقفاص، يكفي أن توجه إحداهن إشارة صغيرة أو تقول كلمة قصيرة لأختها، حتى تمنحها طاقة إيجابية، وقدرة على الصمود والحيوية والانطلاق والثبات. كنا نستمد القوة من بعضنا، ونقف كالجبل، كل واحدة تسند الأخرى. ومن بينهن "معصومة عضدانلو"، التي قالت لي ذات مرة من خلف جدار الزنزانة بلغة مورس: "المجاهد لا يتذمر، والمجاهد لا يتعب. هذا طريق اخترناه بأنفسنا."

كتبت هذا الكتاب، وهو واحد من ملايين الشهادات التي ترسم شيئًا مما تعرض له شعبنا من تعذيب وظلم ووحشية على أيدي الملالي الحاكمين، حتى لا تنسى تلك الأصوات. كتبته لكي تعرف الأجيال القادمة أنه في أحلك أيام التاريخ المعاصر لإيران، كانت هناك نساء مجاهدات ومناضلات أثبتن بلحمهن ودمائهن وعظامهن أن البقاء إنسانًا ممكن، حتى عندما يكون كل شيء مصممًا لتدمير إنسانية الإنسان. كتبته لأقول إن المقاومة في السجن تبدأ في تلك اللحظة التي تقرر فيها، تحت التعذيب، أو داخل قفص أعمى، أو في مواجهة خيانة أقرب الناس إليك، أن تقول للجلاد "لا"، وأن تختار أن تبقى إنسانًا. نعم، إن قول "لا" يتطلب ثمنًا كهذا، وهو ما تعلمناه من "الأخ مسعود".

كتبت هذه الصفحات بالألم والحب. بألم أولئك الذين لم يعودوا بيننا، وبحب أولئك الذين ما زالوا واقفين في جبهة الحرية. وإذا استطاعت هذه الرواية أن تنقل، ولو ذرة من حقيقة تلك السنوات، وأن تظهر أن البقاء إنسانًا ممكن دائمًا، وأن دفع مثل هذا الثمن يستحق العناء، فسأكون قد أديت، ولو نصيبًا صغيرًا، من واجبي في مواصلة ذلك الطريق؛ الطريق الذي لا يكتمل إلا بإسقاط الدكتاتورية الحاكمة في وطني إيران، وإقامة "الجمهورية الديمقراطية".

وفي الختام، أريد أن أقول إن الملالي قد أخطأوا الحساب. لقد استطاعوا أن يحطموا أجسادنا، وما زالت آثار ذلك باقية حتى اليوم، بعد أكثر من عقدين، لكنهم لم يستطيعوا أن يزرعوا في إيماننا ويقيننا بقضيتنا لحظة واحدة من التردد أو الندم أو الوهن أو الارتجاف أو الانكسار. وكان سر هذا الصمود هو العقيدة التوحيدية لـ"مجاهدي خلق"؛ تلك العقيدة التي جعلت السجين يقف كالجبل، ويقول "لا" للذل والمهانة والاستسلام.

أعظم حاج‌حيدري _ أغسطس ٢٠٢٦

الفصل الأول:

العائلة والأوضاع الاجتماعية

العائلة

ولدت في عائلة متدينة ومحافظة، في واحد من أفقر أحياء جنوب طهران وأكثرها حرمانًا، وتحديدًا في "ساحة شوش". كان والدي متعصبًا في دينه، ومؤمنًا بعقيدة راسخة ومواليًا للملالي ولاء أعمى. كان يرى فيهم صورة الدين الحقيقي وممثليه الشرعيين، وكان يعتقد واهمًا، أن انتقادهم أو رفضهم يعني بالضرورة إنكار الدين والمذهب والارتداد عنهما.

كان والدي يرفض فكرة ذهابي إلى المدرسة جملة وتفصيلًا، ويردد دائمًا أن الفتاة إذا نالت نصيبًا من التعليم فلن تعد صالحة لشيء. وانطلاقًا من تلك المعتقدات الرجعية المتخلفة، ظل يسعى باستمرار إلى تزويجي منذ أن بلغت ١٣ من عمري، وكانت أقصى أمانيه أن يظفر بصهر من سلك الملالي. بيد أن والدتي التي كانت امرأة متعلمة ومستنيرة، وقفت في وجه والدي وأخي وقفة حازمة، لتذود عني وعن شقيقتي الصغرى. وبفضل ذلك الدخل الزهيد الذي كانت تكسبه من خياطة ملابس نساء الجيران والقريبات، تمكنت، وبكثير من الجهد والكفاح المرير، من إرسالنا إلى المدرسة. وكانت تحثنا دائمًا بنصيحتها الثمينة على الاجتهاد في دراستنا، حتى نؤمن مستقبلنا ونتمكن من الاعتماد على أنفسنا، وألا نلقى مصيرها البائس ونعيش حياة الاضطهاد والمهانة.

أما محمد، أخي الأكبر، الذي بات يفرض سلطته المطلقة على العائلة بعد والدي، بل وأكثر من والدي لاحقًا، فقد كان من أتباع خميني المخلصين. ثم انخرط بعد ذلك بكليته في خدمة نظام الملالي، وعمل محققًا وجلادًا في سجن "إيفين" (إوين)، حيث انهمك في التنكيل بالبشر وإزهاق أرواحهم. ولم

يكن أخي المحرك الأساسي في اعتقالي وسجني فحسب، بل باشر بنفسه وبشكل شخصي استجوابي وتعذيبي. وبالطبع، كان يظن أنني بسبب عصبة العينين التي أرتديها واللثام الذي يضعه على وجهه مع امتناعه عن الكلام لن أكون قادرة على التعرف عليه؛ في حين أنني استشعرت وجوده المنحوس منذ اللحظة الأولى، وأدركت على وجه الخصوص من طبيعة الأسئلة المطروحة أنه هو، أو أبناء عمومتي الذين كانوا هم أيضًا من المحققين والمسؤولين في سجن إيفين يقفون فوق رأسي ويسومونني سوء العذاب. وبطبيعة الحال، تحول هذا الحدس إلى يقين قاطع في إحدى المرات، عندما رفعت عصبة عيني فجأة، ورأيت ابن عمي "عزيز" بأم عيني، وهي واقعة سأفصل القول فيها لاحقًا.

كان هدفي من هذا الاستطراد أن أوضح أنني فتحت عيني على الدنيا ونشأت في مثل هذه البيئة، وفي عائلة رجعية متشبعة بأيديولوجية الملالي؛ وهي أيديولوجية تنتقص من قيمة المرأة، وترى أنها لم تخلق إلا لخدمة الرجل، فتؤمن له طعامه وشرابه، وتغسل ملابسه، وتلبي سائر احتياجاته، وتنجب له الأبناء وتربيهم، وإلى آخر ذلك. وفي ظل هذه النظرة المتخلفة، لا تكون للمرأة أي هوية مستقلة؛ فقبل الزواج تعرف باسم أبيها، وبعد الزواج تعرف باسم زوجها. وحتى إذا توفي زوجها، لا تعرف باسمها وهويتها، بل تنسب إلى ابنها وتعرف به. وفي حيّنا، كان كثير من الرجال يرون حرجًا في مناداة زوجاتهم بأسمائهن، فكان من المعتاد أن ينادوا المرأة باسم أحد أبنائها الذكور، فيقول الرجل مثلًا: "أم حسن!" (ننه حسن)، أو يناديها بعبارات من قبيل: "ها أنتِ!" أو "أيتها المرأة!". بل إن بعض العائلات كانت تطلق على المرأة اسمًا مذكرًا، غالبًا ما يكون اسم أحد أبنائها المتوفين.

وفي محيط عائلي كهذا، انعدم أي أثر للحب والتعاطف. وبالطبع، كان هذا الجفاف المفرط وفقدان العاطفة نابعًا من جانب والدي، وبشكل خاص من إخوتي الذكور؛ أما فيما يتعلق بنا، أي والدتي وأنا وشقيقتي اللتين تكبرني إحداهما وتصغرني الأخرى، فقد كنا نكن لبعضنا بعضًا عاطفة ومحبة عميقة بسبب الألم المشترك الذي كنا نعاني منه جميعًا، وكنا ندعم بعضنا بعضًا قدر استطاعتنا في مواجهة مثل هذا الأب ومثل هؤلاء الإخوة الذين مسخوا حقًا بفعل الفكر الرجعي للملالي.

ولم يتبق في ذاكرتي من عهد طفولتي شيء سوى ذلك العالم الجاف والعديم الروح في بيتنا. وفي تلك الأيام، لم تكن صورتي عن الحياة تتجاوز ما كان يقع علينا وما كنت أشهده في محيطي. كنت أظن أن القدر الأزلي والأبدي للمرأة هو أن تهان دائما لمجرد كونها امرأة، وأن تظل طوال حياتها مستضعفة ومضطهدة من قبل الرجال؛ الرجل الذي يحمل تارة اسم الأب، ثم يحمل اسم الأخ، ثم الزوج، وحين يتقدم بك العمر، يكون ذلك السيد المتسلط فوق رأسكِ هو الابن الذي أنجبتِه وربيتِه بنفسكِ؛ إنه قدر مرير كانت والدتنا نموذجًا حيًا له.

الخروج على الأخ الأكبر

منذ أن بلغت سن التمييز، بدأت أشعر بالتعارض التام مع هذا البيت والعلاقات السائدة فيه، ولا سيما مع إخوتي الذكور، وكنت أبحث عن سبيل لأصنع لنفسي حياة أخرى؛ حياة تجد فيها الإنسانية والمحبة ومساعدة الآخرين مكانًا لها. بناءً على ذلك، وفى حدود ما كان يستوعبه عقلي آنذاك، كنت أقاوم هؤلاء الذين لم يكونوا لي إخوة حقًا. أتذكر أنني كنت في الصف السابع حين سعى أخي الأكبر محمد جاهدًا لاستدراجي إلى تلك اللقاءات الدينية التي كان يواظب عليها، بهدف تلقيني أفكاره. لكنني كنت قد أدركت أن هذا النوع من التلقين ليس سوى ترسيخ للتمييز بين الرجل والمرأة في العقول، وتكريس لثقافة المآتم واللطم والبكاء، وقبول البؤس باعتباره ابتلاءً من الله وطريقًا للفوز بالجنة! وهي أمور كانت تنفرني منها نفسي رغم قلة وعيي حينها. كان موضوع تلك الجلسة يتناول الصبر على المكاره، والمفارقة الساخرة أن المرأة التي كانت توصف بالمربية لم يكن سلوكها يتطابق أبدًا مع ما تدعو إليه؛ إذ كانت تتزين بنحو كيلوغرام من الذهب والمجوهرات.

كان هذا التناقض فجًا لدرجة أنه لفت انتباهي رغم صغر سني، فما كان مني إلا أن اعترضت قائلة لها: كيف تطالبينني بالرضا بهذا البؤس وتحمل المشاق في حين أنك تنعمين بكل هذه الثروة؟! بدا كلامي منطقيًا جدًا بنظري، لكنهم اتهموني بالجسارة والوقاحة وطردوني من المجلس. ومن جانبي، لم أعد إلى تلك اللقاءات تلبية لرغبتي الدفينة، الأمر الذي أثار حنق محمد عليّ فتبرأ مني وقاطعني، لأنني حسب تعبيره أهرقت ماء وجهه أمام جماعته التي كان يحظى بينها بالمكانة والوجاهة.

حاول محمد بعد ذلك مرارًا جري إلى لقاءات وهيئات دينية تتوافق مع فكره وهوى نفسه. وعندما كنت في الصف التاسع المتوسط، أخذني إلى هيئة "صادقية"، لكنني لم أتحمل البقاء هناك أكثر من أسبوع واحد نظرًا لرجعتيهم المثيرة للاشمئزاز. وبعد عام أو عامين، أوقعني أخي في شباك جمعية "حجتية"[١]، بيد أن ممارساتهم ومعتقداتهم بدت لي مبتذلة ولم تجذبني قط، ولا سيما بعدما عرفت بعض زعمائهم وأدركت أنهم من كبار الأثرياء، فقطعت صلتي بهم تمامًا.

وهكذا، فشل محمد في جميع مساعيه، بما في ذلك إرغامي على الزواج من رفاقه في الفكر لإخضاعي لمنهجه. وبما أنني بدأت في السنوات الأخيرة من المرحلة الثانوية بمطالعة كتب كان يراها كفرًا وضلالًا، فقد بات وجودي في البيت عبءًا ثقيلًا باعتباري متمردة على سلطة الأخ الأكبر، وحرمت من أدنى حقوقي. ولإجباري على الطاعة، لم يكتف بقطع مساعدته عني فحسب، بل استغل نفوذه لدى والدي ليؤلبه علينا تمامًا، حتى بات والدي يرى في الإنفاق على معيشتنا ودراستنا أمرًا محرمًا ومخالفًا للشريعة. أتذكر أنني بكيت وتوسلت كثيرًا لوالدتي لتدبر لي ثلاثمائة تومان لتغطية نفقات مدرستي، لكنها للأسف كانت لا تملك من حطام الدنيا شيئًا. ورغم كل هذه العثرات،

[١] جمعية "حجتية" هي جمعية دينية رجعية، كانت تحظى برعاية جهاز "السافاك" (ساواك بالفارسية) ودعمه في عهد الشاه. وكان نظام الشاه يهدف، من خلال إطلاق يدها ومنحها نفوذًا داخل الأوساط الدينية التي كانت بطبيعتها مناهضة للشاه، إلى توجيه الطاقات الاحتجاجية لدى الشباب المتدين نحو الصراع مع البهائيين. ومن الجدير بالذكر أن قادة عصبة "المؤتلفة"، ومن بينهم الجلاد "لاجوردي" وشخصيات أخرى مثل "عسكر أولادي" و"حداد عادل"، الذي يشغل حاليًا منصب رئيس مجلس شورى النظام الرجعي، كانوا من أبرز الناشطين والمؤثرين في جمعية حجتية.

واصلت تعليمي؛ وأتذكر أنه حين كان المعلم يستدعيني إلى اللوح للإجابة عن الأسئلة، كنت أرفض الصعود مدعية الجهل، فقط لكي لا يرى أحد حذائي الممزق والمهترئ.

إن والدي وأخي اللذين تعاملا معنا بكل هذه القسوة والخصومة ولم يفرجا عنا أدنى تفادٍ، كانا في غاية السخاء واللين مع أقرانهم ومن هم على شاكلتهم. فقد تكفل أخي بكامل نفقات علاج انحراف عين ابن الجيران وأخذه إلى المستشفى لإجراء الجراحة، فقط لأنه كان مطيعًا له طاعة عمياء ومواليًا للملالي. وفي المقابل، لم يحرك ساكنًا لعلاج عيني أنا أخته التي كنت أعاني من المشكلة نفسها.

ورغم أنه كان يستقل ببيت وحياة منفصلة، فإنه ظل محتفظًا بسلطته على بيت العائلة. ولأنه كان يرى نفسه رقيبًا عليّ وعلى أختي الصغيرة "نجمة"، كان يحتفظ بمفتاح البيت، فيقتحمه في أي وقت ودون طرق الباب، وكنا نفاجأ دائمًا بحضوره المؤذي والمزعج.

أما أخي الآخر اسمه علي، الذي كان أصغر من محمد وأكبر مني ومن نجمة، فكان يقاسمنا العيش في البيت نفسه. وعلى الرغم من أنه كان من أنصار خميني، بل إنني رأيته ذات مرة بين الغوغاء وحاملي الهراوات الذين هاجمونا في الشارع، فإنه لم يكن مؤمنًا بخميني في قرار نفسه، وإنما انخرط معهم تحت تأثير محمد ولتأمين قوته فحسب، ولم يكن يظهر لنا العداء الهستيري الذي كنا نلقاه من محمد.

وخلال سنوات سجني التي امتدت لخمسة أعوام ونصف العام، لم يزرني والدي وأخواي إلا مرة واحدة، ولم تكن الزيارة إلا لتوجيه إنذار صارم: إما أن

تكوني معنا أو تواجهي الموت! ظنوا أنني سأستسلم لأنني قيد الأسر في أيدي الجلادين؛ لذا فما إن وقفوا خلف زجاج غرفة المواجهة حتى بدؤوا في توجيه الإهانات لمبادئي وأهدافي، وترديد ترهات من قبيل: لقد جنيتِ على نفسكِ، تعالي وأعلني توبتكِ! فهذا الطريق ينتهي بالإعدام والموت!...

شعرت حينها أن سكوتي سيفسرونه ندمًا أو ضعفًا، مما سيزيدهم تجرؤًا عليّ. قلت في نفسي: "موتة واحدة ولا غصص كل يوم!" طالما أنني لم أتمسك بالحياة، فمن الأفضل أن أموت متمسكة بهويتي ومبادئي، لا ذليلة مهانة! بناءً على ذلك، كسرت صمتي ودافعت عن مبادئي ومنظمتي، وسكبت في وجوههم كل ما يختلج في صدري. هذه المرة، لزموا هم الصمت وانصرفوا دون أن يلتفتوا وراءهم، ولم يسمحوا لي بعدها بأي مواجهة، بل قالوا: إنك منافقة ومحكومة بالإعدام.

وفي تلك الزيارة المشؤومة، وكسرًا لمعنوياتي، أحضروا لي حزمة من الملابس البالية والمهترئة التي لا يعلم أحد من أين جمعوها، فركلتها دبرًا ورميتها كلها رغم حاجتي الماسة للكساء.

أما في جمع الزميلات في السجن من مجاهدي خلق، فلم يكن ثمة شيء سوى العشق والمحبة واللطف؛ على سبيل المثال، طوال فترة السجن حيث كنت محرومة من الزيارات، كانت كل منهن تترك لي أفضل ما يأتيها من ملابس وتمضي، ولم أعرف يومًا هوية من كانت تضع لي تلك الثياب.

كراهية النساء في جوهر قسوة أتباع خميني

مهما قلت وكتبت عن أيديولوجية خميني التي كان أبي وأخي من مريديها ومقلديها، ومهما استفضت في شرح كيف تجعل هذه الأيديولوجية الإنسان صلبًا وجلمودًا وعديم العاطفة حتى تجاه أسرته وزوجته وأولاده، فإنني لن أفي الأمر حقه أبدًا.

كان أبي يتحاشى دائمًا أي تعبير عن المودة، ويتباعد عن إظهار أي عاطفة، إذ كان يعتقد أن تقبيل الطفل يفسد أخلاقه ويجرّئه على والديه. ولا أتذكر قط في حياتي أنه قبلني أو قبل أختي يومًا. في تلك الأيام، لم أكن أفهم جذور هذا السلوك مطلقًا، ولم أستوعب لماذا يتسم أبي وإخوتي بالقسوة والغلظة وانعدام العاطفة، ليس تجاهي وتجاه أختي فحسب، بل حتى تجاه أمي التي كانت تبذل جهودًا مضنية في خدمتهم. لم أكن أدرك وقتئذ أن كراهية النساء، القابعة في جوهر الفكر المتخلف والقروسطي للملالي، هي منبع هذه السلوكيات كلها.

ولم يكن الموت المبكر لأمي في عام ١٩٧٧ إلا نتاجًا مباشرًا لانتفاء العاطفة وكراهية النساء تلك.

فقد ظلت أمي تشكو لأيام عدة من وجود آلام وضيق في صدرها، ولكن لكوننا نعلم جميعًا أنه لا مجال لاستدعاء الطبيب ما لم يطرحها المرض أرضًا بالكامل، لم يخطر ببالها ولا ببالنا أن نذهب بها إلى طبيب. واستمر الوضع كذلك حتى انهارت ذات يوم في باحة المنزل وسقطت على الأرض. ركضت نحوها وحاولت جاهدة تحريكها ونقلها إلى داخل الغرفة، لكنني لم أقو على ذلك، فهرعت مذهولة إلى الغرفة وأخبرت أخي بأن أمي قد انهارت بكاملها

وسقطت في الباحة، فرد علي ببرود واستهانة مستبعدًا الأمر ومشيرًا إلى أنها علّها أكلت طعامًا رديئًا ولا بأس عليها. أما أبي، الذي كان يقرأ القرآن طمعًا في دخول الجنة، فقد واصل قراءته دون اكتراث. وعندما رأيت تقاعسهما التام، وأن حياة أمي أو موتها لا يعنيان لهما شيئًا، ركضت مذعورة إلى جارتنا الملاصقة لنا، وبمساعدتها ومساعدة أختي الكبرى، نقلنا أمي بعد تأخير طويل إلى مستشفى يقع بالقرب من منزلنا.

تبين أن أمي قد أصيبت بجلطة قلبية، وكان يتعين نقلها إلى مستشفى تخصصي لأمراض القلب، بيد أننا لم نكن نملك شروى نقير. ونتيجة لذلك، أبقيناها في ذلك المستشفى الحكومي القريب، الذي كان يفتقر تمامًا إلى الإمكانات اللازمة لرعاية مرضى القلب. وبعد خمسة أيام من الرقاد في الفراش، تعرضت تلك المرأة المظلومة لنوبتين قلبيتين أخريين وفارقت الحياة. حدث هذا كله في وقت كان أخي قادرًا فيه تمامًا من الناحية المادية على نقلها إلى مستشفى تخصصي وإنقاذها من الموت.

وبوفاة أمي، فقدت أنا وأختي سندنا الأساسي، وباتت ضغوط الحياة علينا أشد وطأة بكثير. وكانت ملاذنا الوحيد في تلك المرحلة، والتي سدت فراغ غياب الأم إلى حد ما، هي أختي "مهين" التي كانت تكبرني بأحد عشر عامًا.

ومن جهة أخرى، تقاربت أنا ونجمة أكثر، وبما أنه كان لي دخل مستقل، فقد كنت أتولى تلبية احتياجاتها المادية، وصارت ترافقني منذ ذلك الحين في كافة الأنشطة تقريبًا. كانت نجمة فتاة ذكية للغاية ومتقدة بالنشاط، ومع تصاعد حدة الانتفاضة الشعبية ضد دكتاتورية الشاه، انخرطت بنفسها وبشكل مستقل في تلك الأنشطة. وعلى هذا النحو، وبفضل الثورة والحراك

الذي عم المجتمع بأسره، انفتحت طاقة نور في أجواء حياتي وحياة أختي الضيقة المظلمة، طاقة لاستنشاق الهواء النقي للحرية، ونافذة يسطع منها نور الأمل بانعتاق النساء وتصويب مسارهن.

الثورة المختطفة

لقد قيل الكثير عن سرقة خميني لقيادة الثورة المناهضة للملكية، بيد أنني، وبصفتي فردًا ينتمي إلى أسرة "حزب اللهية" (حزب اللهى) ومن أشد المؤمنين بخميني، أشهد أن أبي وأخي -اللذين كانا يتبعان الملالي الذين وصلوا إلى السلطة لاحقًا- لم يكونا يومًا من أهل الانتفاضة والثورة. بل كانا حيثما حلت المخاطر، لا يتأخران عن اتخاذ أي خطوة فحسب، وإنما يقفان حائلًا دون انخراط ومشاركة الأفراد الأصغر سنًا في العائلة. كانت قضايا الثورة ومخاضاتها تدار في الأساس بسواعد الشباب؛ فهم الذين كانوا يندفعون ببسالة إلى شتى الساحات ويلقون حتوفهم، وهم أنفسهم الذين تعرضوا للمجازر والإبادة الجماعية في السجون بعد فترة وجيزة من انتصار الثورة، ولكن هذه المرة ليس على يد الشاه، بل على يد خميني وجلاديه.

يتذكر الجميع يوم ٨ سبتمبر ١٩٧٨، ذلك "الجمعة السوداء"، وما خلفه من حمام دم في طهران. وأتذكر جيدًا أنه في ذلك اليوم، لم يذهب أبي وإخوتي إلى الساحة، وما سمحوا لنا -نحن الأعضاء الأصغر سنًا في العائلة- بالخروج من المنزل؛ لأن نظام الشاه كان قد أعلن الأحكام العرفية يومذاك، وكان الجميع يعلمون أن هذا اليوم سيكون مختلفًا عما سبقه.

في ذلك اليوم، ولم أكن أطيق البقاء حبيسة المنزل، وقفت عند عتبة الباب أبكي وأتوسل إلى أبي وأخي كي يسمحا لي بالخروج والانضمام إلى الناس، لكنهما منَعاني بحجة أن الأمر ينطوي على خطورة بالغة وقد يتسبب في مقتلي. آنذاك، ورغم أنني كنت فتاة في العشرين من عمري وحاصلة على شهادة الثانوية العامة، لم أكن أملك الجرأة على الخروج من المنزل أو القيام بأي عمل دون إذن منهما، بل كنت أهابهما بشدة. ولكن عندما تناهت إلى مسامعي أنباء مقتل الناس، والنساء العزل، والأطفال في الأحضان، ورأيت حولي بعض الذين شاركوا في تلك التظاهرات، لمت نفسي بشدة وساءلتها عن سبب قعودي وانتظاري لإذن أبي وأخي.

في ذلك اليوم، تحول شيء ما في أعماقي. ومنذ اليوم التالي، بتُّ أشارك في التظاهرات دون إذن من أبي أو أخي، وإن كنت لا أزال أفعل ذلك سرًا؛ فكنت أذهب وأجيء بحذر لكي أعود إلى المنزل قبل إيابهم. ومع انخراطي في الحراك الشعبي واحتكاكي بالنساء والرجال الذين يبتغون الحرية ومستعدين لدفع ثمنها، بدأت جراءتي تزداد شيئًا فشيئًا. كنت أرى كل آمالي المكبوحة -بصفتي امرأة مضطهدة ومستصغرة- تجسدها تلك الثورة وشعاراتها، وظننت أنني وجدت ضالتي المنشودة في الثورة وفي صفوف الشعب المتراصة؛ إذ كنت حتى ذلك الحين محبوسة في حصار المنزل، ليس فكريًا فحسب، بل جسديًا أيضًا. كان عالمي محدودًا بين المنزل والمدرسة القريبة من مكان سكننا. وحتى في طريقي بين البيت والمدرسة، لم أكن أرفع رأسي لأرى ما حولي، لأنني نشأت على مفهوم رسخ في ذهني كقيمة، وهو أن الفتاة الصالحة يجب أن تكون مطأطئة الرأس دائمًا. وكنت أخشى إن خالفت ذلك، ورآني أبي أو أخي لمرة واحدة متطلعة في الشارع،

أن تكون المرة الأولى هي الأخيرة، وألا يسمحا لي بالذهاب إلى المدرسة مجددًا.

فقد كان أبي يعتقد جزمًا أن المدرسة تفسد الفتاة. ولم نتمكن أنا وأختي الأصغر مني من نيل فرصة الذهاب إلى المدرسة إلا بدعم من أمي؛ وكنا نخشى أن نفقد هذه الميزة الهشة -التي كانت تجدد في مطلع كل عام دراسي بدموعنا وتوسلاتنا، وبمشاحنات أمي ودعمها لنا- عند ارتكاب أدنى مخالفة.

في ظل هذه الظروف، تمكنت من إنهاء المرحلة الثانوية والحصول على الشهادة. وكانت المهنة الوحيدة التي تسمح لي مكانتي العائلية والاجتماعية بالتفكير فيها هي التدريس؛ ذلك أن المعلمة، ولا سيما في مدارس البنات حيث لا يحتككن بالرجال الأجانب، كانت أمرًا جائزًا بنظر أبي. فضلًا عن أن الدخل المتأتي من هذا العمل كان يمثل عونًا ملحوظًا لعائلتنا الفقيرة، ولم يكن بمقدور أبي بالطبع أن يعارضه. أضف إلى ذلك أنني كنت شغوفة جدًا بالتدريس؛ لأنني أحب الأطفال وكان يحدوني الأمل في مساعدتهم، ولا سيما الأطفال المحرومين.

وخلال فترة تدريسي القصيرة، واجهت وجه الفقر الموحش وتعرفت على آثاره وتبعاته عن قرب. وأنا التي كنت أظن أنني -بحكم ظروفي العائلية- أعرف الفقر بل وأعيش فيه، أدركت أن ثمة فقرًا أعمق بكثير وأشد إيلامًا مما كنت أعرفه، فقرًا يلتهم حياة الملايين، وكانت النساء والفتيات أولى ضحاياه.

كانت المدرسة التي كنت أدرّس فيها عبارة عن مدرسة ابتدائية للبنات في واحدة من أكثر مناطق طهران جنوبية وفقرًا. كان أطفال تلك المنطقة

ينامون عادة بطونهم خاوية، ويأتون في الصباح إلى المدرسة جياعًا، بأحذية وملابس بالية لا تقيهم زمهرير الشتاء بأي حال من الأحوال. كانت صغيرات فصلي ينزوين أحيانًا تحت الطاولات ويجهشن بالبكاء، خوفًا أو خجلًا من القول إنهن جائعات. وأنا التي جئت لأعلمهن شيئًا، كنت أجد غول الجوع والفقر شاخصًا أمامي في الخطوة الأولى، وأتساءل في نفسي كيف لي أن أعلم طفلة شحب لون وجهها من فرط الجوع، أو تبكي من لوعة البرد، أو تشهد كل صباح شجار والديها على المصروف اليومي، وترى أمها تنهال عليها ضربات أبيها. كنت أساعدهن أحيانًا من دخلي الضئيل، أو أهيئ لهن وجبة طعام، ولكن لم يكنّ واحدة أو اثنتين، ولم يكن الأمر مسألة يوم أو يومين.

أمام هذا الألم الذي كان يعتصرني بشدة، كنت أشعر بالعجز والقلة. وأمضي ساعات طويلة أطيل الفكر مع نفسي حائرة عما عساي أن أفعله إزاء هذا الوضع، وتجاه الأيام الحوالك التي خطها وحش الفقر لأولئك الصغيرات الجميلات والمحبوبات، دون أن أهتدي إلى سبيل.

الفصل الثاني:

عالم آخر

التعرف على مجاهدي خلق

بسبب القيود التي عانيت منها في طفولتي ومراهقتي وشبابي، لم أكن أبتعد كثيرًا عن منزلنا إبان فترة الثورة رغمًا عن بلوغي العشرين من العمر، وذلك خوفًا من أن أضل الطريق في المدينة. وفي أيام الانتفاضة، عندما كنت أخرج من المنزل، كان جل قلقي ومخاوفي يكمن في كيفية العودة، وكنت أخشى أن أفقد طريقي. لقد كانت المشاركة في الحركات الشعبية للثورة المناهضة للملكية بمثابة اكتشاف لعالم جديد بالنسبة لي؛ عالم مشوق ومتنوع ومتجدد، يزخر بأشخاص جدد ورائعين ومحبين، تعلمت منهم أشياء كثيرة، وكنت أزداد شغفًا بهذا العالم الجديد يومًا بعد يوم.

وفي أحد أيام المظاهرات، تعرفت على فتاة شابة شعرت بأنها كائن مختلف تمامًا، ولم تكن تشبه أي نوع من النساء اللواتي عرفتهن حتى ذلك الوقت؛ إذ كانت جسورة ومستقلة وتبدو معتمدة على نفسها.

أعجبت بشخصيتها كثيرًا وبدأت أسير معها، وكنت أقول لها أن تأخذني معها أينما ذهبت. في البداية، تعجبت "طاهرة" -وهو اسمها- وقالت: إن الجميع يذهبون فاذهبي أنت أيضًا! لكنني رجوتها وقلت: لا، بل أريد الذهاب معك لأنني لا أعرف الطرق. كان وجهها يجمع بين الجرأة والروح القتالية وبين المحبة والطيبة، وهو مزيج لم أره قط في شخص واحد من قبل، وخاصة في امرأة. ولم تكن تقلل من شأني لجهلي بالأمور، بل كانت تمنحني الشجاعة لأتعلم وأجرب أشياء جديدة لم أكن أعرفها. كان البقاء بجانبها غنيمة لي وأشعرني بالقوة، ولأنني وجدت فيها سندًا حقيقيًا، صرت أرافقها بإصرار وأبذل كل جهدي لكي لا أفقدها. وقلت لها بإلحاح: إنك لم تخبريني بعد إلى

أين ستذهبين غدًا، فأنا أريد الذهاب معك. فابتسمت ووافقت على طلبي، ومنذ ذلك اليوم أصبحت أرافقها في كل مكان.

وبعد التعرف على طاهرة، بدأت صفحة جديدة في حياتي، وخطوت نحو عالم مختلف تمامًا عن حياتي السابقة. كان هذا العالم الجديد هو عالم "مجاهدي خلق"، لأن طاهرة كانت من مؤيدي منظمة مجاهدي خلق الإيرانية.

وفي الأيام الأخيرة من الانتفاضة، عندما كنت أعود من المظاهرات أو أتأخر في المدرسة لإنجاز بعض الأعمال وأرجع إلى المنزل متأخرة عن المعتاد، كان والدي يتذمر ويقول لأختي الكبرى لماذا تبقى هذه الفتاة في الأزقة حتى هذا الوقت من الليل وكان يتشاجر معها بدلًا من والدتي الراحلة. في تلك الأيام، كنت أعيش مع أختي الكبرى في مكان واحد. وكانت معارضة والدي لي بسبب عملي خارج المنزل، ونضالي، ورغبتي في اختيار مسار حياتي بنفسي. لكنني في تلك الأيام، وبسبب مشاركتي في النضال وتعرفي على طاهرة وما تعلمته منها ممارسة وعملًا، لم أعد "أعظم" السابقة؛ بل غدوت شجاعة واتخذت قراري بأن أحارب والدي وأخي ومعتقداتهم البالية والمهترئة من أجل نيل حريتي.

ولدت الشهيدة المجاهدة "طاهرة محرر خوانساري" في مدينة أصفهان. وبدأت أنشطتها السياسية في السنوات الأولى من سبعينيات القرن الماضي مع التحاقها بجامعة طهران، ثم ارتبطت بأعضاء منظمة مجاهدي خلق عام ١٩٧٦.

ولدت طاهرة في عائلة ميسورة الحال، ورغم العقبات الكثيرة التي اعترضت مسيرتها النضالية، فقد تغلبت عليها بصمودها وعزيمتها الثورية، وسخرت كل طاقتها وجهدها في سبيل الثورة وحرية شعبها.

وبعد انتصار الثورة المناهضة للملكية، تولت مسؤوليات عدة في أقسام مختلفة من المنظمة، ومنها القسم الاجتماعي وقسم الحماية، وأدت مهامها بكل جدارة وكفاءة.

وفي ٣ مارس ١٩٨٢، وخلال هجوم عنيف شنه حرس النظام على أحد مقرات مجاهدي خلق في طهران، تحركت طاهرة بسرعة وبسالة، فمنعت القوات من اقتحام المقر، مما أتاح الفرصة لإنقاذ ثلاثة من رفاقها؛ حيث تمكنوا بمساعدة الأهالي من كسر طوق الحصار والانتقال إلى مقر آخر.

وفي نهاية هذه المواجهة التي أسفرت عن استشهاد آخرين من مجاهدي خلق وهما عباس عطابور وخديجة مسيح، نقلت طاهرة إلى المستشفى وهي في رمقها الأخير بعد تناولها كبسولة السيانيد، وتم إنقاذها من الموت. وعلى الفور، اقتيدت إلى سجن إيفين، حيث صمدت لساعات طويلة تحت أبشع أنواع التعذيب حتى ارتقت شهيدة. وكانت الشهيدة البطلة طاهرة محرر خوانساري في ٢٥ من عمرها عند استشهادها.

ولكن، لم تكن هذه بالطبع حربًا ضروسًا بعد؛ إذ كنت لا أزال أخاف منهم ومن التقاليد القديمة التي أردت التمرد عليها. إن مواجهة جنود الشاه المسلحين في الشوارع، والذين كانوا يفتحون النار أحيانًا على الحشود ويقتلون الناس، كانت تتطلب جرأة وجسارة أقل بكثير من مواجهة والدي والتقاليد العائلية والبيئية الراسخة التي كنت أعيش فيها. وربما كان السبب في ذلك أنني لم أكن بمفردي في الشارع، بل كان آلاف الناس يحيطون بي ويقدمون لي العون والحماية إن لزم الأمر. أما في المنزل، فكنت أنا وأختي وحيدتين وبلا دفاع أمام القوة المهيبة للتقاليد المتجسدة في سلوكيات والدي وأخي وتعاملاتهم معنا.

وفي الأيام الأخيرة من الانتفاضة، كنت أخرج مرتدية عباءة سوداء (الشادور)، ولكن عندما كنت أبتعد عن منزلنا وشارعنا، كنت أخلع الشادور وأضعه في حقيبتي لكي أتمكن من التحرك والجري بحرية أكبر. ولأنني كنت أعلم أن غطاء الرأس لا يعد حجابًا كاملًا في نظر والدي وأخي، كنت دائم القلق وأفكر فيما قد يحدث لو أنهم رأوني دون الشادور. وفي بعض اللحظات، كنت

أشعر أنني لو واجهتهم فجأة، لتمزق قلبي من شدة الخوف. ودائمًا عندما كنت أريد العودة إلى المنزل، كنت أرتدي الشادور الأسود في زاوية ما على بعد بضعة شوارع من بيتنا، وأتوخى الحذر ألا يراني في تلك اللحظة لا هم ولا أي من أصدقائنا أو جيراننا، فيبلغوهم بهذه الخطيئة الكبرى! كانت لحظات الخوف والقلق هذه تمتزج بالطبع بشعور عذب؛ شعور بفتح مسار جديد في حياتي ومواجهة السدود التي تعيق حركتي. لقد كان شعورًا بالحياة.

العصيان الأول

في أحد الأيام، اتفقت مع ... من أصدقائي على أن نذهب برفقتها وبرفقة أخيها على متن سيارتهما إلى مقبرة بهشت زهرا، محملين بكمية كبيرة من المنشورات والكتب، وذلك لإقامة مظاهرة عند قبور شهداء الثورة. وبعد الكثير من المراوغة والاختباء، وبطريقة تحول دون انتباه والدي لخروجي من المنزل، خرجت وانطلقنا نحو المقبرة. وعندما مررنا من أمام مخفر الشرطة، شعرت وكأنني فتحت قمة شاهقة لمجرد أنني تمكنت من الخروج من المنزل. وبدأنا نردد الهتافات بحماس وشغف ضد الشاه ونظامه، ومررنا بسرعة من أمام المخفر. ولكننا لم نكد نتقدم بضعة أمتار إضافية حتى قطع رجال الشرطة المسلحون طريقنا عند المنعطف، وأمرونا بالالتفاف والعودة، واقتادونا إلى ذات المخفر، وأجبرونا على النزول من السيارة، ومنذ وصولنا عند الباب، بدأوا يضربوننا بأعقاب الأسلحة التي كانت بأيديهم. في تلك اللحظات، انتابني شعور متناقض؛ فمن جهة، كنت أشعر بكياني وقوتي أمام رجال الشرطة الذين يضربوننا، لأنني ظننت أنني أناضل وأنني شريكة في

انتفاضة الشعب، ولكن من جهة أخرى، كانت يداي وقدماى ترتعدان من الخوف. لم يكن خوفي من رجال الشرطة، بل من الرعب الناجم عن احتمال احتجازنا ليلًا وعدم السماح لنا بالعودة إلى المنزل، ومن تفكيري في الجواب الذي ينبغي لي أن أواجه به والدي، حتى إنني فقدت تركيزي تمامًا؛ إذ كان والدي يقول دائمًا إن الفتاة التي تنال قسطًا من التعليم تصبح بلا فائدة، فكيف سيكون إذًا حال الفتاة التي تتعرض للاعتقال؟ كان مصيرها محتومًا مسبقًا في نظره. كنت أشعر بصراع وضوضاء غريبة في داخلي. وقلت لـ... التي كانت تقف بجانبي: إن الليل يقترب، فماذا سنفعل إن لم يطلقوا سراحنا؟ قالت: لا تقلقي، سوف تسير الأمور بطريقة ما! قلت: ولكن ماذا سأقول لوالدي؟ قالت: لا تفكري في هذا الأمر الآن أبدًا! فلننتظر ونرى ما سيحدث، وبعدها سنجد جوابًا لذلك أيضًا، ثم كررت قائلة: لا تفكري في الأمر يا أعظم، اتفقنا؟

إن صلابة صديقتي وثقتها بنفسها بثتا في نفسي الطمأنينة أيضًا، وشعرت بالفرح لأنني أملك شخصًا أستطيع اللجوء إليه إن واجهتني أي مشكلة. ولأنها شعرت بما يختلج في صدري، كانت تمنحني الشجاعة بكلماتها وتقول لا تخافي، لن يحدث أي مكروه، اتركي لي أمر الجواب على والدك! لم يكتفوا بعدم إطلاق سراحنا في تلك الليلة، بل بقينا هناك قيد الاحتجاز لثلاثة أيام إضافية.

وبعد ثلاثة أيام، عندما أطلق سراحنا، شعرت وكأنني حللت مسألة معقدة؛ وهي أنني تجرأت على البقاء خارج المنزل ليلًا دون إذن والدي. ومع ذلك، فور خروجنا قلت إنني خائفة جدًا، فكيف سأذهب إلى منزلنا؟ وماذا سأقول لوالدي وأخي؟ فقالت صديقتي: لنذهب معًا! فذهبنا وطرقنا باب المنزل

ودخلنا سويًا. لكنني نهرت نفسي قائلة لماذا تريدين الاعتماد على الآخرين كالأطفال؟ كوني شجاعة واذهبي بمفردك، وواجهي والدك وأخاك بنفسك! فقلت لها: لقد تراجعت عن رأيي، اذهبي أنت وسأتدبر أمري بطريقة ما، إذ أريد مواجهتهما بمفردي. حاولت صديقتي إقناعي بمرافقتي لتهدئة والدي، لكنني كنت قد اتخذت قراري وقلت: يجب أن أجتاز هذا الأمر بنفسي! ومع ذلك، دخلت المنزل بقدمين ترتعدان، فرأيت وجهي والدي وأخي العبوسين والمتهجمين، وهما يندفعان نحوي بغرض انهيالي بالضرب واللكمات على الأرجح. وحاولت بث القوة في نفسي، وكنت أحدث نفسي وباستمرار قائلة إنك قادرة على إجابتهم، ويجب ألا تخافي! ألم تقولي إنك تريدين محاربة هذه الأمور؟ حسنًا، لقد حانت المواجهة الآن، فلا تخافي وتقدمي إلى الأمام! ودعيهم يرون أنك لم تعودي تلك أعظم التي عرفوها من قبل، وكما يقول المثل "الموت مرة واحدة، والعويل مرة واحدة"! وهذا ما فعلته تمامًا. فرغم الخوف الذي كان يتملكني، لم أظهر ذلك، بل تقدمت وألقيت السلام! وانتظرت لأرى ماذا سيقولان، وعندما واجهت شتائمهم وسبابهم ورأيتهم يقتربون مني لإشباعي ضربًا، وطنت نفسي على الإجابة! وعندما سألاني أين كنت؟ تراجعت وقلت: في منزل صديقتي! فصرخ والدي بغضب غامض قائلًا تبًّا لك! الفتاة لا تبق خارج المنزل ليلًا، فلماذا ذهبت دون إذن؟! فنهرت نفسي قائلة لماذا قلت في منزل صديقتي؟ ولماذا تراجعت؟! فجازفت وتجرأت وقلت بصوت عال حيث كان غريبًا عليّ أنا نفسي: كنت في مخفر الشرطة! نعم، كنت محتجزة في المخفر! ألسنا في حالة حرب كما تقولون؟! حسنًا، أنا أيضًا فرد من هذا الشعب وأريد أن أحارب! وصدم والدي الذي لم يكن يتوقع مني هذا الجواب، وذهل للحظة أو لحظتين ولم يدر ماذا يفعل.

وخلال تبادل هذه الكلمات، كانا قد وصلا إلي وضربوني بالصفعات واللكمات والركلات. أما أنا، التي كنت قد ركبت رأسي تمامًا، فبدأت أصرخ بصوت مرتفع وثقة بالنفس قائلة لماذا تضربونني؟ أنا أيضًا أملك حقًا! كيف ترضون بأن يقتل الناس وتجلسون أنتم تتفرجون! لا أدري ما الذي كان يحمله كلامي من تأثير، فجعلهما يتراجعان في وقت أسرع مما كنت أظن. وجلس والدي متذمرًا وقال: أنا الذي ارتكب الخطأ منذ اليوم الأول، لأنني سمحت لكن بالدراسة والعمل خارج المنزل، فالفتاة التي تدرس وتخرج من المنزل تصبح بلا فائدة.

بداية صراع طويل

بهذا الأسلوب فتحت لنفسي طريقًا إلى خارج المنزل، وصرت أشارك برفقة طاهرة وصديقات أخريات تعرفت عليهن إبان المظاهرات في الحركات الشعبية كافة تقريبًا. وبعد طاهرة، تعرفت تدريجيًا على عدد أكبر من الفتيات والنساء من مؤيدي مجاهدي خلق، وتعلمت من جمعهم أشياء كثيرة. وفي هذا الطريق، لم أعد أرى نفسي وحيدة وبلا سند، بل كنت أشعر بأنني أحظى بدعم قوي؛ إذ بات لدي من يفهم كلامي وأستطيع الاستعانة بهم، أشخاص لا يقللون من شأني لكوني امرأة، بل يثمنون قيمتي وحقي في الاختيار والمساءلة.

ولم أعد أخاف من والدي وأخي. ولاحقًا، في اللحظات المضنية التي كنت أجد نفسي فيها في حرب مواجهة معهما، ولا سيما مع ذلك الأخ الجلاد، كنت أحدث نفسي سرًا لنرى في النهاية من سيخرج منتصرًا؟ وكان الجواب واضحًا بالنسبة لي وأجيب دون أدنى تردد سأنتصر أنا لأنني اخترت هذه

الحياة بنفسي، فقد ذقت طعم تلك الحياة السابقة المرير والسام طوال عشرين عامًا من عمري لحظة بلحظة، وكنت أعلم أنه مهما حدث فلن أعود أبدًا إلى تلك الحياة، حياة الأسر، حياة في عالم أسود ومغلق ذي أفق محدود، حياة في تحقير دائم، وباختصار حياة في قبر!

لقد انتصرت في المعركة الأولى لإعلان استقلالي أمام والدي وأخي، لكن ذلك لم يكن سوى بداية لحرب طويلة؛ فقبل انتصار الثورة، كنا أنا ووالدي وأخي على أي حال نتفق في بعض المجالات، إذ كان يبدو في الظاهر أنني بخروجي إلى المظاهرات أسير أيضًا في ركاب الثورة التي تولى خميني قيادتها. غير أن المراحل التالية من الحرب، والتي كانت شاقة ودامية للغاية، كانت في الطريق، وذلك حينما تعارض النهج والعقيدة اللذان اخترتهما -أي تنظيم مجاهدي خلق وفكر مجاهدي خلق- مع خميني وأيديولوجيته، ومن هنا تحديدًا دخلت في تضاد وعداوة كاملة ولا سيما مع أخي.

وكنت أزداد شغفًا بمجاهدي خلق وفكرهم يومًا بعد يوم، وفي الواقع باستثناء الأوقات التي كنت أذهب فيها للتدريس في مدرسة لا تبعد كثيرًا عن منزلنا، كان بقية وقتي مخصصًا للنشاط لصالح مجاهدي خلق، ولم أكن أعرف ليلًا أو نهارًا في هذا المجال. ولهذا السبب، كنت أبقى خارج المنزل أحيانًا حتى وقت متأخر من الليل، وأقضي جل وقتي في الشوارع بالعمل الدعائي وبيع الصحف والكتب أو المشاركة في الدورات التعليمية التي كان ينظمها التنظيم لمؤيديه في مختلف المستويات. لقد كانت هذه حياة جديدة تمامًا كنت ألتهم كل لحظة منها بنهم واشتياق، فكنت كمن شارف على الاختناق ثم استنشق فجأة الهواء النقي؛ إذ كنت أشعر بكياني، وأن وجودي مؤثر، ولهذا السبب كنت أشعر بالسعادة.

بالطبع، كنت أخوض حربًا وشجارًا كل يوم في المنزل مع والدي وأخي، فكانا يتوعداننني بذريعة أنه لا ينبغي للفتاة أن تبقى خارج المنزل وتتحدث في الأزقة والشوارع مع رجال غرباء، قائلين إن رأيناك في الشارع تبيعين الصحف أو تخوضين في نقاش وحوار سياسي كسائر فتيات "الحركة"[٢] فستكون تصفية حسابك معنا واضحة. وكنت أضحك في داخلي عليهما لظنهما أن بمقدورهما منعي بهذه التهديدات من الحياة والدرب الذي اخترته، لكنني كنت في الوقت عينه لا أزال خائفة.

وذات مرة، عندما ذهبت لبيع صحيفة "المجاهد" في ساحة خراسان وهو منطقة سكننا، تعرضت للاعتقال. وتعد هذه المنطقة من أكثر مناطق طهران تقليدية، وأظن أن حضور عناصر اللجان والباسيج والبلطجية ذوي الهراوات كان فيها أكثر من أي منطقة أخرى في طهران. في ذلك اليوم، كنا أنا وصديقتاي كبرى وزهراء إبراهيميان قد بدأنا للتو عمل بيع الصحف، وكنا كالمعتاد ننادي بعناوين المواد بصوت مرتفع، وفجأة وجدنا أنفسنا محاصرين من قبل عشرين أو ثلاثين من أفراد الحرس وبلطجية خميني. فانقضوا علينا وضربونا بوحشية، وكانوا يحاولون في الوقت نفسه انتزاع الصحف التي كانت بأيدينا وتمزيقها. ورغم أن أفراد الحرس ضربونا بكل ما أوتوا من قوة ليمزقوا أشلاءنا، إلا أنهم لم يتمكنوا من انتزاع الصحف من أيدينا وإبادتها، إذ استطعنا عبر جعل أجسادنا درعًا أن نخرج الصحف التي كانت

[٢] كان مصطلح "الحركة" اختصارًا لاسم "الحركة الوطنية لمجاهدي خلق" ("جنبش ملى مجاهدين" بالفارسية)، وهو الاسم الذي نظمت منظمة مجاهدي خلق في إطاره أنشطة واسعة لمؤيديها، ضمن تشكيل بهذا الاسم بعد انتصار الثورة. وكان مؤيدو خميني يطلقون في البداية على أنصار مجاهدي خلق اسم "أصحاب الحركة".

كأنها كل ما نملك سالمة من الساحة لكي لا تطالها أيدي أفراد الحرس. ولم يتبق سوى بضع نسخ منها في يدي حينما ألقي القبض علي.

واقتادوني إلى لجنة ساحة خراسان. ورغم أنني اخترت النضال عن عزم وتصميم، إلا أنني كنت لا أزال خائفة جدًا عند مواجهة حدث كهذا، أي الاعتقال والنقل إلى لجنة المنطقة التي كان والدي وأخي يعدانها وصمة عار تلطخ شرف العائلة. على أي حال، عندما أدخلوني إلى اللجنة، بدأ البلطجية و"حزب اللهيين" في اللجنة يشيرون إليّ بدهشة ويقولون لبعضهم بعضًا هذه ابنة فلان وأخت فلان؛ فلأن عائلتنا كانت تعيش في تلك المنطقة منذ عشرين عامًا، كان جميع أهل المحلة يعرفوننا تقريبًا. واستغلوا هذه القضية بالذات وبدأوا يرهبونني قائلين سنخبر والدك وأخاك الآن.

في البداية كنت خائفة جدًا، لأنني كنت أشعر بأنهم ثلاثة رجال في المنزل بينما كنا نحن ثلاث نساء أنا وأخواتي، وكنت أشعر بالعجز والخوف أمامهم. وكان جل سعائي يكمن في ألا يعلموا بنشاطاتي، لكنني دخلت حربًا كانت تضعني أمامهم باستمرار وشاء ذلك أم أبى. وفي الحقيقة، كانت هذه حربًا تدور في داخلي أنا أيضًا؛ أ أختار خميني أم مجاهدي خلق؟ وكان اختيار أي منهما يعني اختيار حياة مختلفة تمامًا. فلو اخترت خميني لكنت اخترت حياة بلا لون تتلخص في جدران المنزل الأربعة، وتترافق بالنسبة لي -أنا المعلمة- بنوع من الفتور تجاه المدرسة والتدريس أيضًا، لكنني كنت سأخطو في المحصلة نحو مسار حياة بلا مشاكل، ولتخلصت من كل ذلك القلق والحرب المستمرة في المنزل والحرب خارج المنزل مع أفراد الحرس وأنصار خميني الذين كانوا من طينة والدي وأخي نفسها. لكنت قد اخترت حياة شاقة ومحفوفة بالمخاطر، بل كنت في واقع الأمر قد اخترت الحرب؛

حربًا كان من الواضح أنها ستزداد ضراوة ودموية يومًا بعد يوم. ورغم أن تلك الحرب لم تكن تخلوا من عذوبة خاصة بها، إلا أنها كانت مضنية وعسيرة للغاية، وكان الاستمرار فيها يتطلب عزمًا وإرادة فولاذية. وفي تلك الأيام، لم أكن أملك تصورًا عما سأخوضه لاحقًا، ولم يكن بمقدوري ذلك، غير أنني كنت أدرك قبالة ذلك بقدر أو بآخر أنني مقبلة على درب شاق ومليء بالمخاطر، وكم تساءلت مع نفسي مرارًا بين خوف ورجاء هل سأقوى على السير في هذا الدرب حتى نهايته؟ لكنني كنت أشعر دائمًا في أعماقي ببهجة بالغة وانشراح، ورغم أن الحوادث المختلفة التي كانت تقع كانت تمتزج بالقلق والمعاناة، إلا أنني كنت أشعر عقب كل حادثة بأن شيئًا ما قد انحل في داخلي، وكأن قامتي قد استطالت.

وذات مرة، تعرض فريقنا لهجوم من جماعات حزب الله والحرس في شارع "آب منكل" في طهران، وهو أحد مراكز ثقل أفراد الحرس واللجان القساة، وذلك أثناء قيامنا ببيع صحيفة "المجاهد" والدعاية لها. ولمحت عيني بين تلك الجموع عسكر أولادي[٣] وهو يرقبنا بنظراته الغاضبة، وأظن أنه قد عرفني. فانتابني الخوف للحظة، وكان هذا الخوف في حقيقته نابعًا من خشية والدي وأخي وعائلتي. ولكن في الوقت عينه، وقعت عيني على "آذر"، وهي إحدى عضوات فريقنا، وهي تزأر كالأسد وتكشف ممارسات أفراد الحرس وأعوان النظام وتجعل من نفسها درعًا يحمينا. وبثت شجاعتها

[٣] "حبيب الله عسكر أولادي"، وهو من أقطاب النظام وعضو في مجمع تشخيص مصلحة نظام الملالي أيضًا، وشغل منصب وزير لفترة طويلة، كانت تربطني به صلة قرابة عائلية بعيدة.

وحسمها في نفسي الجرأة والجسارة، وقررت أن أكون مثلها، ومنذ تلك اللحظة شعرت بأنني قد استرددت قوتي ولم أعد أخاف من تلك الثعالب.

واقتادونا إلى لجنة "آب منكل" الشهيرة، وأوسعونا ضربًا حتى المساء لدرجة أن الكدمات غطت وجه آذر وجسدها بالكامل، ولم يكن حالي وحال الفتاتين الأخريين بأفضل منها. وهناك أدركت لأول مرة مدى قسوة أفراد الحرس وبلطجية خميني وحقدهم الحيواني تجاه مجاهدي خلق، وفهمت أن هؤلاء على استعداد لارتكاب أي جريمة ضدنا، ولن يتوانوا عن قتلنا عندما تحين الفرصة. وكان هذا كله يجرى في وقت لم تكن فيه أنشطة مجاهدي خلق قد أعلنت غير قانونية رسميًا بعد، وكانت صحيفة "المجاهد" تحظى بترخيص للنشر في إطار قوانينهم نفسها. وبناءً على ذلك، كنا نقوم بكشف الحقائق ونقول إننا لم نرتكب عملًا غير قانوني ويجب إطلاق سراحنا، حتى أطلقوا سراحنا في نهاية المطاف قبيل الغروب.

وعندما خرجنا، تملكني الخوف في البداية من كيفية العودة إلى المنزل بهذا الحال وبهذا الوجه والجرحى والكاحل، وما الجواب الذي سأواجه به والدي وإخوتي؟ ولكن استرشادًا بما تعلمته من آذر، نهرت نفسي قائلة لماذا يجب أن أكون خائفة ومطأطئة الرأس؟ بل هم الذين يجب أن يجيبوا عما إذا كان الإسلام الذي يتشدقون به هو هذا؟ وهل مروءتهم الإسلامية تقتضي اعتقال فتيات شابات عزل وأبرياء واقتيادهن إلى اللجنة لينقض عليهن بضعة عمالقة ويوسعوهن ضربًا مبرحًا لساعات؟ وما كانت جريمتنا؟!

وذات مرة أخرى، كنت أتحرك برفقة "زهرة تبريزي" -وهي من شهداء عام ١٩٨١- وكانت زميلتي في الفريق، في شارع طالقاني بين السيارات المتوقفة

عند الإشارة الحمراء، وننادي بعناوين صحيفة "المجاهد" بأعلى صوتنا لإيصالها إلى مسامع الناس. وفجأة تلاقت عيني بعيني أخي الأكبر داخل إحدى السيارات، وكان ينظر إلي بغيظ شديد. وقبل ذلك، كنت قد فكرت مرارًا في هذه اللحظة، وتخيلت ماذا سيحدث لو رآني أخي فجأة وأنا أقوم بالدعاية لمجاهدي خلق؟ وماذا سيفعل هو وماذا يتعين علي أن أفعل أنا؟ والآن حانت تلك اللحظة ذاتها في ظروف لم أكن أتوقعها بتاتًا.

فقدت هدوئي وتوقفت عن السير، وعندما رأت زهرة التي كانت تتقدم القفز ببضع خطوات أنني قد سكت، سألتني ماذا حدث؟ فأشرت إلى السيارة وقلت: إنه أخي! وقالت زهرة التي كانت تعرف قصتي مع أخي وعائلتي: تعالي ولا تلتفتي إليه، وإن كان يملك الجرأة فليترجل من السيارة، فنحن نحتمي بالناس! وبث كلام زهرة الطمأنينة في نفسي، وكررت مع نفسي قائلة إنها محقة فنحن نحتمي بالناس، ولست بمفردي هنا بعد الآن. ويبدو أن أخي قد أدرك هذه الحقيقة ذاتها، ففضل أن يتظاهر بعدم الاكتراث، وبدأت أصرخ دون التفات إليه بصوت أعلى من ذي قبل "المجاهد، الجريدة الرسمية لمنظمة مجاهدي خلق الإيرانية" وتابعت عملي بين السيارات.

وفي تلك الليلة أثناء طريقي إلى المنزل، كنت أهيئ نفسي لخوض معركة دامية. وعندما وصلت، تعمدت وضع بضع نسخ متبقية من الصحيفة فوق جهاز التلفاز في غرفة المعيشة.

فقال لي أخي: أيتها الفتاة إن رأيتك مرة أخرى في الشارع مع هذه الصحف فستكون نهايتك، وافعلي ما تشائين، ولكن لا تقومي بهذه الأعمال في الشارع!

فضحكت في داخلي زهوًا وانتصارًا وقلت لنفسي: لو كنت تريد فعل شيء وتملك الجرأة عليه، فلماذا لم تفعله اليوم؟ كنت أشعر بالقوة لأن تهديداته لم تعد تخيفني، فقد تحطمت هيبته وانهارت في مخيلتي تمامًا.

هكذا كان الحال في هذه الحرب الممتدة، إذ كنت أشعر يومًا بعد يوم بأن قيدًا وسلسلة ينحلان من يدي وقدمي وعقلي، وبأنني بدأت أستقيم وأقف على قدمي. وكان هذا شعورًا عذبًا ومبهجًا للغاية، خفف عني من جهة مشاق الدرب ومخاطره، وبث في من جهة أخرى روح الشغف والعصيان ضد ذلك العالم القديم والعلاقات الأبوية الجائرة، وكنت على أهبة الاستعداد لأجعل من أي شيء وسيلة وأداة للحرب مع ذلك العالم. وعلى سبيل المثال، استحال التأخر في العودة إلى المنزل بمثابة نضال بالنسبة لي، فكان ينشب بسببه كل يوم حرب وشجار في منزلنا، بيد أنني لم أكن مستعدة للتخلي عما أعده حقًا من حقوقي.

وكان منزلنا كما أسلفت يقع في إحدى أقصى مناطق جنوب طهران، وكنت أعمل حتى وقت متأخر من الليل في منطقة شرق طهران وأصل إلى المنزل قرابة منتصف الليل. وكان بقاء الفتاة خارج المنزل حتى هذا الوقت من الليل في حينا خطيئة كبرى، وكان والدي وإخوتي يبدون حساسية بالغة إزاء هذا الأمر. وفي البداية عندما كنت أعود إلى المنزل، كنت أفتح الباب بلا صخب مستخدمة مفتاحي، وأشرع في أداء الأعمال المنزلية أو أتناول عشائي وأتظاهر بأنني في المنزل منذ ساعات. ولكن بعد مرور نحو عام، قلت لنفسي: لماذا أخوض "لعبة الغميضة" هذه؟ فهذا حقي فلماذا لا أحارب لأجله؟ ومنذ ذلك الحين عندما كنت أدخل المنزل، كنت أفتح الباب وأغلقه بشكل طبيعي ومسموع، ولأن منزلنا كان صغيرًا فقد كان الجميع يعلم فورًا

بأنني قد دخلت. وهكذا انكسر ذلك الطلسم في نهاية المطاف، وأجبرتهم على الاعتراف بحقي.

الأيام السعيدة للصراع

ولم تكن الأيام العذبة بقليلة في خضم هذه الصراعات المستمرة؛ وكان أحدها ذلك اليوم الذي عرفت فيه والدي بمجاهدي خلق وإسلام مجاهدي خلق. لقد كان والدي رجلًا كادحًا ولم يكن قاسي القلب أو أسود السريرة، بل تكمن مشكلته في جهله وقلة وعيه، إذ كان يظن أن الإسلام يتلخص في خميني والملالي المحيطين به، وحينما كان يضيق علي الخناق كان يتوهم أنه يؤدي واجبه الشرعي. وذات مرة، جلبت إلى المنزل شريطًا مسجلًا من درس فلسفة الشعائر الذي كان قد ألقاه علينا أحد مسؤولي التنظيم، وشغلته له، ولم يكن يرغب في الاستماع إليه في بادئ الأمر، ولكن ما إن استمع إلى جانب منه حتى جذب انتباهه. وكنت أرقبه وأرى كيف استرعى الشريط اهتمامه أولًا، ثم بدا ينجذب إليه تدريجيًا حتى أضحى في النهاية مأخوذًا ومفتونًا به. وعندما انتهى الشريط، قال بدهشة وثناء: لا أدري إن كان هؤلاء هم المسلمون فماذا أقول أنا، وإن كنت أنا المسلم فماذا يقول هؤلاء؟ واستمع إلى الشريط بضع مرات وكان يقول لقد فهمت الآن فقط معنى الصلاة. ومنذ ذلك الحين، تبدلت وجهة نظره تجاه مجاهدي خلق وصار يحبهم، وعندما كانت صديقاتي يأتين إلى منزلنا كان يغدقهن بالمحبة، ولم يعد يضيق علي بسبب أنشطتي وتأخري في العودة، ويبدو على الأقل أنه قد اطمأن إلى أن العمل والنشاط مع مجاهدي خلق لا يترك مجالًا لمخاوفه التي كانت تتمحور أساسًا حول المسائل الأخلاقية.

وكانت ثمة غبطة وسعادة كبرى أخرى تملأ نفسي في تلك الأيام، حينما كنت أعود إلى المنزل في أواخر الليل عقب يوم حافل بالركض والنشاط المكثف بصفتي مؤيدة نشطة لمجاهدي خلق أعمل آناء الليل وأطراف النهار. وكان يتواجد هناك أختي "نجمة" وزوجها "فرهاد" اللذان كانا قد تزوجا حديثًا، وكانت أختي الكبرى "مهين" تنضم إلينا أيضًا. فكنا نجتمع جميعًا في غرفة واحدة ونقص ما قمنا به من أعمال وأنشطة وما اكتسبناه من تجارب وما شهدناه وسمعناه من أمور شائقة، وعن هجمات البلطجية ذوي الهراوات، ودعم الناس لنا، وغير ذلك. ولا سيما أن نطاق أنشطتنا كان متباينًا؛ فكنت أعمل في شرق طهران، ونجمة في الجنوب، وفرهاد في شمال طهران، فكنا نتعامل مع شتى شرائح المجتمع. وكنا نقص ذلك على بعضنا بعضًا لساعات بشغف وحرارة، ونتعلم من تجارب بعضنا ونفرح من أعماق قلوبنا، وكانت أختي "مهين" تستمع إلى ذلك كله بشوق واهتمام بالغين وتشاركنا بهجتنا، وكانت تقول وفقًا لتعبيرها إن تلك الأيام كانت أسعد أيام حياتها كلها. ولا سيما أن إخوتي كانوا في ذلك الوقت قد استقل كل منهم بمنزله وحياته وغادروا ذلك البيت، وظل والدي بمفرده. وكان والدي يستريح في الغرفة الأخرى، وكان يبدو مستاءً لأنه لا يدرك كنه الأمور التي نتحدث عنها ونضحك لأجلها كل ليلة حتى قبيل السحر، غير أنه لم يكن يملك سوى التذمر.

كنت أشعر بالسعادة حقًا في تلك الأيام. ولكن بما أن خميني كان قد تغلغل لسنوات كمرجع ديني في عمق معتقدات والدي وأمثاله، فعندما ظهر عبر شاشات التلفاز في عام ١٩٨٠، واتخذ موقفًا صريحًا ضد مجاهدي خلق ووصمنا بصفة "منافق"، تمكن في واقع الأمر عبر هذا الدجل من التأثير على

القوى الدينية المتخلفة في المجتمع وكان والدي أحدهم، وجره إلى مناهضة مجاهدي خلق وتجفيف كل العواطف الأبوية والإنسانية في صدره، لدرجة أن والدي كان يقول لي إنه حرام عليك أن تأكلي من الخبز والطعام الذي آتي به. لقد أدرك خميني أنه لو أمهل مجاهدي خلق وقتًا أطول، فإنهم سيذيبون سريعًا قاعدته الاجتماعية التي كانت نتاجًا لجهل الناس. ولم يتوان خميني عن ارتكاب أي جريمة لإقصاء مجاهدي خلق من الساحة السياسية والاجتماعية في إيران. ولكن في نهاية المطاف، وبسبب هذه الجرائم التي لا يمكن تصورها في حق مجاهدي خلق والشعب الإيراني، فقد قاعدته الاجتماعية سريعًا؛ فذلك الدجال الذي كانت الجماهير المحرومة والمظلومة ترى صورته يومًا في القمر، أصبح موضع ازدراء شديد من الناس، وحاز على الصعيد الدولي أيضًا وسم "الديكتاتور الأكثر فظاعة في القرن".

لقد سقط خميني من القمر إلى البئر، لكن ذلك كان ثمنه باهظًا للغاية؛ ثمنًا دفعه مجاهدي خلق والشعب الإيراني من لحمهم وجلودهم ودماء خيرة أبنائهم.

صراع قوتين

في عام ١٩٨١، اتخذت هجمات أفراد الحرس والبلطجية التابعين لخميني ضد مجاهدي خلق ومؤيديهم طابعًا وحشيًا ومميتًا للغاية؛ إذ لم يكن يمر يوم نخرج فيه إلى الشارع دون أن نتعرض لهجومهم الوحشي، ولم يكن يمضي يوم دون أن يقتل أو يجرح أو يعتقل فيه فرد أو عدة أفراد من أنصار مجاهدي خلق على أيدي البلطجية ذوي الهراوات، ليخضعوا بعد ذلك

لصنوف التعذيب. وكانوا يضربوننا بلكماتهم وركلاتهم ومختلف الأسلحة البيضاء بنية القتل.

وذات يوم، كنت أعمل برفقة زميلتي عند تقاطع جمهوري في بيع صحيفة "المجاهد". وفي ذلك اليوم، كانت صديقتي تمسك الصحيفة بيدها وتنادي بعناوينها بصوت مرتفع كالعادة. وبينما كنت أتولى مهمة حمايتها، لمحت فجأة ثلاثة رجال ضخام البنية، كثيفي اللحى، يفوقونني طولًا بسبعين سنتيمترًا تقريبًا، وهم يتوجهون نحونا، وكانت يد أحدهم داخل قميصه. فأدركت أن لديه نية خبيثة وأنه يريد إخراج أداة ما ليضرب بها صديقتي. ولم أرفع عيني عنهم وكان جل تركيزي منصبًا على ما يتعين علي فعله. فتحركت حتى صرت خلفهم، ولم تبق سوى خطوة واحدة ليصلوا إلى صديقتي حتى رأيت ذلك الضخم يخرج النشاكو من قميصه ويرفع يده ليضرب بها رأس صديقتي بكل ما أوتي من قوة. ولا أدري من أين استمددت تلك القوة في تلك اللحظة، إذ قفزت إلى الأعلى وخطفته النشاكو من خلف ظهره، ثم هربت.

كان شارع جمهوري مزدحمًا للغاية، فكنت أركض بكل ما أملك من قوة، وكان الرجلان الضخمان يركضان خلفي. وكاد نفسي ينقطع من شدة التعب والخوف؛ ولأن رواسب النظرة الدونية لنفسي باعتباري امرأة "مستضعفة" كانت لا تزال متجذرة في داخلي، تمنيت في تلك اللحظات أن يهب لنجدتي رجل يقوى على مواجهة أولئك العمالقة ويخلصني من بين أيديهم. وأثناء ركضي، كنت أفكر فيما يجب علي فعله، فاسترعى انتباهي جسر وممر صغير فوق مجرى مائي يقع في طريقي، وكان ذلك فرصة مواتية، فألقيت النشاكو تحته وتابعت الركض.

بعد لحظات قليلة، لحق بي أولئك الرجال ضخام البنية وانهالوا علي بالضرب واللكم والركل. ورغم أن جسدي كان مثخنًا بالجراح، إلا أنني كنت أشعر بنشوة الانتصار في أعماقي؛ لأنني نجحت في إنقاذ صديقتي من جهة، وجردتهم من سلاحهم من جهة أخرى، وهو ما كان يشعرهم بغيظ شديد، ولا سيما أنهم أحسوا بالخزي لانكسارهم أمام فتاة نحيفة. وتدريجيًا بدأ الناس يتجمهرون حولنا ويعترضون على انقضاضهم على فتاة مستضعفة وعزلاء وضربها.

وكانت كل حادثة من هذه الحوادث التي تعترض طريقي مرارًا إبان الأنشطة الدعائية وكشف الحقائق، بمثابة عامل يبعدني خطوة عن الاستضعاف ويبث في نفسي الثقة بالذات. وأظن أنه بالتوازي مع ذلك، كانت نظرة الشعب والمجتمع تبدلت تجاه النظام وتجاهنا؛ فالناس كانوا يشهدون ممارسات بلطجية النظام ضدنا ويمتلئون غيظًا منهم. ومن جهة أخرى، كانوا يرون صمودنا فازداد احترامهم ومحبتهم لنا، ولا سيما تجاه الفتيات والنساء من مؤيدي مجاهدي خلق، واكتسبوا هم أنفسهم جسارة وحمية أكبر لمواجهة عناصر النظام القمعية والتصدي لهم.

نحن كنا نرى في ذلك المعترك العظيم والواسع الذي كان يجرى في المجتمع كافة وفي المدن جميعها، بأم أعيننا كيف يتهاوى خميني يومًا بعد يوم من تلك المكانة التي كان يحظى بها، وكيف ينفض من حوله الناس الذين كانوا يقعون في وهم قدسيته في البداية، ويتوجهون في المقابل نحو مجاهدي خلق والقوى التقدمية. وبالتوازي مع هذا المسار، كانت وحشية أفراد الحرس وبلطجية النظام وعنفهم ضدنا يزدادان ضراوة يومًا بعد يوم؛ فكلما خرجنا لبيع الصحف أو ممارسة الأنشطة الدعائية، لم نكن نأمل في

العودة إلى المنزل مساءً. وعندما كنا نعود، كنا نصل برؤوس وأيد مكسورة ومجروحة، وبأجساد مغطاة بالكدمات والدماء، غير أن المعنويات كانت في أوجها بسبب ذلك الحراك الاجتماعي المتحول الذي أسلفت ذكره، إذ كنا نلمس بأعيننا تآكل النظام وأفوله على الصعيد الاجتماعي، ونعاين تقدمنا نحن.

اعتقالات واسعة

في يوم ٣١ مايو ١٩٨١، جاء أفراد حرس النظام إلى المدرسة التي كنت أدرس فيها لاعتقالي. وأبلغتني إحدى المعلمات وهي صديقة لي وكان شباك فصلها يطل على الشارع بأن ثمة أفرادًا يتحركون حول المدرسة ويبدون مريبين. ونظرت من النافذة وخمنت أنهم جاؤوا لاعتقالي؛ فخرجت من نافذة الفصل وغادرت المدرسة مسرعة، وبهذه الطريقة هربت من قبضة الحرس. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت مطاردة من قبل أفراد الحرس.

ولكن بما أنني لم أكن قد أجريت الامتحان النهائي لطلاب فصلي وكنت قلقة على وضعهم الدراسي، فقد نسقت موعد الامتحان عبر زميلاتي المعلمات، ورغم أن هذا العمل كان ينطوي على مخاطرة كبرى وكانت صديقاتي يحذرنني من مغبة ذلك، إلا أنني غامرت ولم يطاوعني قلبي أن أترك أطفال فصلي يواجهون مصيرًا مجهولًا، فذهبت إلى المدرسة وأجريت لهم الامتحان. وما إن رآني الأطفال حتى التفوا حولي بابتهاج غامر، وكانوا يعبرون عن سعادتهم برؤيتي مجددًا. بعد انتهاء الامتحان، أخبرت الأطفال بأنني قد لا أكون معلمتهم بعد الآن، ولربما لن نتمكن من لقاء بعضنا بعضًا في القريب العاجل. وبدا الحزن جليًا على الأطفال، وعبروا عن امتنانهم

بنظراتهم التي كانت مغرورقة بالدموع أحيانًا وبتأكيدهم على رغبتهم في أن أكون معلمتهم في العام المقبل أيضًا. وكان الفراق عن أولئك الصغار الطيبين والمحرومين عسيرًا علي، بيد أنني ودعتهم وخرجت مسرعة، ونجوت مرة أخرى من أيدي حرس خميني دون أذى.

وقبل ذلك أيضًا، تعرضت عدة مرات في شهري مايو ويونيو عام ١٩٨١ لخطر الاعتقال من قبل لجان مختلفة إبان الأنشطة الدعائية، ولكن كنت أطلق سراحي في كل مرة بعد تحمل الإهانات والضرب المبرح على أيدي أفراد الحرس. ومن ذلك ما جرى في يوم ٨ يونيو أثناء مظاهرة سلمية أقيمت في طهران، حيث تعرضت لهجوم من أفراد الحرس الذين كان معظمهم ينتمي إلى لجنة حينا وكانوا يعرفونني، فأصبت بجروح. وكان هؤلاء قد انقضوا على المتظاهرين بالهراوات والمدى والقامات والننشاكو، وكانوا يضربون المتظاهرين بطريقة وحشية وقاسية للغاية داخل طوق الحصار الذي فرضوه، وكان معظم المتظاهرين من الفتيات والنساء الشابات من مؤيدي مجاهدي خلق. وفي هذا الهجوم، أصيبت إحدى صديقاتي وتدعى "طاهرة نقدي"[٤] بجروح بالغة، وهي التي استشهدت لاحقًا على أيدي جلادي خميني في سجن إيفين. ولكننا تمكنا في نهاية المطاف بمساعدة المواطنين من كسر طوق الحصار وإنقاذ طاهرة والبقية من أيدي البلطجية ذوي الهراوات.

مرة أخرى، في ١٤ يونيو، وأثناء قيامي، برفقة إحدى زميلات فريقي وتدعى "صديقة"، بإقامة أكشاك لبيع الكتب في الشارع، اعتقلت بعد أن تعرضت

[٤] كان "محمدحسين نقدي"، أحد المقربين من طاهرة، ممثلًا لـ"المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية" في إيطاليا، واستشهد عام ١٩٩٣ على أيدي إرهابيي نظام خميني في قلب العاصمة روما.

للضرب المبرح على أيدي أفراد الحرس. ولمدة ثلاثة أيام، لم ينقلوني أنا وصديقة إلى أي مركز احتجاز، بل ظلوا طوال تلك المدة يجوبون بنا الشوارع في سيارات الدورية التابعة لحرس النظام. وكانوا قد ألقوا بي وبصديقة، التي كانت حاملًا أيضًا، بين عدد من الرجال، وظلوا طوال الأيام الثلاثة ينهالون على رؤوسنا ووجوهنا بالهراوات واللكمات والركلات دون انقطاع، ويطوفون بنا في أنحاء المدينة.

وفقدت صديقة وعيها نتيجة تلك الضربات. أما أنا، فبسبب حملها، كنت أحاول حمايتها، فجعلت من جسدي درعًا لها، لعلي أستطيع أن أخفف عنها شيئًا من شدة الضربات. وكان رأسي ووجهي قد امتلآ تمامًا بالكدمات والرضوض، حتى إنني في النهاية لم أعد أقوى على الحركة.

ومنذ الساعة الحادية عشرة ليلًا، كانوا يأخذوننا إلى إحدى اللجان الواقعة في شمال المدينة، والمعروفة باسم "لجنة الوزراء"، حيث كانوا يلقون بنا في زنزانة حتى الصباح. وكانوا قد شيدوا في أحد أقسام تلك اللجنة عدة زنازين جديدة. وكانت الزنزانة التي كانوا يلقوننا فيها ليلًا خالية تمامًا من أي وسيلة أو تجهيز، حتى إنها كانت تفتقر إلى حصير يفرش على الأرض. وكنا نستلقي حتى الصباح على أرضيتها الإسمنتية، وما إن يحل الصباح حتى يعاودوا جرنا بالقوة على الأرض، ثم يلقون بنا داخل السيارة تحت أقدامهم، ويستمرون أثناء سيرها في شتمنا وضربنا، إلى أن بلغ بنا الأمر حدًا لم نعد معه قادرين على القيام بأي حركة.

وأخيرًا، في اليوم الثالث عند الساعة العاشرة صباحًا، ألقوا بي وبصديقة خارج السيارة، حافيتي القدمين ومن دون أحذية، ووجوهنا مليئة بالجروح

والكدمات، في أحد الأزقة الواقعة شمال شارع مصدق، ثم انصرفوا، بعد أن استولوا أيضًا على أموالنا وحقائبنا اليدوية. ولم يكن أمامنا سوى أن نسير حفاة في الشارع. وعندما رآنا الباعة المتجولون على جانب الطريق بتلك الحالة، أشفقوا علينا، فأعطى كل منهم كل واحدة منا زوجًا من النعال، فانتعلناهما ومضينا في طريقنا.

ثم توجهنا إلى منزل إحدى صديقاتي، وكان يبعد خمس أو ست محطات عن ذلك المكان. فاستقبلتنا بحفاوة، ولما سمعت ما جرى لنا، أحضرت لنا الطعام. وكنا قد أمضينا ثلاثة أيام من دون أن نأكل شيئًا، فالتهمنا الطعام بسرعة. ثم أخذتنا إلى طبيب كان من أصدقاء أسرتها، فقام بتضميد جروحنا. ولكن، بما أن رأسي ووجهي كانا مصابين ومضمدين بالضمادات، فقد كان أفراد الحرس، خلال الأيام التالية، كلما كنا نسير في الشارع، يستوقفوننا ويخضعوننا للاستجواب.

في ١٨ يونيو، وأثناء عبوري الشارع، أثرت شكوك عناصر خميني، فاعتقلت مرة أخرى، وبقيت محتجزة لمدة يومين في إحدى لجان طهران الواقعة تحت جسر "سيد خندان". وهناك ألقوا بي في غرفة صغيرة جدًا، وشرعوا ينهالون علي بالضرب بأعقاب البنادق والهراوات. واتخذوا من القاطع (الكاتر) الذي كان في حقيبتي ذريعة، وكانوا يقولون لقد وضعت هذا القاطع في حقيبتك لتقتلي به أحد أفراد الحرس. وخلال ساعتين، لفقوا لي ملفًا ضم عدة أعداد من جريدة "المجاهد"، وعددًا من كتب ومنشورات مجاهدي خلق، إضافة إلى سكين مطبخ كبيرة ملطخة بالدماء، وألحقوا كل ذلك بما سموه مرفقات الملف. واستنادًا إلى ذلك كانوا يستجوبونني ويقولون اعترفي، كم واحدًا من أفراد حرس الإسلام قتلت بهذا السكين؟

وخلال هذين اليومين، بينما كانت عيناي معصوبتين باستمرار، أخذوني عدة مرات ليلًا إلى سجن إيفين، وكانوا يقولون سنرسلك الآن إلى الجحيم. عملنا هو قتل المنافقين، وأنت بهذا الملف، منافقة حقيقية. وكانوا يأخذونني معصوبة العينين إلى أماكن مختلفة، كالأقبية، ويعلقونني من مكان مرتفع، وفي الوقت نفسه يشغلون أصواتًا مرعبة، وصراخًا واستغاثات وأنين أشخاص يتعرضون للتعذيب، حتى ينهكوا أعصابي ويجبروني على الاعتراف بذلك الملف المفبرك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أواجه فيها مثل هذه المشاهد. وقبل ذلك لم أكن قد قرأت شيئًا مشابهًا لما كنت أتعرض له إلا في السير الذاتية للشهداء الأبطال. وتذكرت كيف أن أولئك الشهداء كانوا، حين كنت أقرأ سيرهم، يبدون لي بعيدين المنال، وأن أكون مثلهم كان يمثل قمة طموحاتي. كنت أتمنى أن أستطيع الصمود تحت التعذيب في سبيل حرية الشعب، وألا أخون الشعب ولا قضية حريته.

ولكن عندما أخذوني للمرة الأولى إلى مكان لم أعرف قط أين هو، وكنت أسمع على الدوام أصوات التعذيب والعويل والصراخ والضجيج الصادر عن أشخاص كانوا يتعرضون للتعذيب، ثم علقوني أنا أيضًا وضربوني، ارتجفت بشدة، واستولى الخوف على كياني كله. وكان خوفي الأكبر هو أنه هل سأستطيع احتمال ذلك التعذيب الرهيب الذي لم أكن أسمع منه إلا صرخات ضحاياه؟ كنت ألجأ إلى الله، وأبثه شكواي، وأتضرع إليه أن يعينني على ألا أنهار تحت التعذيب، وألا أفقد الإيمان الذي اكتسبته بعد معاناة طويلة.

وكانت تراودني ليلًا كوابيس أرى فيها أنني لم أستطع الصمود تحت التعذيب. فأفزع من نومي، وأجلس دقائق أفكر مع نفسي لو جاءوا الآن وأخذوني إلى الاستجواب، فهل سأكون مستعدة لتحمل التعذيب وألا أستسلم؟ في البداية كنت أشعر بالعجز أمام الجلادين، ثم أقول لنفسي إذا كانت "فاطمة أميني"، و"مهدي رضائي"، و"بديع زادكان"، وكثيرون غيرهم، قد استطاعوا الصمود أمام هذا التعذيب، فهذا يعني أن ذلك ممكن، فلماذا لا أستطيع أنا أيضًا؟ وعندها كنت أشعر وكأن الحياة قد دبت في من جديد.

ذات مرة، اقتادوني إلى زنزانة كتب على أحد جدرانها: "ألم التعذيب زائل، أما عار الخيانة فباق." وما إن قرأت تلك العبارة حتى اقشعر بدني، وقلت في نفسي: اللهم، لا تجعلني من الملعونين! وكلما كنت أقف للصلاة، وعندما أصل إلى قوله تعالى "غير المغضوب عليهم"[٥]، كانت تتراءى لي صورة أولئك الذين انتهى بهم الأمر إلى الخيانة، فأدعو الله ألا يجعلني منهم.

غير أن خوفي تبدد إلى حد كبير بعد أن تعرضت للجلد لأول مرة. فقد أدركت، عن تجربة مباشرة، أن العامل الحاسم في مواجهة تعذيب الجلادين ليس شدة التعذيب في حد ذاته، وإنما إرادة الإنسان وعزيمته. فالمسألة تتوقف على القرار الذي يتخذه المرء، هل يصمد ويتحمل، حتى وإن كان الثمن حياته، أم يستسلم؟ أما أنا، فقد كنت قد حسمت أمري، وقررت أن أتحمل وألا أستسلم.

[٥] "غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ"، سورة الفاتحة، الآية ٧

الهروب من بطش الأب

بعد يومين قضيتهما في تلك اللجنة، ودون أن يفلحوا في انتزاع أي نتيجة عبر الاستجواب والضرب، أنزلوني من السيارة في نهاية المطاف عند الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا من يوم ٢٠ يونيو، وتركوا سبيلي في شارع "عباس آباد" شمالي المدينة. ولو أنهم أدركوا أن مجاهدي خلق سيطلقون بعد ساعات معدودة تلك المظاهرة التاريخية التي شارك فيها نصف مليون شخص في طهران في اليوم نفسه، لما أطلقوا سراحي بالتأكيد.

حين نلت حريتي، كانت آثار الجروح والكدمات والتورم لا تزال واضحة على وجهي، فكان أفراد الحرس يرمقونني بنظرات غاضبة ومليئة بالوعيد أثناء سيري في الشارع. وفي موضعين، استوقفوني وسألوني في أي مواجهة أصبت؟ وكانوا ينوون اعتقالي واقتيادي معهم، لكنني أخبرتهم أنني تعرضت لحادث سير قبل يومين وأنني عائدة للتو من عند الطبيب، وبذلك نجوت من اعتقال جديد وتابعت طريقي نحو حينا ومنزلنا.

ولما كانت منطقتنا تعد معقلًا رئيسًا لأفراد الحرس والباسيج، فقد كانوا يترصدونني دائمًا؛ استوقفوني وبدأوا يستجوبونني عن مكان وجودي وسبب إصابة وجهي ورأسي بالدم والجروح، فكررت عليهم القصة المفبركة ذاتها. لقد انتابتني السخرية من مفارقات الدنيا؛ إذ يعتدي عليك عملاء النظام بوحشية تامة ودون أي دليل أو وثيقة، وينهالون عليك بالضرب ويهشمون وجهك ورأسك، فلا يصل صراخك إلى أي مكان، ولا تملك أي جهة تشكو إليها أو تطلب منها الإنصاف، بل تصبح تلك الجروح نفسها صك اتهام

وذريعة لاعتقالك وتعذيبك مجددًا، وتغدو أنت المطالب بإثبات أن هذه الدماء والجروح لم تكن ناتجة عن التعذيب والضرب!

على أي حال، وصلت إلى منزلنا، واستقبلني أبي بوجه عبوس وعلامات الغضب الشديد بادية عليه بسبب غيابي الذي دام أيامًا. لكنه حين رآني بتلك الهيئة وهذا الوجه لم ينطق بكلمة. غير أنني قرأت في صمته المريب وبريق عينيه نية شؤم يضمرها. وما إن وضع المصحف جانبًا وهم بالنهوض، حتى أسرعت صاعدة إلى سطح المنزل، وتنقلت فوق الأسطح حتى وصلت إلى آخر منزل في أزقتنا، ودخلت هناك حيث شرحت الأمر باختصار لصاحبة البيت، وهي امرأة متوسطة العمر.

وقد استشاطت تلك السيدة غضبًا من سلوك أبي وقسوته تجاهي، فاحتضنتني وأدخلتني إلى غرفتهم وضيفتني بكوب من الشاي الساخن. ونظرًا لتورم وجهي وازرقاقه، رفضت أن أغادر المكان بمفردي، وقالت لي: إنني أعلم أن أفراد الحرس هؤلاء، الذين تخلوا عن مخافة الله وسفكوا الدماء في مظاهرات اليوم، إن رأوك على هذه الحال فاعتقلوك حتمًا، ولا يعلم إلا الله ماذا سيحل بك بعد ذلك. لذا، أبقتني عندها فترة من الوقت، ثم رافقتني لتساعدني في الخروج من منطقتنا. وأوصلتني إلى الوجهة التي أردتها ثم عادت، ومنذ ذلك التاريخ غادرت منزلنا نهائيًا، وكي لا أقع في قبضة أفراد الحرس، كنت أقضي كل ليلة في بيت صديق أو قريب، لكن تلك المنازل أصبحت غير صالحة للاستخدام واحدًا تلو الآخر لأسباب مختلفة.

ونتيجة لذلك، وفي يوم ١٤ يوليو ١٩٨١ حيث لم يعد لدي أي مكان آوي إليه، وبعد أن تعرض منزل الصديقة التي كنت أذهب إليها حتى ذلك اليوم

لهجوم من أفراد الحرس، اضطررت لتزجية الوقت بالسير بلا هدف في الشوارع. وفي ذلك اليوم، لاحقني أفراد الحرس عدة مرات، وكان الشخص الذي يصر بعناد على اعتقالي ويوجه الحرس هو أخي الذي يعمل في ادعاء عام النظام. وتمكنت من الإفلات من قبشته عدة مرات، لكن ونظرًا لعدم امتلاكي أي مأوى، اضطررت بعد ساعات من التسكع في الشوارع، وعندما مضت نصف ساعة على منتصف الليل، إلى اللجوء لمنزل خالتي.

ولم تمض ساعة واحدة حتى دخل أخي ذلك المنزل؛ إذ كان واضحًا أنه يقتفي أثري، وما إن تأكد من وجودي هناك حتى خرج مسرعًا. ولم تمض نصف ساعة على خروجه، وبينما كنت مترددة في اتخاذ القرار، حاصر أفراد الحرس المنزل. واقتحموه بوحشية تامة وهم يطرقون الباب بأعقاب البنادق، حتى إن خالتي الطاعنة في السن أصيبت بنوبة قلبية من هول ذلك الهجوم الوحشي في ذلك الوقت المتأخر من الليل وغابت عن الوعي. فتحنا الباب على أي حال، فاندفع أفراد الحرس إلى داخل المنزل، وقيدوا يدي وعصبوا عيني واقتادوني معهم ونقلوني إلى سجن وزارة العدل.

وكان أفراد الحرس قد اقتحموا منزلنا في اليوم السابق أيضًا، واعتبروا أختي "مهين"، وهي امرأة تبلغ من العمر ٤٥ عامًا ولديها طفلان، رهينة لديهم؛ حيث اعتقلوها واقتادوها مكبلة اليدين إلى السجن، بذريعة توجيه بعض الأسئلة ومعرفة أثري أنا و"نجمة". ورغم أنهم اعتقلوني أنا و"نجمة" لاحقًا، إلا أنهم لم يطلقوا سراح مهين، وظلت محتجزة لمدة سنتين في سجن وزارة العدل وسجن "إيفين"، في أسوأ ظروف الاعتقال ودون تحديد مصيرها، تاركين أطفالها بلا معيل.

الفصل الثالث:

الأسر

في غرف الماكينات

لم أكن أعلم طوال عشرين يومًا في أي سجن أنا محتجزة؛ إذ لم ينقلوني إلى زنزانات السجن، بل اقتادوني إلى غرف الماكينات وزجوا بي في مكان ضيق للغاية، مظلم وقذر، لا يصلح حتى لإيواء حيوان. كان مخبأ يمتلئ بمختلف أنواع القوارض والحشرات المؤذية كالجرذان والصراصير، وتغيب عنه أدنى مقومات الحياة. كان أرض ذلك المكان مجرى للمياه الآسنة، وجوه شديد الحرارة والاختناق. لقد كانت حرارة الصيف في طهران من جهة، والحرارة والغازات والدخان المنبعث من المحركات من جهة أخرى، أمرًا يبعث على الجنون حقًا. فضلًا عن كل ذلك، كانت الغرفة مظلمة وتضج بضوضاء صاخبة ومستمرة ناتجة عن دوران المحركات والأجهزة المختلفة التي تعمل هناك. سلبتني هذه الأجواء أي فرصة للاستراحة، وكان الأدهى من ذلك كله أن صرخات احتجاجي وطرقاتي المتواصلة على الباب لم تكن تلقى أي صدى.

في تلك الغرفة، لم أكن قادرة على الجلوس، ولا على النوم، ولا حتى على تناول الطعام. وبعد يومين قضيتهما جائعة في ذلك المكان، رموا أمامي طعامًا لا أعرف ماهيته في إناء معدني قذر ومكسور. ولم يكن هدفهم بالطبع إطعامي، بل تعمدوا إهانتي وتحطيمي واقتيادي إلى الندم عبر تقديم الطعام في إناء لا يستخدم عادة إلا لإطعام الكلاب. لم ألمس ذلك الطعام قط، وطوال أسبوع كامل قضيته هناك، لم تذق شفتاي أي قوت، سوى قليل من الماء كنت أشربه بكفي من صنبور كان في المكان. وخلال تلك المدة، ورغم أنني غدوت واهنة البنية وجسدي ضعيفًا للغاية، إلا أنني كنت أتمتم مع

نفسي باستمرار وأردد: "أيها العدو للبشرية، لن أساوم أبدًا!"، ومن هذه الجملة وحده كنت أستمد العزيمة والمعنويات.

وبعد أسبوع، جاء المحققون واقتادوني معصوبة العينين إلى مكان آخر للاستجواب. وكانوا يحاولون هناك إيهامي بأنني في مكان مخيف؛ فكان أحدهم يمسك بيدي ويقول: احذري! ستسقطين الآن! لا تصطدمي بالجدار! سيري ببطء! أو كانوا يتبادلون كلمات مرعبة فيما بينهم بصوت منخفض، كحديثهم عن المصير الشؤم الذي ينتظرني، أو قولهم لي لا تقلقي، سيمنحونك جرعة ماء قبل الإعدام. كما كانوا يبثون باستمرار أصوات أنين ونحيب وصراخ وعويل، ويقولون لي هذا هو مصير المنافقين جميعًا! لكن إن أردت، يمكنك إنقاذ نفسك.

وبعد فترة، أدركت أن أختي "مهين" تخضع هي الأخرى للاستجواب في غرفة قريبة من مكاني، وكانوا يستجوبونها لانتزاع معلومات عني، في الوقت الذي كنت أنا فيه أصلًا بقبضتهم.

وبعد سلسلة من الاستجوابات، نقلت إلى زنزانات سجن وزارة العدل، وهو سجن عام كان يحتجز فيه سجناء متهمون بجرائم مثل تهريب المخدرات. كانت بيئة هذا السجن قذرة وملوثة للغاية، وبعد أسبوع واحد، أصبت بمرض جلدي وفطريات نتيجة غياب الحد الأدنى من النظافة والخدمات الصحية. وطوال عشرين يومًا قضيتها في وزارة العدل، لم يسمحوا لنا بالاستحمام ولو لمرة واحدة، ولم نكن نملك ملابس أخرى غير التي نرتديها، كما حرمنا من أي وسيلة أو رعاية صحية، ولم نكن نتمكن حتى من غسل ثيابنا طوال تلك المدة، ولذا كانت القذارة مستشرية بشكل لا يطاق. وكان

إذا مرض أحدنا، تنتقل عدواها سريعًا إلى الآخرين، حتى انتشرت الفطريات الجلدية بشكل واسع. وبسبب تلك الظروف، تفاقم هذا المرض لدي إلى درجة أن قدمي تقرحتا، ولم أعد قادرة على السير. فكنت أضطر للجلوس طوال ساعات النهار ومباعدة قدمي كي لا تحتكا ببعضهما فتزداد الجروح عمقًا. وكانت السجانات يرين حالتي هذه، لكنهن لم يستجبن لطلبي في الحصول ولو على قطعة صابون واحدة، وكلما طالبت بهذه الاحتياجات الأساسية، كن يقلن: أخبريني أولًا من أنت حتى يبت في أمرك، ونرى إن كان بإمكاننا منحك أي شيء أم لا؛ لأنك إن كنت من المنافقين، فعليك أن تساقي إلى درك الجحيم، وإن لم تكوني كذلك، فعليك الاعتراف بوضوح!... هذا هو الرد الذي كان يتكرر مع كل مسألة أو طلب أتقدم به.

عجوز وحيدة تبكي

كان عنبرنا في سجن وزارة العدل، كما أسلفت، مخصصًا للسجينات العاديات اللواتي جرى نقلهن من هناك قبل وصولنا. ولم يتبق في إحدى الزنزانات المقابلة لزنزانتي سوى امرأة واحدة بدا عليها الانكسار والألم؛ كان مظهرها وملامحها يوحيان بأنها في السبعين أو الثمانين من عمرها، رغم أنها لم تكن تتجاوز الخمسين. كانت تقف من الصباح حتى المساء متشبثة بباب الزنزانة تبكي. حاولت مرارًا عبر القضبان التواصل معها، وسألتها ما التهمة التي سجنت بسببها؟ لم تجبني بشيء واكتفت بالبكاء. سألتها عن اسمها، فلم تجب أيضًا. باختصار، كلما حاولت الحديث معها بكلمتين لتغيير حالتها والتخفيف عنها، كانت ترفض الاستجابة. وذات مرة، من شدة بكائها ونحيبها المرير والموجع، بكيت أنا أيضًا وشعرت بألمها؛ إذ كيف يرمون بهذه العجوز

وحيدة في زاوية زنزانة دون أن يكترث بها أحد. لم تكن تأتي إلى هناك سوى السجانة مرة واحدة في اليوم، تنهال عليها بأقذع الشتائم وتقول لها: أيتها العجوز الشمطاء، ابقي هنا حتى تموتي! لقد عشت أكثر مما تستحقين، وهذا جزاؤك، إلا إذا اعترفت.

وبعد محاولات عدة للحديث معها ومساع حثيثة لدفعها إلى الكلام، رضخت أخيرًا ذات يوم وقررت التحدث، وردًا على سؤالي عن تهمتها، قالت: يا ابنتي، من سيصدق هذا حتى تصدقيه أنت؟ ومع إلحاحي عليها بالقول إن الحديث ربما يريحها قليلًا، قالت: لقد لفقوا لصهري تهمة سرقة؛ لأنه استقال من اللجنة وخرج منها بسبب دعمه لمجاهدي خلق. ويتهمونني أنا بأنني ساعدته على الفرار وأنني أعرف مكان وجوده. أنا هنا في السجن منذ أربعة أشهر، وصهري هارب، وأتعرض يوميًا لمختلف الإهانات والشتائم التي تسمعينها بنفسك بالتأكيد. ويقولون لي أخبري عن مكان ذلك المأفون حتى تنقذي نفسك. طوال هذه الأشهر الأربعة، لم يسمحوا لي بالاستحمام سوى ثلاث مرات، حتى امتلأ جسدي بالقمل.

النقل إلى سجن إيفين

في أحد أيام أوائل شهر أيلول، اقتادونا أخيرًا أنا وأختي "مهين" التي كانت في وضع جسدي وخيم، وزجوا بنا داخل إحدى السيارات. غطوا رؤوسنا وأجسادنا بالبطانيات بطريقة تحجب عنا أي رؤية للخارج، ونقلونا بهذه الطريقة إلى إيفين، حيث اقتادونا مباشرة إلى شعبة الاستجواب. بقينا ننتظر في تلك الشعبة حتى منتصف الليل، وبعد ساعات من الانتظار، أجروا معنا استجوابًا أوليًا سجلوا فيه أسماءنا وبياناتنا، ثم نقلونا إلى العنبر ٢٤٠ في

سجن إيفين. كان هذا العنبر يتكون من ثلاث غرف؛ خصصت إحداها لأنصار نظام الشاه الذين كانوا يتمتعون بكل التسهيلات والمزايا التي يمكن أن يحصل عليها سجين، إذ كانوا على علاقة طيبة بحراس العنبر من أفراد الحرس، وكان هؤلاء يوفرون لهم كل ما يطلبونه.

أما الغرفتان الأخريان، فكانتا مخصصتين لبقية السجينات، وكانت طالبات المدارس والجامعات يشكلن ٧٠ بالمئة منهم، بينما تتكون الـ٣٠ بالمئة المتبقية من فئات أخرى كالمعلمات والطبيبات والممرضات والموظفات وغيرهن. وفي كل غرفة، تبلغ أبعادها ٣ في ٥ أمتار، كانوا يكدسون ما بين ٥٠ إلى ٧٠ شخصًا، فكان الجميع في حالة تكدس شديد، ومع ذلك لم يكن ينقلون أحدًا إلى مكان آخر.

كان معنا في هذا العنبر ثلاث تلميذات صغيرات ما زلت أتذكر أسماءهن. الأولى "فرزانة" ١١ عامًا و"فروغ" ١٢ عامًا و"زهراء" ١٥عامًا. كانت تهمتهن تأييد مجاهدي خلق، لكن في واقع الأمر، كان هؤلاء الأطفال قد احتجزوا كرهائن لإجبار إخوانهم أو أخواتهم أو آبائهم وأمهاتهم على تسليم أنفسهم. كانت فرزانة وفروغ صغيرتين جدًا لدرجة أنهما كانتا تنامان أثناء الاستجواب، وفي الأوقات التي كان الحراس يغلقون فيها باب الغرفة عقابًا لنا ويمنعوننا من الذهاب إلى المرحاض، لم تكن الطفلتان تحتملان ذلك، فتبولان على أنفسهما.

على سبيل المثال، انتشر خبر داخل السجن يوم ٢٧ سبتمبر يفيد بأن أنصار مجاهدي خلق والمتظاهرين هاجموا سجن إيفين. وردًا على هذا الخبر، أغلقت السجانات أبواب الزنزانات ولم يسمحن لأحد بالخروج طوال ثلاثة

أيام، حتى من أجل الذهاب إلى المرحاض أو الوضوء. في غرفة تبلغ مساحتها ٣ في ٥ أمتار وبداخلها ٥٥ شخصًا محشورًا كالسردين في العلب، ماذا كان بإمكاننا أن نفعل من أجل هؤلاء الفتيات الصغيرات الثلاث اللواتي لم يستطعن السيطرة على أنفسهن؟ اضطررنا إلى رفع الموكيت في زاوية الغرفة، ووضعنا هناك صفيحة معدنية فارغة كانت تستخدم لإناء الجبن كي يستعملنها كبديل. وبعدهن بطبيعة الحال، اضطر بعض الأشخاص الآخرين الذين كانوا بحاجة ماسة للمرحاض إلى استخدام ذلك الإناء أيضًا. وبعد ثلاثة أيام، غدت رائحة العفن في الزنزانة لا تطاق، إلى أن فتحوا أبواب الغرف أخيرًا وسمحوا لنا بالذهاب إلى المرحاض، بعد مطالبات متكررة دفعنا ثمنها ضربًا واستجوابات متعددة.

كانت هناك سجانة تدعى "عليزاده"، كانت مسؤولة عن العنبر، وتحمل حقدًا وكراهية غريبة تجاه مجاهدي خلق. كانت تصب على هؤلاء الفتيات الصغيرات أقذع الشتائم وأكثر الإهانات خسة، وتنهال عليهن بالضرب وهي تقول هذا جزاؤكن! وقال الإمام إن أرواح المنافقين وأموالهم وأعراضهم حلال، وأنا لا يهمني ما سيحل بكن. يجب قتل جميعكن من دون تأخير. أنتن تعشن حياة زائدة لا تستحقنها.

كان هذا هو الاعتقاد السائد لدى جميع أتباع خميني. وكما حدث مع زهراء، الفتاة ١٥ عامًا، التي بعد ستة أشهر من الضغوط والتعذيب، لمجرد أنها قالت أنا مجاهدة، ورفضت تكرار عبارة "أنا منافقة" التي كان يطلبها منها الملا "جيلاني" الجلاد، وأرسلت عند الفجر في ١٢ سبتمبر ١٩٨١ إلى منصة الإعدام في سجن إيفين، وأعلن خبر إعدامها صباح اليوم نفسه عبر الإذاعة.

لا أعلم شيئًا عن مصير فرزانة وفروغ، فقد نقلتا بعد فترة من ذلك المكان إلى مكان آخر. لكنني لا أستبعد أن تكونا قد أعدمتا، لأن هذا المجرم نفسه، جيلاني، قال علنًا في أحد البرامج الإذاعية والتلفزيونية وأمام ملايين الناس، ردًا على الاعتراضات التي أثيرت ضد إعدام الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ و١٣ عامًا: إذا بلغت الفتاة تسع سنوات قمرية والفتى خمس عشرة سنة قمرية، فإنهما يعدان بالغين، ويمكن إعدامهما.

عندما نقلت إلى إيفين، ونظرًا لإصابتي الشديدة بمرض الفطريات، كانت زميلاتي في الزنزانة يحاولن مساعدتي لكي أتمكن من الاستحمام مرة واحدة يوميًا، ولو بالماء البارد، حتى يزول هذا المرض سريعًا. فقد كان الماء الساخن لا يتوفر لنا إلا مرة واحدة في الأسبوع ولمدة عشر دقائق فقط. وكنا نحاول عادة أن نرسل إلى الحمام خلال تلك الفترة أولئك الزميلات اللواتي كانت حالة أقدامهن، بسبب التعذيب، في غاية السوء، بحيث كان الماء البارد يؤدي إلى التهابها وزيادة آلامهن.

أما بقية الزميلات فكن يستحممن بالماء البارد في ذلك الطقس الجبلي البارد لسجن إيفين. وعندما طرحنا هذه المسألة على "حسني"، مسؤول سجن إيفين، أجابنا: اذهبن واشكرن الله، فإذا واصلتن الاعتراض فسوف نقطع عنكن حتى هذا أيضًا.

أخي وابن عمي المعذبان

بما أن الحديث عن المجرم "حسني" قد ورد، دعوني أوضح هنا أنه كان ابن عمي، وأن اسمه الحقيقي هو "أبو الفضل حاج حيدري". كان يعد ابن خالة "عسكر أولادي" وحفيده، وكان قد سجن لسنوات في عهد الشاه معه ومع لاجوردي. وبعد أن عفا الشاه عن عسكر أولادي وكروبي وغيرهما من رفاقهم، ظهروا هم أيضًا أمام كاميرات التلفزيون وهتفوا جميعًا "شكرًا أيها الشاهنشاه!"، ثم أطلق سراحهم. وكانوا قد تعهدوا للسافاك مقابل الإفراج عنهم بأن يواصلوا بشكل أكثر فاعلية نضالهم ضد مجاهدي خلق.

كان لـ"أبو الفضل" نفوذ وتأثير على أخيه عزيز حاج حيدري وعلى أخي الأكبر محمد حاج حيدري، فاصطحبهما معه إلى النيابة العامة وسجن إيفين. وكان أبو الفضل، المعروف باسم "حسني"، الوجه العلني للسجن، أما عزيز ومحمد فكانا من المحققين والمعذبين الذين كانوا يمارسون الاستجواب والتعذيب بأسماء مستعارة وهم مقنعو الوجوه.

عندما كانوا يأخذونني أحيانًا إلى الاستجواب، كنت أدرك أن المحقق الحقيقي، والذي يقف فوق رأسي، هو عزيز أو محمد؛ لأن نوعية الأسئلة كانت تكشف أن المحقق يمتلك معلومات دقيقة عن تفاصيل العائلة. وفي إحدى المرات، ولكي أتأكد، وفي موقف رأيت أنه مناسب لذلك، رفعت عصابة عيني ورأيت بعيني عزيز المجرم، وهو أيضًا رآني. وبسبب رفع العصابة ورؤيته، تعرضت للجلد أسبوعًا كاملًا وعذبت بشدة.

منذ سبتمبر عام ١٩٨١، ازدادت الاعتقالات بشكل كبير، وبلغ اكتظاظ عنابر إيفين أقصى حدوده. كانوا قد حشروا في كل عنبر عددًا من السجناء يفوق

سعته الحقيقية مرات عدة، حتى لم يعد هناك أي مكان لإضافة سجين آخر، وكنا نعيش فعليًا في حالة اختناق. لذلك اضطروا إلى تغيير العنبر ونقلونا إلى عنبر جديد كان اسمه أيضًا ٢٤٠.

وكالمعتاد في عنابر إيفين، كان ذلك العنبر مكونًا من طابقين. نقلت أنا إلى العنبر العلوي، بينما نقلت أختي "مهين" إلى العنبر السفلي، وافترقنا عن بعضنا. كان لكل طابق من طوابق عنابر إيفين عادة ست غرف. ولإدراك ظروف العنبر ذي الغرف الثلاث، يكفي أن أشير إلى أن جميع هذه الغرف الاثنتي عشرة كانت قد امتلأت بسجينات عنبر الغرف الثلاث. وبعد انتقالنا، تحول عنبرنا السابق إلى العيادة.

عندما نقلنا إلى العنبر الجديد، أعلن مسؤول العنبر ذات يوم أن وفدًا يضم مسؤول السجن ومرافقيه سيأتي للزيارة. جلسنا جميعًا في غرفنا. كنت جالسة في الغرفة الأولى عندما أطل حسني، مسؤول السجن وأحد أعضاء هذا الوفد، برأسه من باب الغرفة.

عندها زال لدي أي شك أو شبهة بشأن كونه معذبًا، وتأكد لي أنه هو نفسه "أبو الفضل" ابن عمي المجرم. اضطربت لرؤيته، وشعرت بالاختناق لأن اسم عائلتي هو نفسه اسم هذا الجلاد. ومع أنني لم تكن تربطني بهم أبدًا أي صلة أو مودة، وكنت دائمًا، حتى قبل أن أصبح مناصرة لمجاهدي خلق، أبتعد عنهم بسبب ثقافتهم الرجعية وعلاقاتهم الفاسدة.

حدق في عيني بوقاحة وسألني من أنت؟ نظرت إليه بدوري ولم أجب. كرر السؤال للمرة الثانية. قلت: أعظم حاج حيدري!
فحدق بي بنظرته الوقحة محاولًا معرفة رد فعلي، وسأل وهو يضحك ضحكة

ساخرة: ماذا تعملين؟ لم أجبه. كرر السؤال مرتين أخريين، لكنني ظللت أنظر إليه شاردة ولم أرد عليه.

قالت له زميلاتي: لدينا مشكلة في مياه الحمام، فالجو شديد البرودة والماء لا يسخن. فأجاب بالضحكة الساخرة نفسها: احمدن اللّٰه أن هذا الماء موجود أصلًا! وبهذه الطريقة، ترك أسئلة واعتراضات السجينات بشأن أبسط الاحتياجات الصحية والغذائية بلا جواب، مستخدمًا السخرية والاستهزاء والمزاح البذيء والكلام غير ذي الصلة.

شخصية جلاد

ربما يثير فضولكم أن تعرفوا كيف يكون جلاد ومعذب في حياته العادية والأسرية، وأي نوع من البشر يكون. لقد كتبت في الصفحات السابقة، بقدر ما استطعت، عن قسوة محمد وبروده وانعدام عاطفته تجاه والدته وشقيقاته. وبرأيي، كان يكره جميع النساء، حتى أمه وأخواته؛ ذلك الكره الذي كان نابعًا من أيديولوجية خميني التي يبدو أنها حلت في وجود محمد ومسخته.

كان محمد، قبل وصول خميني إلى السلطة، من مريديه ومقلديه، لكنني أستطيع أن أقول بجرأة إنه قبل مجيء خميني إلى الحكم كان، على أي حال، إنسانًا عاديًا مثل كثير من أفراد المجتمع. لقد كان خميني وأيديولوجيته هما اللذين حوّلاه إلى شيطان، شيطان لم يكن يتردد حتى في تعذيب شقيقته وقتلها.

أما في مظهره الخارجي، فكان يتعمد الظهور بهيئة رثة مثل لاجوردي؛ كان ينتعل الجيوة، ويرتدي قميصًا بسيطًا بلا ياقة، ويثبت ياقة قميصه بمشبك. وكان يرتدي بدلة وسروالًا في غاية البساطة، ويحاول، بلحيته وسبحته في يده، وعنقه المائل، أن يظهر بمظهر إنسان شديد التدين، مظلوم، لا يبالي بالحياة. لكن كل ذلك لم يكن سوى رياء وخداع، وخلف هذه المظاهر الزائفة كان يخفي قلب دجال أسود، كما كان يخفي الأموال والممتلكات الكثيرة التي علمت لاحقًا أنه جمعها.

تلك الفتاة الغضة

حين كنت أكتب عن اعتقالي على يد محمد، تذكرت شهيدة عزيزة جدًا كانت هي الأخرى ضحية للقسوة وانعدام العاطفة اللذين أفرزتهما أيديولوجية خميني؛ إذ إن أباها نفسه سلمها إلى جلادي خميني.

كان ذلك في سبتمبر ١٩٨١، عندما كنت في العنبر ٢٤٠ القديم في سجن إيفين. كنت قد نقلت حديثًا إلى هذا العنبر، ولم أكن قد تعرفت بعد جيدًا إلى السجينات فيه. وفجأة فتح باب العنبر، ودخلت فتاة في ١٦ أو ١٧ من عمرها، طويلة القامة، جميلة المحيا، آسرة الطلعة، وفي الوقت نفسه تتسم بالصلابة والعزم. وعلى الرغم من حداثة سنها، فإن ملامحها وسلوكها وقارها كانت تجعل كل من يراها ينجذب إلى شخصيتها دون شعور. تأملتها دقائق، ثم نهضت واتجهت إليها، وعرفتها بنفسي وسألتها عن اسمها، فقالت بهدوء، وعلى شفتيها ابتسامة دافئة: "عطية محرر خوانساري".

قلت لها: "أطاهرة أختك؟" فأجابت: "نعم". فتذكرت أنني كنت قد رأيتها معها مرة أو مرتين من قبل، لكنها كانت آنذاك تبدو أصغر بكثير، وقد تغيرت كثيرًا خلال العامين الأخيرين.

ثم سألتها: "ولماذا اعتقلت؟" فابتسمت وقالت: "لأنني أحب الحرية." فضحكت وقلت: "إذن فهذا هو القاسم المشترك بيني وبينك." فأشارت إلى بقية الفتيات في العنبر وقالت: "بل هو القاسم المشترك بيننا جميعًا." أعجبتني سرعة بديهتها وحدة ذكائها. فسألتها: "وكيف اعتقلت؟" فأطلقت تنهيدة وقالت: "بواسطة أبي؛ فما أن دخلت بيتنا حتى سلمني إلى أفراد الحرس." فقلت: "وهذا أيضًا قاسم مشترك آخر بيني وبينك، لكنه قاسم مرير؛ فأنا أيضًا، مثلك، اعتقلت بسبب أخي."

ومنذ ذلك اليوم نشأت بيني وبين "عطية" صداقة، ليس فقط بسبب ما يجمعنا من تجارب مشتركة، بل أيضًا لما كانت تتمتع به من خصال استثنائية وشخصية قوية. لقد كانت بحق فتاة فريدة؛ فقد جعلتها طيبتها، وعاطفتها، وروحها التضحية، وإيثارها للآخرين، رغم صغر سنها، سندًا لكثير من السجينات.

كان العنبر الذي نقيم فيه يضم ثلاث غرف فقط. وكانت الغرفة القريبة من المدخل مخصصة لأنصار الشاه، وكان الحراس يمنعون أي تواصل بينهم وبيننا، أما بقية السجينات السياسيات فكنا متكدسات، وعددنا يقارب ١٥٠ سجينة، في الغرفتين الأخريين. ولهذا السبب كانت أبسط شؤون الحياة اليومية، من غسل الوجه واليدين، إلى استخدام المرحاض وحتى النوم، تتحول إلى معضلة حقيقية. وفي مثل هذه الظروف، فإن التوفيق بين هذه

التناقضات، والتنازل عن المصالح والرغبات الشخصية من أجل الآخرين، يحتاج إلى قدر كبير من السعة والصبر. في مثل هذه الظروف يظهر جوهر الأشخاص. ولهذا أقول إن شخصية هذه الفتاة في ١٧ من عمرها، بما امتازت به من الوقار والصبر والثبات، وفي الوقت نفسه من الصلابة والغضب على عناصر الحرس والخائنات والجاسوسات، وعزمها الراسخ على مواصلة النضال، كانت تثير الإعجاب.

كانت عطية ترعى زميلاتها في العنبر كما ترعى الأم أبناءها، وتلبي حاجاتهن المادية والنفسية. وكانت تساعد من أعجزهم الكبر أو المرض عن تدبير شؤونهم اليومية أو التكيف مع ظروف السجن، وكانت كثيرًا ما تؤثر غيرها على نفسها، فتتنازل عن احتياجاتها الخاصة. أما من كانت تشعر بالوحدة، فكانت تضمها إلى صدرها بحنان الأم، وتغمرها بالمحبة؛ ولذلك كانت تبدو أكبر من سنها بكثير.

وعندما نقل سجناء سجن العدلية ("دادكستري") إلى سجن إيفين، وكنت أنا واحدة منهم، انتقل معهم القمل أيضًا بسبب الأوضاع الصحية المزرية في ذلك السجن، فأصيبت كثيرات من الفتيات بالقمل والفطريات والامراض الجلدية. وكانت عطية تساعدهن بصبر لا ينفد، وتقول إنني أشعر بسعادة كبيرة لأنني أستطيع أن أفعل شيئًا من أجل صديقاتي. وكانت أحيانًا تجلس منذ الصباح حتى الظهيرة، فتلتقط القمل من بين خصلات شعر الفتيات شعرة شعرة، وهو القمل الذي كان ثمرة أوضاع سجون النظام، ثم تقبل رؤوسهن وتقول هذه أحلى لحظات حياتي. لقد كانت تحب الفتيات من أعماق قلبها، وتفيض عليهن حبًا وحنانًا.

وكانت تذهب إلى جلسات الاستجواب ثم تعود في غاية الهدوء، كأنها مجاهدة مخضرمة خبرت الشدائد وتقلبات الحياة، فتعود إلى العنبر أكثر إشراقًا وحيوية، من غير أن تشكو مما لقيته. وكان يحيط بها سكون عجيب؛ فما أن أنظر إلى وجهها حتى يمتلئ قلبي قوة وثباتًا. وكنت أشعر، وأنا أرى وقارها وصلابتها، بالعزة والفخر. وكنت أتمنى أن تكون عطية صورة كاملة لأختها الشهيدة "طاهرة محرر خوانساري"، التي اشتبه بها أفراد الحرس في أحد شوارع طهران خلال الأسابيع الأولى التي أعقبت يوم ٢٠ يونيو ١٩٨١، فأطلقوا النار عليها فأصابوها بجراح، ثم نقلت إلى سجن إيفين، حيث استشهدت تحت التعذيب على أيدي الجلادين. وكانت عطية مثالًا للنظام والانضباط، ومفعمة بالمحبة للآخرين، ومنبعًا للحنان والرحمة، إلى جانب صلابتها وثباتها.

هناك حقائق يعجز الإنسان أحيانًا عن تصديقها أو تقبلها، وكان إعدام عطية واحدة منها. لقد كنت أنا وجميع الفتيات اللواتي كن معنا في ذلك العنبر نتشبث بشتى الذرائع والأسباب حتى لا نصدق هذه الحقيقة. أيمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟

الشهيدة المجاهدة "عطية محرر خوانساري" ولدت عام ١٩٦٣ في أصفهان. كانت تبلغ من العمر ١٨ عامًا عند استشهادها.

كتبت سجينة سياسية أخرى عن ليلة إعدامها:

"عندما نادوا اسمها، كنت أعلم أنها لن تعود. وقبل أن ترحل قالت لي: سامحيني. قلت لها: ما هذا الكلام؟ ستعودين! فقالت: لا أظن ذلك.

وفي اللحظات الأخيرة، قالت للجلاد الملا جيلاني: أنا لم تتم محاكمتي بعد، ولا أصدق أنكم ستعدموني. فأجابها جيلاني: بعد ساعتين ستصدقين ذلك."

إنها ما تزال صغيرة جدًا، ولم تفعل شيئًا! لا يوجد في ملفها أي شيء، ولم يمض على اعتقالها سوى بضعة أيام... ولكن عند الساعة الثانية عشرة من منتصف ليل ١٥ سبتمبر ١٩٨١، نادوا اسم عطية للاستجواب. كاد قلبي يتوقف. أترى أنهم سيأخذونها إلى الإعدام؟ في لحظة خيم الصمت على العنبر، لكن بدا وكأن الجميع يريد أن يقنع نفسه بأنها ذاهبة فقط إلى الاستجواب.

ومنذ اللحظة التي غادرت فيها عطية العنبر، أخذ قلبي يخفق بعنف كطائر مذعور في صدري. كنت أحدد في باب العنبر، وكلما فتح الباب قفزت من مكاني. كنت أعد الثواني وأدعو اللّٰه أن يفتح الباب الآن وتظهر عطية في إطاره،س لكن لم يحدث شيء.

وأخيرًا، عند الساعة الرابعة فجرًا، دوى صوت مرعب لرشقات متواصلة من الرصاص، وكأنها أطلقت فوق قلبي مباشرة، فملأت أرجاء سجن إيفين كلها. وغرق العنبر بأسره في الحداد. لم نكن نعلم كم شخصًا آخر قد سيق هذه المرة إلى فرق الإعدام. وخيم الصمت على المكان كله. لم يعد قلبي يستقر في صدري، وشعرت كأنه بلغ حلقي. كان الجميع ينتظر سماع طلقات الإجهاز الأخيرة.

وحين بدأت، أخذنا نعدها في سرائرنا ودموعنا تخنق حناجرنا: ١... ٢... ٣... واستمرت الطلقات الفردية، حتى بلغت في تلك الليلة ستين طلقة. ثم عاد الصمت يخيم من جديد.

هل كانت إحدى تلك الرصاصات قد اخترقت رأس عطية الجميلة؟ كنت أناجي نفسي: كيف سقطت تلك الفتاة الغضة اليافعة مضرجة بدمها؟ يا

إلهي، ما ذنبها؟ أكان جرمها الوحيد أنها أحبت الحرية؟ نعم، وكان ذلك وحده كافيًا لأولئك السفاحين.

تذكرت كلمات عطية. أجل، كان القاسم المشترك بين جميع أولئك الستين شخصًا، وبين كل الذين كانوا يعدمون في ليال أخرى، جماعات من مئة ومئتين، أنهم كانوا عشاقا للحرية، إلى درجة أنهم كانوا مستعدين لدفع ثمنها بأرواحهم.

ولا أدري من أي جزء من العنبر انطلق فجأة نشيد "المجاهد"، فكسر ذلك الذهول والصمت الثقيل، ثم ما لبث الجميع أن انضموا إليه:

"مجاهد... مجاهد... مجاهد بأمر من ربك

مجاهد... مجاهد... مجاهد، أوف بعهدك

أنت نقطة آمال الشعب،

وأنت شعلة درب مستقبل الشعب..."

وبعد انتهاء النشيد تعانقنا وتبادلنا القبل، وابتلع كل منا دموعه في أعماقه. لكنني بقيت مستيقظة حتى الصباح. كنت ممددة في مكاني، إلا أن النوم لم يطرق عيني. كان في قلبي بصيص أمل بعودة عطية.

وفجأة أحسست بيد على كتفي. كانت "شوري"[٦] التي كانت تنام إلى جواري. سألتني: أعظم، أما زلت مستيقظة؟ قلت: ما زلت أنتظر عطية، لم تعد بعد.

[٦] الشهيدة المجاهدة الدكتورة "معصومة كريميان"، التي كانت كثير من السجينات يعرفنها باسم "شورانكيز"، أو اختصارًا "شوري". وكانت هذه المرأة الجليلة والطبيبة الثورية، واحدة من رموز الصمود

وبقينا أنا وشوري مستيقظتين حتى الساعة السادسة، نرقب الباب، لكن لم يكن هناك أي خبر عن عطية. وفجأة سمعنا صوت فتح الباب، فظننت أنها عادت. قفزت من مكاني مسرعة نحو الباب، لكنها لم تكن عطية، بل كانت ابنة أختها، فقد كانوا قد اقتادوهما معا.

عندها أيقنت أن عطية كانت أيضا واحدة من أولئك الستين. ومع ذلك سألت: "أين عطية؟" سكتت برهة، ثم قالت وهي تحدق في نقطة بعيدة: "أنشدت عطية نشيد المجاهد... ثم رحلت."

يا لها من مصادفة! ففي اللحظة نفسها كان أخواتها في العنبر ينشدن أيضا نشيد "المجاهد".

نهاية محاولة هروب

بعد نحو شهر من تلك الزيارة، أدخلوا إلى العنبر نحو عشرين جاسوسة وخائنة، ووزعوا ثلاثًا منهن في كل غرفة، للتجسس ونقل أخبار السجينات المقاومات، أي "المتمسكات بمواقفهن" حسب تعبيرهم إليهم، ورفع التقارير عن تحركاتهن، وذلك بهدف بث الخوف في نفوسنا والحيلولة دون استمرار نشاطنا.

والثبات في سجون خميني، كما تشهد بذلك عشرات الإفادات التي أدلى بها شهود عيان. ولدت في مدينة كربلاء بالعراق، ويبدو أنها أكملت دراستها في تخصص جراحة العظام في ألمانيا. وكانت تعمل في جمعية الهلال الأحمر الإيراني، واعتقلت عام ١٩٨١، وظلت في السجن حتى مجزرة سجناء مجاهدي خلق عام ١٩٨٨. وفي نهاية المطاف، استشهدت وهي في ٣٠ من عمرها، ضمن نحو ثلاثين ألفًا من سجناء مجاهدي خلق الذين أعدموا في تلك المجزرة.

كانت إحداهن تدعى "هما". وكانت تعرفني، كما تعرف عددًا من زميلاتي في الغرفة، منذ ما قبل السجن. ويبدو أنها كلفت بمراقبتنا. كانت تلاحقنا كظلنا في كل مكان، وتراقب كل حركة نقوم بها، من تناول الطعام إلى النوم، ومن الحديث إلى سائر شؤوننا. وحتى عندما كنا نقف في طوابير المراحيض والمغاسل -إذ كان الاكتظاظ في العنبر شديدًا، ولم يكن عدد المراحيض والمغاسل يكفي ذلك العدد الكبير من السجينات، فكانت تتشكل طوابير طويلة تضم عشرين إلى ثلاثين واحدة أمام المراحيض- كانت تلك الجاسوسات يقفن بيننا ليراقبننا ويراقبن أحاديثنا.

وفي إحدى الأمسيات، كنت أنظر من بين قضبان النافذة الحديدية إلى شريط ضيق من السماء خارج العنبر. وكان ذلك متنفسنا الوحيد، والموضع الوحيد الذي نستطيع منه أن نتبادل بضع كلمات مع سجينات العنابر الأخرى، فنبلغ خبرًا أو نتلقى خبرًا. وكان في مجال رؤية تلك النافذة تل يعرف باسم "تل الإعدام". وكانت كشافات قوية تضيئه ليلًا، وغالبًا ما كان يلوح فوقه نجم شديد اللمعان في ظلمة السماء.

وبينما كنت غارقة في تأمل ذلك المشهد، جاءت العميلة "هما" وقالت لي: إلى ماذا تنظرين؟ ابتعدي عن النافذة! قلت لها: وهل أصبح النظر جريمة؟ كررت ذلك للمرة الثانية ثم الثالثة، وأخذت تهددني. فقلت: لها افعلي ما يحلو لك!

وبينما كنت منشغلة بالأخذ والرد مع تلك العميلة، انتبهت فجأة إلى شخص يتسلق التل على أطرافه الأربع. وانصرف كل انتباهي إلى ذلك المنظر. لقد كان سجين قد تمكن من الفرار من أيدي الجلادين، وكان يبذل كل ما لديه

من قوة ليبلغ قمة التل. كنت أشعر بخفقات قلبي. إن لمحوه فانتهى أمره. هل كانت لديه فرصة للنجاة؟ لم أكن أريد أن أفوت ولو لحظة واحدة من مشاهدة ذلك الصراع بين الحياة والموت.

وفجأة دوى في الفضاء صفير رصاصتين متتاليتين، ثم مع انطلاق الرصاصة الثالثة، هوى ذلك السجين الهارب إلى الأرض. وبعد لحظات، وصل العملاء الذين كانوا يطاردونه، فأمسكوا بيديه وقدميه، بعدما أصبح بلا حراك، وسحبوه معهم. ولم أعرف قط ما كان اسمه، ولا كيف استطاع أن يفلت من أيدي الجلادين ويصل إلى ذلك الموضع.

الخونة أسوأ من الجلادين

بعد نقلنا إلى العنبر الجديد، لم يمض وقت طويل حتى تجاوز عدد السجينات فيه، مع وصول دفعات جديدة، ٤٠٠ سجينة، مع أن طاقته الاستيعابية الحقيقية كانت أقل من مئة. وبسبب ضيق المكان، كانت بعض السجينات، وكنت إحداهن، تنام ليلًا في ممر العنبر. لكن كثرة الحركة ذهابًا وإيابًا، إضافة إلى استدعاء عدد من السجينات للاستجواب أثناء الليل، كانت تحول دون نومنا. فكنا نجلس معًا، نتحدث همسًا، أو ننشغل سرًا ببعض الأشغال اليدوية.

وخلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٨٢، كان يعدم، في المتوسط، نحو ٥٠ سجينًا كل ليلة، ما بين الساعة الثالثة والرابعة فجرًا، وكنا نشهد تلك الإعدامات ليلة بعد أخرى. وفجأة كان دوي الرشقات النارية يمزق سكون منتصف الليل، ثم يعود الصمت بعد لحظات، قبل أن تتردد طلقات الإجهاز،

التي كنا نعرف منها عدد الذين أعدموا في تلك الليلة، ثم يخيم الصمت من جديد. غير أن المأساة لم تكن تنتهي عند هذا الحد.

فبعد دقائق، بينما كنا لا نزال تحت وقع صدمة إطلاق النار، كان باب العنبر يفتح، وتدخل خائنات مثل "هما قاسملو" و"فرانك مجيدي". وقد ازددن وقاحة في تلك الأيام، فكن يطلقن كلمات الاستفزاز، وينظرن إلى السجينات بصفاقة، ويرددن ما لقنهن الجلادون بقصد تعذيبنا نفسيًا، قائلات: "لماذا تحدقن هكذا؟ نعم، كنا هناك لنطلق رصاصات الإجهاز. فماذا ستفعلن الآن؟"!

كانت تلك اللحظات، وتحمل تلك الكلمات، أشد قسوة من سماع طلقات الإجهاز نفسها. كان الأمر كما لو أن أحدًا يغرس مخالبه في أعصابي ويمزقها. فمن جهة، كان الغضب والحقد يتأججان في داخلي حتى أكاد أنهض وأخنق تلك الوحوش بيدي، ومن جهة أخرى، لم يكن أمامي سوى الصمت.

لم يكن في وسعنا إلا أن نعكس كل ما في صدورنا من غيظ وكراهية في نظراتنا، ونوجهها نحو أولئك التابعين للجلادين، الذين كانوا أشد إثارة للاشمئزاز من الجلادين أنفسهم.

وبهذه الطريقة، كانوا يحرموننا، بعد أن يثيروا فينا توترًا عصبيًا شديدًا، حتى من ساعات النوم القليلة التي كانت تتاح لنا بعد الرابعة فجرًا، حين تنتهي الإعدامات. لقد كان أولئك الخائنات يلحقن بنا من صنوف الأذى ما لم يكن الجلادون أنفسهم قادرين على إلحاقه بنا.

أساليب المقاومة

كان الجلاد يسعى إلى تحطيم السجين، لا جسديًا فحسب، بل قبل ذلك في مقاومته ونضاله، وفي هويته الإنسانية نفسها. لذلك كان يبذل كل ما في وسعه ليفرق بيننا، ثم يحطمنا فردًا فردًا؛ إذ كان يدرك جيدًا أن صمودنا واستمرار مقاومتنا يستندان إلى بقائنا معًا ووحدتنا.

وفي المقابل، كنا نفكر باستمرار في الوسائل والابتكارات التي تمكننا من البقاء متكاتفات، وتقوية بعضنا بعضًا، وتنمية قدراتنا، وبث الأمل والثقة بالنفس في نفوسنا. واقترحت إحدى السجينات أن تقدم كل من تنتمي إلى مدينة معينة، أو تملك معرفة واسعة بأحوالها، محاضرة عنها، تتناول تاريخها وعاداتها وتقاليدها، ولغتها ولهجتها، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وغير ذلك مما تعرفه عنها. وقد لقي الاقتراح ترحيبًا كبيرًا، وأطلقنا على هذا البرنامج اسم "جولة في مدن إيران".

وكانت بعض السجينات تقدم عروضًا ثرية وممتعة بحق. ومن بينهن الشهيدة "مهدخت محمدي زاده"، التي حدثتنا عن مسقط رأسها، كرمان. وقد كانت محاضرتها دقيقة وغنية إلى درجة أنني قلت لها: يا مهدخت، أشعر الآن وكأنني زرت كرمان بالفعل، ولو ذهبت إليها يومًا لاستطعت أن أسير في شوارعها مغمضة العينين. ويوم اقتادوها إلى الإعدام، قالت لي: أعظم، إن خرجت يومًا إلى الحرية، فلا تنسي كرمان، ولا تفوتي رؤية سمائها المرصعة بالنجوم في لياليها. ثم ودعتني بابتسامتها الدافئة وقبلتني ومضت.

ومن مواضيع محاضراتنا أيضًا القضايا العلمية. فكل من كانت لديها معرفة بحكم تخصصها الجامعي أو مطالعاتها الشخصية، كانت تعرضها على الجميع في صورة محاضرة. وذات مرة، بينما كنت أتحدث مع "زهراء نظري"، أخبرتها بشغفي بعلم الأحياء، وبقصة نشأة الأرض وتطورها، وتطور الكائنات الحية. فقالت إن تخصصها الجامعي كان علم الأحياء، وإنها كانت تعشقه. فقلت لها: ألست كذلك الآن؟ فابتسمت وقالت: بلى، لكن حبًا أعظم جاء فطغى عليه، وهو حب الحرية الذي وجدته في مبادئ مجاهدي خلق.

ثم قالت: أتودين أن أعقد لك دورة في علم الأحياء والتطور؟. ففرحت كثيرًا وقلت: بالطبع! لكنك ما زلت تخضعين للاستجواب! فقالت: لا تشغلي بالك بذلك. واتفقنا على برنامج، وكانت تخصص لي ساعتين كل يوم، تشرح فيهما كما لو كانت أستاذة خبيرة متمكنة. ولم يكن بين يديها كتاب ولا مذكرة واحدة، بل كانت تعتمد اعتمادًا كاملًا على ذاكرتها، فتروي لي بأسلوب شيق قصة نشأة الأرض وتطورها، وتطور الكائنات الحية المختلفة. وقد كانت تلك الدروس ممتعة إلى حد أن كثيرًا مما تعلمته فيها ما زال حاضرًا في ذهني، رغم مرور أكثر من ٢٠ عامًا.

كانت "زهراء" مثالًا للحب والشعور العميق بالمسؤولية تجاه جميع السجينات. فعلى الرغم من أنها قضت مدة طويلة تحت أقسى أنواع التعذيب، كانت تبدو وكأن شيئًا لم يمسسها. ولم تكن تتحدث قط عما تعرضت له من تعذيب أو عن صمودها، وإنما كنا نسمع من السجينات الأخريات اللواتي شهدن مواقفها في غرف الاستجواب، كيف أرهقت المحققين، وكيف حالت دون انتزاع كلمة واحدة من المعلومات منها.

وهكذا، وفي ذلك الجحيم الذي كانت ظروفه أسوأ مما قرأناه أو سمعناه عن معسكرات الموت النازية، كنا نجد، بفضل اعتمادنا على أولئك المناضلات، وبفضل روابطنا الإنسانية العميقة ووحدة أهدافنا، لحظات وساعات من الصفاء والسعادة.

وقد أدركنا جيدًا أنه ينبغي لنا، بأي وسيلة كانت، أن نحافظ على معنوياتنا، وألا ندع العدو يبلغ غايته المتمثلة في تحطيم إرادتنا وبث اليأس في نفوسنا. ومن وسائل الحفاظ على الروح المعنوية الأشغال اليدوية وصنع مختلف الأشياء بالإمكانات الضئيلة المتاحة في السجن. فكنا، على سبيل المثال، نسحب الخيوط الملونة من الملابس البالية لنصنع بها تطريزات جميلة. كما كنا نستفيد من كل ما يقع في أيدينا؛ من نوى التمر إلى عظام الطعام، التي كنا ننقعها في الماء مدة طويلة حتى تبيض، ثم ننحتها ونصقلها، وكذلك الأحجار التي كنا نلتقطها خفية من ساحة السجن في طريقنا إلى الاستجواب، فننحت منها تماثيل صغيرة أو أشكالًا جميلة. وكانت هذه كلها صورًا مختلفة من صور المقاومة والصمود في وجه الجلاد.

وكان لاجوردي الجلاد وجلادوه وجواسيسه يستشيطون غضبًا من هذه الأعمال، ويحاولون، بالضرب والتعذيب والتهديد والترهيب، منعنا منها. وكثير من السجينات لم يكن في ملفاتهن ما يذكر، أو اعتقلن لأسباب بالغة البساطة، ومع ذلك تحملن أشد صنوف الضغط بسبب هذه المظاهر من المقاومة، بل إن كثيرات منهن أصبحن هدفًا لحقد الجلادين، واستشهدن لهذا السبب وحده.

وكان في عنبرنا سجينات ينتمين إلى شرائح اجتماعية شديدة التنوع من فتيات في ١٤ أو ١٥ من العمر، إلى طالبات جامعيات، وخريجات جامعات، وطبيبات، وموظفات، وربات بيوت، وغيرهن من مختلف المواقع الاجتماعية. غير أن هذا التنوع لم يكن سببًا للفرقة أو الخلاف، بل كان دافعًا لأن يقدم كل واحد ما يحسنه وما يتميز به للآخرين.

وكان القاسم المشترك الذي جمع هذه المجموعة المتنوعة هو الحيوية، وقوة المعنويات، والثبات. وهو الأمر الذي كان يثير غيظ الجلادين والخائنات إلى حد أنهم لم يكونوا يستطيعون كتمان انزعاجهم، فيعبرون عنه صراحة، ويحاولون، بإطلاق أوصاف مثل "عديمات الحياء" و"عديمات الإحساس" وغيرها، أن يحولوا دون فرح السجينات، أو أن يعزلوا الأكبر سنًا نسبيًا عن البقية ويوهموهن بأنهن مختلفات عن الأخريات. لكن محاولاتهم هذه كانت تبوء بالفشل دائمًا.

الحيوية والبهجة

كنا نحول مجرى الحياة العادي، وحتى أقسى ظروف السجن وأكثرها قسوة وضغطًا، إلى مناسبة للفرح والمزاح والحيوية. ومن الأحداث التي تحولت في السجن إلى يوم استثنائي صاخب ومفعم بالبهجة يوم الاستحمام. فقد كان يوم الثلاثاء موعد حصول عنبرنا على الماء الساخن. وكان تنظيم أدوار الاستحمام وإرسال الرفاق بحسب الأولوية مهمة شاقة وحساسة. إذ كان هناك دائمًا ما بين عشرين إلى ثلاثين سجينًا تعرضوا لتعذيب شديد، وكانت جراحهن لا تزال طرية، وكان الماء البارد يزيد آلامهن أو يؤدي إلى التهاب جروحهن، لذلك لم يكن أمامهن مناص من الاستحمام بالماء

الساخن. وكانت المسؤولة عن تنظيم الأدوار ترسلهن في الدفعة الأولى، ثم يأتي دور كبيرات السن والمريضات والضعيفات اللواتي لم يكن قادرات على الاستحمام بالماء البارد. أما معظم السجينات فكن يستحممن بالماء البارد، وذلك في منطقة إيفين الجبلية الباردة، حيث تكون مياه الأنابيب باردة حتى في فصل الصيف، أما في الشتاء فكان برد الماء يتغلغل إلى أعماق العظام.

ومع ذلك، كانت الأخوات قد حولن هذا الأمر إلى نشاط ترفيهي صاخب ومليء بالحماس؛ فكنا ندخل تحت دوش الماء جماعيًا بعد العد: ١... ٢... ٣، ثم نستحم بسرعة. وأعتقد أن أحدا لم تكن لتملك بمفردها الجرأة على القيام بذلك، لكن وجودنا ضمن الجماعة أزال الخوف من الماء البارد، بل جعل الاستحمام به نوعًا من التحدي والمتعة. ونتيجة لذلك ازدادت قدرتنا على التحمل تدريجيًا، وتأقلمنا مع المياه شديدة البرودة، ولم نعد نصبن بالبرد بسهولة كما في الأيام الأولى.

وكانت وجبات الطعام، من فطور وغداء وعشاء، رغم رداءة الطعام وانعدام جودته، تتحول أيضًا إلى مناسبة مبهجة. فقد أطلق الرفاق على وقت الطعام اسم "كرنفال الفرح"، وكانوا يتناولون ذلك الطعام القليل والرديء بروح من المرح والبهجة تجعل تلك الظروف الجحيمية أكثر احتمالًا. وكان الجلاد وأعوانه عندما يشاهدون ذلك يغتاظون أشد الغيظ ويكادون يستشيطون غضبًا، لأنهم كانوا يرون أن كل الضغوط التي يمارسونها علينا لا تحقق أي أثر.

ومن الأنشطة الجميلة الأخرى التي كانت ترفع المعنويات ممارسة الرياضة. صحيح أن الرياضة كانت ممنوعة، لكننا كنا نمارسها سرًا ثلاث مرات يوميًا:

صباحًا وظهرًا وليلًا. وكنا، بحسب الظروف، نؤدي التمارين جماعيًا ضمن مجموعات يتراوح عدد أفرادها بين عشر سجينات وأربعين سجينة. وعندما كانت الظروف تصبح شديدة الصعوبة، كان كل واحدة منا تمارس التمارين منفردة في المرحاض أو الحمام أو في زاوية بعيدة عن أنظار الحراس والجواسيس، فنؤدي حركات التدريب الخاصة بأنصار مجاهدي خلق. وفي ختام التمارين الجماعية كنا نجتمع في دائرة، وإذا سمحت الظروف تشابكت أيدينا ورددنا الشعارات، وإن لم يكن ذلك ممكنًا أنهينا التمارين بهتاف جماعي واحد.

وكان الجلادون يضعون كل يوم خطة جديدة لتحطيمنا، وكنا في المقابل نتصدى لكل خطة بخطة مضادة، ولم يخل الأمر يومًا من حيلة أو تدبير لإفشال مخططات النظام.

ومن الخطط التي كان الجلاد لاجوردي يوليها اهتمامًا خاصًا نقل السجناء إلى قاعة أطلقوا عليها اسم "الحسينية". وكانوا يأخذون السجناء إليها ويصورونهم، ثم يعرضون تلك المشاهد على شاشة التلفزيون ليقنعوا الناس بأن جميع السجناء السياسيين قد تراجعوا عن مواقفهم، وأعلنوا توبتهم، واعتنقوا إسلام خميني على يد لاجوردي.

لكن لاجوردي، رغم كل ما استخدمه من تهديد وضرب وجلد، لم ينجح في جر سوى عدد قليل من السجناء إلى ذلك العرض المسرحي. أما كثير من الأخوات فكن يتهربن من الذهاب إلى ما يسمى بـ"الحسينية" بحجج مختلفة، بينما كانت أخريات لا يذهبن إلا ليحصلن على أخبار الأجنحة الأخرى وينقلن إليها الأخبار.

وكانت أول مرة ذهبت فيها إلى تلك المسرحية الهزلية يوم عاشوراء عام ١٩٨١. وكانوا قد أجلسوا السجينات والسجناء في قسمين يفصل بينهما ستار لا يتجاوز ارتفاعه مترًا واحدًا، بحيث كان بإمكاننا أن نرى بعضنا بعضا. وكان كثير من الرفاق يبحثون بأعينهم عن إخوتهم الذين كانوا يعلمون أنهم معتقلون أيضًا.

وما إن جلسنا وبدأ البرنامج وشرعت الكاميرات بالتصوير حتى بادرت النساء إلى تغطية وجوههن بحجابهن، فلم يتمكنوا من تصوير وجه أي سجينة. أما الرجال فقد أنزلوا قبعاتهم حتى غطت أعينهم، وأحنوا رؤوسهم إلى الأسفل.

أصبح المشهد فوضويًا إلى حد أنه لو عرضوا ذلك الشريط على الناس لفهم الجميع حقيقة ما يجري. عندئذ اضطر لاجوردي إلى التدخل بنفسه. ولأنه لم يكن يستطيع أن يأمر النساء بكشف وجوههن أو إنزال حجابهن، أخذ يوجه إلى الرجال سيلًا من الشتائم البذيئة وهو يصرخ ارفعوا قبعاتكم، وارفعوا رؤوسكم، واجلسوا باستقامة. وكان يقول بلغته السوقية القذرة أنتم الذين كنتم دائمًا ترفعون رؤوسكم، كيف أصبحتم اليوم مطأطئي الرؤوس؟ وكنا نسمع كلماته، ونرى عجز الجلاد وضعفه، فنشعر بارتياح كبير لأننا أجبرناه على الركوع.

وفي ذلك اليوم كان يسمح لكل واحد بأن يأخذ ما يشاء من الشاي. ومع أن أحدًا لم يكن يشربه عادة لأنه كان مشبعًا بالكافور، وكانت رائحته تبعث على الغثيان، فقد اتفقنا على استغلال الفرصة لأخذ أكبر كمية ممكنة من قطع السكر وإعادتها إلى العنبر. وكان السكر في السجن مادة ثمينة للغاية، كنا نذيبه في الماء ونقدمه للأخوات اللواتي يعدن من التعذيب أو يعانين

من وهن شديد، ليستعدن شيئًا من قوتهن. ولذلك أخذ كل واحد منا ما استطاع من قطع السكر وخبأها في جيبه أو في طيات ثيابه. وعندما جمعناها في العنبر وجدنا أنها تملأ دلوًا كاملًا. وكانت تلك القطع بالنسبة إلينا غنائم انتزعناها من العدو في هذه المعركة.

ومن الغنائم الأخرى التعليقات الطريفة التي كانت الأخوات يتداولنها عن انزعاج لاجوردي وأعوانه وما بدا عليهم من غيظ وغضب، فكنا نرددها أيامًا طويلة ونضحك كلما تذكرنا كيف انتهت خطته إلى ذلك الفشل الذريع.

ومن الوقائع الأخرى التي شهدناها خلال الأشهر الأولى من وجودنا في العنبر ٢٤٠ أنهم، مرتين أو ثلاث مرات، جلبوا إلينا بالخطأ -على حد تعبيرهم- معتقلات كن قد تعرضن لتعذيب وحشي. لقد عذبوهن بأساليب تعود إلى عصور الظلام، حتى إننا، رغم أننا اعتدنا رؤية آثار التعذيب، كنا نعجز عن تمالك أعصابنا عند مشاهدتهن.

وذات يوم، قرابة الساعة الثالثة بعد الظهر، كنت أمشي في العنبر حين أدخل حراس السجن فجأة معتقلة على شيء يشبه النقالة. كان جسدها كله أزرق من شدة الكدمات، ومتورمًا إلى درجة جعلت حجمها يبدو ضعف أو ثلاثة أضعاف حجم الإنسان العادي. فقالت الأخوات اللواتي عرفنها: إنها هي "بروين كوهي". وما إن رأيتها بتلك الحال حتى انفجرت بالبكاء. أردت أن أقترب منها وأتحدث إليها، لكنهن أخبرنني أنها فاقدة الوعي ولا تستطيع الكلام. وبعد وقت قصير دوى صوت مكبر الصوت في العنبر وهو يكرر مرات عدة: "بروين كوهي... إلى مكتب العنبر." لكن بروين كانت لا تزال فاقدة الوعي، لا تسمع ولا تقوى على الحركة، إلى أن جاءت عناصر الحرس مسرعات

وأخرجنها من العنبر. ويبدو أنهن كن قد أدخلنها إلى العنبر العام عن طريق الخطأ.[٧]

وفي مرة أخرى فتح باب العنبر ودخلت سجينة جديدة كانت تمشي بصعوبة بالغة، وقد أحدبها التعذيب من شدته. كانت فتاة سمراء طويلة القامة، تبدو على وجهها آثار الانكسار، لكنه ظل محتفظًا بجاذبيته وطيبته، بحيث يألفها المرء منذ النظرة الأولى. تقدمت نحوها، وكانت قدماها في حالة يرثى لها، فقلت لها: هل تريدين أن أساعدك؟ نظرت إلي وابتسمت. بدا وجهها مألوفًا، لكنني لم أتعرف إليها. فقالت: أعظم، أما عرفتني؟ شعرت بالحرج لأنها كانت تعرفني بينما لم أعرفها. فابتسمت مرة أخرى بلطف وقالت: أنا سيما... نسيت؟ من حقك، فقد تغير وجهي، لكنني لم أتغير.

ثم ذكرت لي مكانين كنا قد عملنا فيهما معًا ضمن رابطة المعلمين المؤيدين لمنظمة مجاهدي خلق. وفجأة عرفتها. قلت بدهشة: حقًا... سيما! كم تغيرت ملامحك!...

لقد كانت "سيما حكيم معاني"، وقد جعلها عام واحد فقط تبدو أكبر من عمرها بأكثر من عشر سنوات. وكنا قد عملنا معًا كثيرًا قبل ٢٠ يونيو ١٩٨١. وكانت سيما الابنة الوحيدة لأسرة ميسورة نسبيًا، وحاصلة على تعليم جامعي، ولم يكن ينقصها شيء في حياتها، لكنها اختارت طريق النضال، وظلت ثابتة عليه حتى النهاية.

[٧] أطلق سراح "بروين كوهي" من السجن بعد عدة أعوام، وعادت إلى صفوف مجاهدي خلق، وهي الآن من بين قادة جيش التحرير الوطني.

وكانت قدما سيما في حالة مزرية؛ فقد أصيبت جراحها بالتهاب شديد وانتقلت العدوى إلى دمها، لكن الجلادين، انتقامًا من صمودها ورفضها الاستسلام، امتنعوا عن تقديم أي علاج لها ليزيدوا من عذابها. وفي النهاية ساقوها، وهي على تلك الحال، إلى جوخة الإعدام رميًا بالرصاص.

ومن بين تلك القامات الشامخة أيضًا كانت "شهربانو قرباني"[٨]، التي عذبها الجلادون بحقد وضغينة إلى درجة لم يعد أحد يستطيع التعرف إلى ملامحها. وكان دخولها إلى العنبر قد هز الجميع. ومن حجم ما تحملته شهربانو من تعذيب أدركت كم أن المثل الإنسانية السامية عظيمة وقيمة، وكم تمنح الإنسان قدرة لا حدود لها على احتمال التعذيب، وتجعل خوض مثل هذه المعركة القاسية أمرًا ممكنًا.

وبعد ثلاثة أيام أخذوا شهربانو من العنبر، ولم أرها بعد ذلك أبدًا، حتى سمعت، بعد نحو عام، نبأ استشهادها، لكنني لا أعرف أين ولا كيف نفذوا حكم الإعدام بحقها.

[٨] كانت الشهيدة المجاهدة "شهربانو قرباني" من مواليد سمنان، وكانت طالبة في كلية العلوم الطبيعية. واستشهدت في ٢٦ من عمرها يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٨٤، في سجن إيفين.

الشهيدة المجاهدة "سيما حكيم معاني"، البالغة من العمر ٢٤ عامًا، كانت موظفة في وزارة النفط. استشهدت بتاريخ ١٠ مارس ١٩٨٢.

ضد الخونة

بعد مدة، نقلت مع عدد آخر من الأخوات إلى عنبر آخر. وعندما وصلنا إلى ذلك العنبر، اكتشفت أنني أعرف معظم الأخوات فيه. وكانت أغلبهن ممن اقتيدن إلى هناك بذريعة الاستجواب، أو بتهمة الثبات على الموقف، أو الارتباط التنظيمي، ولم نكن نعرف شيئًا عن مصيرهن. وما إن تجولت في العنبر ورأيت الأخوات حتى غمرتني سعادة لا توصف، حتى إن ألم فراق أخوات العنبر السابق تلاشى من ذاكرتي. فقد كنت أظن أن كثيرات منهن قد أعدمن، وحين رأيتهن فجأة على قيد الحياة أمامي، شعرت كأن الدنيا كلها قد أهديت إلي. وكانت "بروين حائري"، و"مريم كل زاده غفوري"، و"هما رادمنش"، و"أعظم طاقدره"، وغيرهن، من بين هؤلاء الأخوات. وكانت جميعهن تحت حكم الإعدام، ثم أعدمهن النظام جميعًا لاحقًا. ولا أدري لماذا جمعوهن في عنبر واحد؛ ولعلهم أرادوا تحطيمهن نفسيًا وهن ينتظرن تنفيذ حكم الإعدام، لكن هذه الخطة التي وضعها الملالي فشلت أيضًا، فلم تستسلم واحدة منهن، بل استشهدن جميعًا.

كانت "بروين حائري" معروفة بين الجميع بقامتها المنتصبة الصلبة، وبمقاومتها الاستثنائية شكلًا ومضمونًا. وكانت مكانتها وشخصيتها معروفتين لدى العميلات المنشقات والمحققون. وقد أطلقت عليها الأخوات في السجن لقب "العقيد"، بسبب طول قامتها وثباتها، بسبب طول قامتها وثباتها، وكانت العميلات الخائنات والمنشقات يستشيطن غيظًا كلما سمعن هذا اللقب يطلق عليها.

وكانت "حورية بهشتي تبار" حاصلة على درجة الماجستير في الاقتصاد، وكانت تدرس الأخوات الاقتصاد بمحبة وحماس كبيرين، ولم تكن تسمح بأن يضيع وقت السجن هدرًا. وقد أثارت أنشطتها داخل السجن حقد الجلادين وأزلام النظام، فكانوا كلما واجهوها أمطروها بألفاظ لا تليق إلا بهم. ومن خلال هذا السلوك المفعم بالحقد، كنا ندرك مدى قيمة ما كانت تقوم به حورية. وكانت جميع الأخوات يكنن لها محبة كبيرة. وكان عمرها في تلك السنوات نحو ٤٥ عامًا، وكانت تعاني ضعفًا شديدًا في بصرها، إذ بلغت درجة نظارتها ثماني درجات أو عشر درجات. وكان الجلادون والسجانات والعمليلات المنشقات، يحاولون تحطيمها بألفاظ سوقية مستمدة من ثقافة الملالي. ومرتين على الأقل، وبذرائع قذرة وكاذبة، وباتهامات أخلاقية ملفقة على الطريقة المعهودة لدى الملالي، قيدوها إلى مقعد أمام أنظار أخواتها وجلدوها بأسلوب يعود إلى عصور الظلام، وكانت مشاهد تعذيبها من القسوة بحيث تستحق أن تروى في حكاية مستقلة.

وكانت البطلة الأخرى "هما رادمنش"، التي لم يكن الجلادون يطيقون مجرد رؤيتها. وكانت نحيفة البنية إلى حد كبير، ولم يكن وزنها يتجاوز على الأرجح ٤٥ كيلوغرامًا، لكنها كانت في غاية الصلابة والثبات، صبورة، جلدة، ومحبة لكل واحدة من الأخوات. ولم يكن يرى على وجهها يومًا أي أثر للحزن أو الانكسار. وهذه السمة بالذات كانت تثير حقد العميلات عليها، حتى كانوا يقولون إن "هما" تعمل في الخفاء وتنشر أفكارها سرًا. والحقيقة أن مجرد وجود "هما رادمنش" في العنبر أو في الغرفة كان يبث في الجميع روح المقاومة والصمود.

ومنذ الأيام الأولى لوصولنا إلى هذا العنبر، كنا في صراع دائم مع الخائنات الموجودات فيه. وكان احتجاجنا يتمثل في سؤال واضح وهو لماذا جئتم بهؤلاء الخائنات إلى هذا العنبر وجعلتموهن طرفًا في التعامل معنا؟ نحن سجينات، ونريد أن يكون تعاملنا مع الحراس والسجانات الرسميات، لا مع الخائنات. أما النظام، فكان يريد أن يزج بنا في مواجهة مع الخائنات، ليختبئ خلفهن ويقول إن السجينات يتصارعن فيما بينهن. واحتجاجًا على هذه السياسة، بدأنا إضرابًا عن الطعام، عرف لاحقًا في سجن إيفين باسم الإضراب الذي استمر ثلاثة عشر يومًا.

وبدأ الإضراب عندما جاءت الخائنات لتسليم الطعام، فرفضنا استلامه وقلنا نحن لا نعترف بهؤلاء. فكانت القدور تبقى كما هي من دون أن يمسها أحد، ثم يأتين في اليوم التالي فيأخذنها ويجلبن طعام يوم جديد. واستمر هذا الشد والجذب، وكان يترافق مع الضرب والاعتداءات والهجمات التي كانت تشنها الخائنات، بدعم مباشر من الحراس والسجانات. وكانت الخائنات يضعن الطعام عند مدخل العنبر ثم يغادرن، بينما كنا، احتجاجًا، لا نأكل الطعام ولا نشرب الشاي، ولا نستجيب لأي طلب. واستمر هذا الإضراب ثلاثة عشر يومًا، حتى تدهورت الحالة الصحية لبعض الأخوات، مثل "هما"، بصورة خطيرة. ولما عجز الجلادون عن كسر الإضراب، نقلوا سبع عشرة من الأخوات إلى عنبر آخر. وفي البداية نقلوهن إلى عنبر الاستراحة في سجن إيفين، ثم، بعد نحو أسبوعين، نقلوهن إلى عنبر آخر.

الفتاة في الثالثة عشرة من عمرها

كان ذلك في أواخر عام ١٩٨١، ومع اتساع حملة الاعتقالات بلغ الاكتظاظ في العنبر حدًا كانت فيه عدة سجينات يفقدن الوعي كل يوم بسبب شدة الزحام ونقص الهواء. وأدى ذلك إلى نقلنا إلى عنبر أكبر.

وفي أحد الأيام، بينما كنت جالسة قرب باب الغرفة رقم ١ في العنبر، رأيت فتاة يافعة تبدو في ١٢ أو ١٣ من عمرها تدخل العنبر بوجه عابس مضطرب وعينين دامعتين، ثم اتجهت نحو غرفتنا. لكنها ما إن وصلت إلى الباب حتى توقفت مذهولة، وأخذت تنظر إلى السجينات داخل الغرفة في حيرة، ولم تكن تعرف ماذا تفعل. كنت قد رأيت مثل هذه الحالة عند بعض السجينات الجديدات؛ فإما أن تكون السجينة قد اعتقلت حديثًا، أو أنها خرجت للتو من حبس انفرادي طويل ونقلت إلى العنبر العام. تقدمت إليها، وسلمت عليها، وقلت لها: لا تقلقي، تعالي واجلسي إلى جانبي دقيقة واحدة. فقالت: "أين أنا؟"

استغربت سؤالها. ماذا تقصد؟ أحقًا لا تعلم أنها في سجن إيفين؟! فقلت لها: اجلسي قليلًا حتى تستريحي، وبعدها سأخبرك بكل شيء.

كانت الفتاة منهكة جدًا، وعطشى وجائعة، لكن للأسف لم يكن لدينا ما نقدمه لها. فتنقلنا بين الغرف، وأخذنا من إحدى الغرف قليلًا من الخبز، ومن غرفة أخرى قليلًا من الأرز بالعدس، وكنا نسميه "شفته بلو". أكلت منه قليلًا، ثم قالت: لقد التصق بطني بظهري من شدة الجوع.

كان اسمها فاطمة، ومن تصرفاتها بدا أنها طفلة لا تعرف شيئًا عما يجري حولها. ولم تكن حتى تستطيع التعبير عن نفسها بصورة سليمة. وحين تحدثت معها أكثر، اكتشفت أنها لا تعرف القراءة والكتابة أصلًا. كانت من مدينة ساوه، وذهنها خال تمامًا من أي تصور عما يحدث. كانت تبكي باستمرار وتطلب أمها. سألتها: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فقالت إن والدها من أعضاء اللجنة، ولديه ورشة لصناعة الشموع، وإنها كانت تعمل هناك مع أخيها. وفي إحدى العطل بعد الظهر، جاء أحد شبان الحي وقال إنه يريد أن يصنع شيئًا، وطلب منها أن تسمح له باستعمال الورشة. وبما أن معظم أهل الحي تربطهم صلة قرابة، وكان ذلك الشاب من أقاربهم، فقد سمحت له بالدخول. لكن أفراد الحرس زعموا أن الشاب كانت بحوزته مواد متفجرة، وأن فاطمة ساعدته على الفرار عندما داهموا المكان. ثم إن والدها هو نفسه الذي سلمها إلى افراد الحرس.

ظلت فاطمة تبكي وتردد أريد أن أذهب إلى أمي.

وفي تلك الليلة هدأنا من روعها بصعوبة، وهيأنا لها مكانًا إلى جانبنا لتنام فيه. وفي صباح اليوم التالي نودي اسمها عبر مكبر الصوت للاستجواب. كانت ترتجف من الخوف وتبكي باستمرار، وتقول: "إلى أين سيأخذونني؟"

احتضنتها وقلت لها: لا تخافي، كوني شجاعة، لن يحدث شيء. قبلت جبينها، ثم ذهبت إلى الاستجواب. وعندما عادت من شعبة الاستجواب كانت قدماها داميتين ومتورمتين، ولم تكن تستطيع المشي. دخلت العنبر وسقطت على الأرض من شدة الإعياء. فرفعناها وهيأنا لها مكانا تستلقي

فيه. كانت في غاية الضعف والانهاك، وكانت تصرخ أحيانا وهي نائمة: "لا... لا... اتركوني...!"

حاولنا أن نجد لها أي شيء تأكله، لكن لم يكن لدينا شيء. وعندما جاء وقت الشاي، كانت حصة كل واحدة منا قطعة سكر واحدة. فامتنعت عشر أخوات أو خمس عشرة أختًا عن تناول حصصهن من السكر، وصنعنا لها ماء محلى بالسكر حتى تستعيد بعض قوتها. وبعد ساعات، لما أفاقت من الإغماء، سألت: أين أنا؟ قلت لها: أنت نائمة في الغرفة. قالت بقلق: ألست في شعبة الاستجواب؟ قلت لها: لا، لا تخافي، أنت بيننا. ثم سألتها: كنت تصرخين في نومك: "لا... اتركوني..."، هل حدث شيء؟

فنظرت إلي بعينين تملؤهما الدموع، وقالت بصوت يخنقه البكاء: تركوني في ممر، ثم جاء عدة رجال، وكانوا يقولون لبعضهم: "هذه هي"، ثم أخذوا يضحكون ويؤذونني بطريقة بشعة. وبعدها رأيت في المنام أنهم عادوا مرة أخرى.

لما سمعت قصتها، لم أتمالك دموعي، وقلت في نفسي: يا إلهي، أي ذنب اقترفته هذه الطفلة الصغيرة التي لا تميز بين يمينها ويسارها حتى تقع في أيدي هؤلاء الوحوش، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها؟ لكنني سرعان ما تماسكت وقلت لنفسي: وهل كنت أتوقع منهم غير ذلك؟ ثم قلت لفاطمة: لا تبكي، كوني شجاعة. وإذا جاءوا إليك مرة أخرى، فقاوميهم ودافعي عن نفسك. فنظرت إلي باستغراب وقالت: لكنني لا أستطيع التغلب عليهم! فقلت لها: ليس المهم أن تكوني أقوى منهم، المهم أن تدافعي عن نفسك.

وفجأة ارتسمت على شفتيها ابتسامة، وكأنها أدركت شيئًا جديدًا، وقالت: كم يتعلم الإنسان هنا! من الآن فصاعدا سأدافع عن نفسي.

وفي الغرفة نفسها أصبحت فاطمة صديقة لـ"هلن أرفعي". وكانت هلن معلمة شابة في ٢٢ أو ٢٣ من عمرها، إلا أن ملامحها الجميلة كانت تجعلها تبدو أصغر من سنها الحقيقي، وكانت تشبه طالبات المدارس إلى حد كبير. وتحت تأثير هلن، كانت فاطمة تزداد صلابة وجرأة يومًا بعد يوم.

وحين رأت العميلات أن فاطمة، التي كانت عند دخولها فتاة بسيطة وأمية لا تكاد تستطيع الكلام، قد تحولت خلال بضعة أشهر إلى فتاة شجاعة ومواجهة، أحلنها إلى المحكمة على حد تعبيرهن.

وقالوا لها لقد عفونا عنك من أجل والدك، فهو من جنود خميني ويعمل في لجنة الإمام، وسنطلق سراحك. فاذهبي واشكري والدك لأنه أرسلك إلى هنا لتتربي، أما الجلد الذي تعرضت له فلم يكن إلا تكفيرًا عن ذنوبك السابقة! فاذهبي واحمدي الله، ولا تخبري أحدًا بما جرى حتى لا يستغل أحد ذلك ضد الإسلام والإمام. وعندما أطلق سراح فاطمة، لم تكن الجروح التي على قدميها قد التأمت بعد.

الشهيدة المجاهدة "هلن أرفعي" معلمة، استشهدت في سجن إيفين يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨١، عن عمر ناهز ٢٣ عامًا.

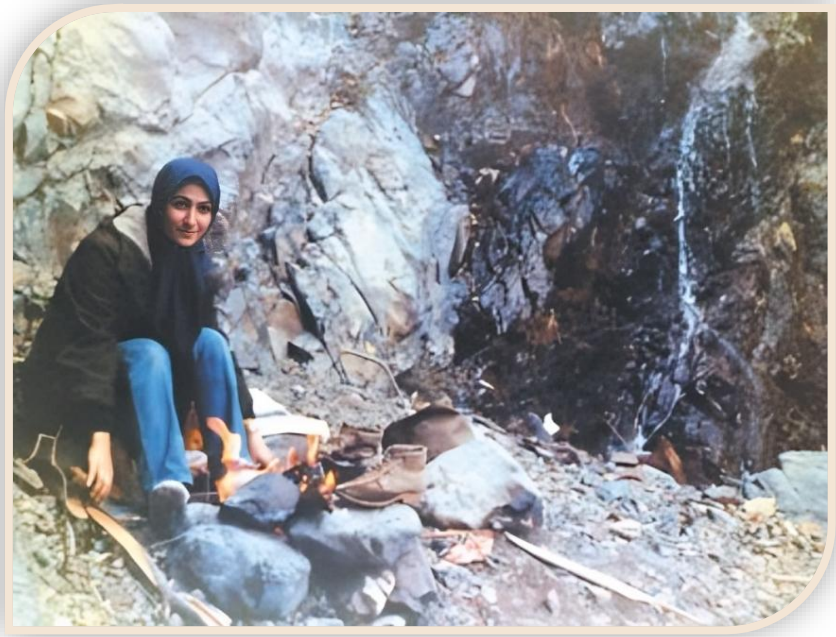

"هلن أرفعي" في مرتفعات طهران بمنطقة شميران

تعذيب أم أمام طفلتها

منذ اليوم الذي دخلت فيه سجن إيفين، بدأت جلسات الاستجواب معي، وكان كل يوم أذهب فيه إلى الاستجواب يحمل لي مشهدًا جديدًا.

وفي أحد الأيام، كنت جالسة في ممر شعبة الاستجواب أنتظر دوري، فلاحظت رجلًا يجلس إلى جانبي. قلت له: ابتعد قليلًا. لكنه لم يعر كلامي

أي اهتمام، ولم يجبني. كررت عليه الطلب عدة مرات، أن يبتعد قليلًا، لكنه ظل صامتًا ولم يتحرك.

وبينما كنت مطرقة رأسي، رفعت عصابة عيني قليلًا لأرى من يكون وما سبب تصرفه، فإذا بي أفاجأ بأنه جثة هامدة. ارتعدت عندما رأيت جثة إلى جواري. تأملت وجهه، فعرفته، إذ كنت قد رأيته من قبل. أجهدت ذاكرتي، فتذكرت أنني رأيته في أحد مكاتب مجاهدي خلق، وأن اسمه "رضا مشهدي".

ولم أكد أستوعب صدمة رؤية جثمان رضا، حتى وجدت المحقق واقفا فوق رأسي، ثم انهالت علي فورا وابل من اللكمات والركلات من كل جانب. وكانت الضربات تدفعني إلى الجدار وإلى السجينات الجالسات حولي، ولأن عيني كانتا معصوبتين، لم أكن أستطيع أن أتماسك، فكنت أسقط على الأرض.

وبعد كل ذلك الضرب، وبحجة أنني رفعت عصابة عيني، سلموني إلى الشعبة الثانية وإلى المحقق المسؤول عني مباشرة. فقال لي: بما أنك تحبين أن تنظري إلى هذا المنافق الذي هلك، فتعالي أنت أيضًا وتذوقي نصيبك، فلعل مصيرك يكون مثله.

ولما أخذني إلى الشعبة ليعذبني، كان صوت صراخ وبكاء طفلة في ٥ أو ٦ من عمرها لا ينقطع. وسرعان ما أدركت أن بكاءها كان لأنها كانت ترى أمها تجلد أمام عينيها.

وكنت أسمع صوت المحقق وهو يقول لها قولي اسم أمك حتى لا تتعرض للمزيد من التعذيب. كان اسم تلك الطفلة فاطمة، لكنني لم أعرف قط ابنة من كانت. وبعد ذلك نقلوا الطفلة مع أمها إلى العنبر ٢٠٩.

يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٨١ في السجن

في إحدى المرات نادوا اسمي للاستجواب، وأخذوني، ثم أجلسوني في ممر الشعبة، لكن لم يكن هناك أي خبر عن الاستجواب. كنت أرى من حولي أشخاصًا يجلسون تباعًا، لكن بعد دقائق لم يعد لهم أثر. كنت في حيرة من أمري: ماذا يجري؟ وإلى أين يأخذون هؤلاء الأخوات؟ ولكي أفهم ما يحدث، كنت كلما أخذوا مجموعة إلى العنبر أغير مكاني حتى لا يعيدوني إلى العنبر. مر عدة مرات رجل مسن كان ينقل الأخوات من العنبر وإليه، ونادى اسمي، لكنني لم أجبه، وبقيت تلك الليلة في ممر الشعبة.

وفي إحدى المرات، عندما رأيت الممر قد امتلأ من جديد، سألت إحدى الأخوات من أنت؟ فقالت: وما الفرق؟ قلت: ما اسمك؟ قالت: لقد اعتقلت حديثًا. قلت: وبأي تهمة؟ قالت: بتهمة المشاركة في مظاهرة يوم "٢٧ سبتمبر". سألتها: وهل الباقيات كذلك؟ فسألتني: ومن تكونين أنت؟ فعرفتها بنفسي، وقلت: جئت من العنبر ٢٤٠، وأرغب كثيرًا في أن أعرف إلى أين تذهب هؤلاء الأخوات؟ فقالت: إنهن جميعًا يذهبن ليوقعن عهدهن وميثاقهن مع الله والشعب بدمائهن. قلت: هل يمكنك أن تخبريني أكثر؟ فقالت: يكفي أن أقول لك إنهن جميعًا ذاهبات إلى الإعدام. إنهن يلتحقن بحنيف وبالمؤسسين الشهداء لمجاهدي خلق وهن يهتفن "عاش رجوي وعاشت الحرية".

وبعد دقائق، لاحظ المحقق إسماعيل أنني كنت أتحدث مع أولئك الأخوات، فأخذ يهددني ويرسم لي خطوطًا حمراء، ثم قال بوقاحة لا تصدر إلا عن أنذال خميني: بعد دقائق قليلة ستلحق جميع أخواتك اللواتي ينشدن

الأناشيد ويرقصن بالموت. انحبس نفسي في صدري. إذًا، هل كانت كل تلك المجموعات المؤلفة من خمس عشرة إلى عشرين سجينة، التي جاءت تباعًا إلى هذا الممر منذ أول الليل ثم مضت، تساق كلها إلى الإعدام؟

وما زلت مذهولة حتى صاح المحقق: "حاجي، تعال وخذ هذه المنافقة! لم يأت دورها بعد." ثم التفت إلي وقال: هل فهمت الآن؟ حسنًا، اسأليني أنا حتى أخبرك.

وعندما كان ذلك الحاج الملعون يأخذني، وكنت أمر بجانب أولئك الأخوات اللواتي اصطففن في صف واحد، عددتهن من تحت عصابة العين. كن ٤٥ سجينة. كانت ساقاي ترتجفان، وكان قلبي يخفق بعنف. وكنت أناجي في نفسي يا إلهي، هل يمكن أن يأخذوهن ويعدموهن حتى من دون استجواب، ومن دون أن يعرفوا من يكن حقًا؟! فالكثير منهن، كما شرحت الأخت التي كانت بجانبي، كن قد اعتقلن في الشارع لمجرد الاشتباه بهن.

وعندما دخلت العنبر، كان كثير من الأخوات مستيقظات، وكان واضحًا أنهن قلقات. سألنني: أين كنت؟ لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟ هل حدث شيء؟ لم تكن لدي رغبة كبيرة في الكلام، لكن عندما رأيتهن يصررن، قلت: لم يكن هناك استجواب، كنت قد خدعت. فضحكت الجميع، لكنهن استغربن أنني كنت عابسة ولم أضحك معهن. فقالت "سيمين هجبر" باستغراب: أعظم، ماذا حدث؟ لماذا لا تضحكين؟ فرويت لهن ما جرى.

وبعد ساعتين أو ثلاث من منتصف الليل، ذهبت لأنام، لكن النوم لم يأتني. كنت أنتظر وأفكر، وفجأة مزق صوت وابل الرصاص سكون منتصف الليل في إيفين، فحبس أنفاسي في صدري، ثم بدأت طلقات الرصاص المتفرقة.

١، ٢، ٣، ٤ ... تجاوز عدد الطلقات ٥٠، ثم... عاد الصمت من جديد. استدرت إلى الخلف، فرأيت الجميع مستيقظات، ممددات في أماكنهن. وما زلت تحت وقع الصدمة حتى سمعت فجأة صوت سيمين الرقيق، وقد بدأت تغني أغنية لورية. في البداية ظننت أنها ما زالت في مكانها وتغني، لكن عندما التفت رأيتها ممددة خلفي. كانت قد جاءت واستلقت خلفي.

وبعد أن أنهت أغنيتها قالت: أعظم، أردت أن أغني لك هذه الأغنية الآن فقط! وأنا سعيدة جدًا من أجل أولئك اللاتي رحلن أيضًا. فسألتها بدهشة: سعيدة بماذا؟ فقالت: أنا سعيدة لأنني سأذهب إليهن قريبًا أيضًا! اضطربت وقلت: سيمين! أما كان لديك حديث آخر تقولينه؟ لكن سيمين، وهي تحمل على شفتيها ابتسامتها المحببة المعهودة، كانت تتحدث بنبرة جادة، وفي الوقت نفسه مفعمة بالفرح. ثم نهضت وعادت إلى مكانها لتنام، أما في داخلي فقد كانت عاصفة قد هبت.

لم نكن نبكي أبدًا أمام أعين السجانات والحراس وذيولهم الخائنات داخل السجن بسبب إعدام الأخوات. لكنني في تلك الليلة أدخلت رأسي تحت البطانية، وبكيت بصمت. بكيت على أولئك الأخوات اللاتي أعدمن قبل دقائق بتلك الصورة المظلومة، وبكيت أيضًا على سيمين، لأنني كنت أعلم أنها هي الأخرى ستعدم قريبًا.

فتاة كانت تضحك دائمًا

كانت "سيمين هجبر" فتاة شابة سمراء جميلة، تبدو في ١٦ أو ١٧ من عمرها. كان صوتها دافئًا وعذبًا. كانت عائلة سيمين من أهل لرستان، لكنها نشأت في طهران. اعتقلت بتهمة تأييد مجاهدي خلق. كانت تتمتع بروح عجيبة، وكأنها لا تعرف معنى الخوف. كانت، بحق، كالأسد. كانوا يأخذون سيمين كل يوم إلى الاستجواب، وكل يوم، بلا استثناء، كانوا يجلدونها، وكان لها، على حد تعبيرهم، "حصتها" اليومية من الجلد. لكنها، ما إن كانت تعود من الاستجواب، وما إن يفتح باب العنبر وتخطو إلى الداخل، حتى تبدأ، بوجهها البشوش وصوتها الدافئ، بالغناء وإنشاد الأغاني اللرية، وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنها لم تتعرض لأي تعذيب.

قلت لها ذات مرة: سيمين، عندما تعودين هكذا وتبدئين مباشرة بالغناء والضحك، فإنهم سيزيدون من تعذيبك. اصمتي بضع دقائق! فضحكت وقالت: إما أن أقهرهم أو يقهروني! لكنهم واهمون، فأنا التي سأقهرهم! سواء تلقيت مئة ضربة بالكابل أو ألفًا، فسأواصل الغناء.

وفي أحد الأيام، عندما كنت في الشعبة، وكانت إحدى الأخوات من عنبر آخر، نعرف بعضنا بعضًا، جالسة في الممر بانتظار الاستجواب، سألتني: أعظم! هل سيمين في عنبركم؟ قلت: نعم. فقالت: هل تعلمين؟ إنها شجاعة جدًا! في أحد الأيام ظلوا يجلدونها ساعتين كاملتين. وعندما أجلسوها إلى جانبي قبل إعادتها إلى العنبر، رأيتها تضحك. سألتني: هل أخذت أنت أيضا حصتك؟ قلت: أية حصة؟ فقالت: أما أنا فلي حصة يومية، مثل الطعام! أتناول هذه أولًا، ثم أذهب إلى العنبر لأتناول الطعام! ثم جاء الحاج وقال

لسيمين: يا بنت، أما يظهر عليك أثر كل هذا الضرب؟ ثم أنهضها وأخذها معه.

كان الجميع في الشعبة يعرفونها، لأنها أينما أجلسوها كانت تبدأ بالحديث وطرح الأسئلة والإجابة عنها، لتعرف آخر الاخبار. وبهذه الروح المفعمة بالحيوية جذبت الجميع إليها. كانت جميع الأخوات يحببنها كثيرًا.

وكان "سيروس هجبر"، شقيق سيمين الأكبر، قد استشهد تحت التعذيب في أحد سجون شمال إيران، في مدينة ساري. وكانت الأخوات قد أحضرن لسيمين إحدى بلوزاته، فكانت ترتديها دائمًا، وتقبلها، وتقول: أنا أفتخر بأخي. لقد وفى بعهده، وأنا أيضا سأفعل الشيء نفسه. لقد اتخذت قراري.

لم يأخذ الجلادون سيمين مباشرة من العنبر ٢٤٠ إلى الإعدام، بل نقلوها أولًا إلى العنبر ٣١١، وأبقوها شهرًا كاملًا تحت أشد أنواع التعذيب. ولم تكن القضية قضية معلومات أصلًا، وإنما كانوا ساخطين لأنهم عجزوا عن كسر مقاومة فتاة في ١٦ أو ١٧ من عمرها. لكن سيمين هناك أيضًا حطمت كبرياءهم. وظلت، كالأسد، تزأر حتى اللحظة الأخيرة، وسجلت اسمها في سجل شهداء مجاهدي خلق الأبطال.

وفي صباح أحد الأيام، بعد أن سمعنا عند الفجر صوت وابل الرصاص الذي أعدموا به الأخوات، أعلن الراديو أسماء اللواتي أعدمن، وكان اسم "سيمين هجبر" بينهن. وكانوا لا يشغلون الراديو عبر مكبر صوت العنبر إلا في الأيام التي يعلنون فيها أسماء المعدومات، ثم يطفئونه بعد ذلك. كان الحمقى يظنون أن إعلان أسماء من أعدموا سيحطم معنويات الباقين، لكن كلما أعلن اسم امرأة أو رجل من مجاهدي خلق، ازددنا ثباتًا على عهدنا.

وفي ذلك اليوم، عندما أعلنوا اسم سيمين، قررت الأخوات إقامة مراسم لها. فأقمنا مراسم بقراءة الصلاة وتوزيع الحلوى على روحها. ذكرى سيمين، الشجاعة والصلبة والمتواضعة والحنونة، ما زالت حية بالنسبة لي دائمًا، وكأنها تجلس الآن إلى جانبي.

الشهيدة المجاهدة "سيمين هجبر"، كانت تبلغ من العمر ٢٠ عامًا عند استشهادها.
استشهدت في سجن إيفين بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٩٨١.

ومؤخرًا، وبين وثائق وحدة أبحاث الشهداء، اطلعت على مقتطفات من مذكرات عدد من السجينات عن ليلة إعدامها، ومنها:

"كانت سيمين هجبر من الطالبات الناشطات في ثانوية هشترودي، وبرغم جديتها في ساحة النضال، لم تكن الابتسامة تفارق شفتيها في أشد الظروف. اعتقلت في أغسطس ١٩٨١ أثناء نشاطها الدعائي ضد الانتخابات الرئاسية الخاصة برجائي. ومع أنها كانت تمتلك معلومات كثيرة، فإنها لم تنطق بكلمة واحدة. وفي الليلة السابقة لإعدامها، أحضروها إلى الزنزانة المجاورة لنا. وكانت تتحدث بصوت مرتفع مع إحدى الأمهات، وتخبرها أنهم سيعدمونها هذه الليلة أو في الليلة التالية، وطلبت منها أنه إذا أفرج عنها، أن تأخذ قميصها إلى والدتها تذكارًا. كان جسد سيمين كله مجروحًا من شدة التعذيب، وكانت أظافر إبهاميها قد سقطت. وكانت تقول بنفسها: انظروا ماذا فعلوا بقدمي ويدي ووجهي وجسدي، ومع ذلك فما زلت أخشى ألا أكون قد استطعت أن أقوم بما ينبغي.

ونقل عن السيدة جواهريان، التي كانت مع سيمين في زنزانة واحدة ليلة ما قبل إعدامها، أن جسدها كله كان مجروحًا من شدة التعذيب، وأن أظافر إبهاميها كانت قد سقطت. وفي عصر اليوم الذي سبق إعدامها، بدأت بقراءة زيارة عاشوراء، ثم ألقت قصيدة "قبّلني"، وأنشدتها بصورة جميلة جدًا، وظلت تتحدث وتضحك حتى كان الجميع ينظرون إليها بدهشة. وعندما نادوا اسمها، كانت مستعدة، وقالت وهي تضحك وبفرح: 'في أمان الله، باي باي'."

يوم ٨ فبراير ١٩٨٢ في سجن إيفين

في مساء ذلك اليوم، كان عناصر الحرس والمحققون يتناجون فيما بينهم، وبين السخرية والتهكم كانوا يوجهون إلينا كلمات لاذعة. وفي ذلك اليوم نفسه، كانوا قد أخذوني إلى العنبر ٢٠٩ لمواجهة إحدى أخواتي، واسمها "سيبا شريف بور"، للتعرف إليها. وبينما كنت واقفة في ممر العنبر ٢٠٩، رأيت العميلات يتحركن على نحو غير طبيعي تمامًا، ويتحدثن همسًا فيما بينهن، لكنهن، وسط حديثهن، كن ينفجرن فجأة بالضحك ويقلن: علينا أن نقيم احتفالًا. كنت قلقة، وأقول في نفسي: يا إلهي، ما الذي حدث؟ لكن مهما حاولت أن أنظر من تحت العصابة لم أفهم ما الذي يجري.

أعادوني إلى الزنزانة وقالوا: لدينا عمل الآن، سنأتي بك لاحقًا. وأضافوا بسخرية: دعيها الآن تذهب إلى صديقاتها حتى تشاركهن احتفالهن. في تلك الليلة كنت شديدة القلق، لأن جميع العميلات، أينما كن، كن يطلقن ضحكات مستفزة، ويوجهن إلينا السخرية باستمرار. ومن حديث الأخوات اللواتي عدن من الاستجواب، تبين أن الأمر نفسه كان يجري في جميع شعب الاستجواب. وكان المحققون يضحكون ويقولون: يجب أن نقدم الحلوى، وكانت جميع الأخوات يسألن بعضهن بعضًا: ماذا حدث؟

وفي اليوم التالي، عندما سمعنا نبأ استشهاد "أشرف وموسى" ورفاقهما، فهمنا أخيرًا سبب كل تلك المهزلة التي كان الجلادون يقومون بها.

وكان الجلادون، الذين كانوا يظنون أن أمر المنظمة قد انتهى، قد أحضروا جثامين الشهداء إلى ساحة العنبر ٢٠٩ في إيفين، ووضعوها فوق السواتر الترابية هناك، ثم كانوا يأتون بالسجينات في مجموعات من أربعين، صفًا

بعد صف، لمشاهدة الجثامين. وكان الجلاد لاجوردي يحمل "محمد"، ابن أشرف، بين ذراعيه، ويقف به فوق جثامين الشهداء. وكان يريد بهذا الفعل، وبقهقهاته المقززة، أن يحطم معنويات السجناء.

وبأمر من لاجوردي، كانوا قد وضعوا جثامين الشهداء بحيث استقرت رؤوسهم على عارضة حديدية تعمل كالأرجوحة. وكان لاجوردي، ليزيد من تعذيب الأخوات، يضع قدمه على الطرف الآخر من تلك العارضة ويضغط عليها، فترتفع رؤوس الشهداء. ويبقيها على تلك الحال مدة، ثم يرفع قدمه فجأة، فيسقط الطرف الآخر من العارضة، وترتطم رؤوس الشهداء بقوة بالحديد. وكان يطلق ضحكة قبيحة ويقول: تعالوا وانظروا إلى شهدائكم الشامخين، كيف انتهوا! وكان يحدق في عيون الأخوات واحدة واحدة ليراقب ردود أفعالهن. وكان يريد بهذه الأفعال أن يزيد من توترهن. وكان يقول ضاحكًا: اليوم هو يوم احتفالنا وحدادكم. لكن الجميع كانوا ينظرون إليه بنظرات مليئة بالغضب، حتى خرج عن طوره.

كما كان لاجوردي يطلب من السجينات، بخسة ودناءة، أن يهين الشهداء، لكن معظم الأخوات، على العكس، أظهرن الاحترام للشهداء، وبصقن باتجاه لاجوردي نفسه، ودفعن ثمن ذلك أيضًا، إذ كان الإعدام رميًا بالرصاص.

وهكذا، فإن ما كان النظام الحاكم يريد أن يحوله إلى استعراض لقوته، وإلى وسيلة لتحطيم معنويات السجناء لمجاهدي خلق والمناضلين، تحول، على العكس، إلى مشهد زاد من صمودهم. حتى إن الجلادين، الذين كانوا في البداية يريدون أن يأتوا بجميع السجناء لرؤية جثامين الشهداء، تراجعوا عن ذلك، وأوقفوا إحضار السجناء للمرور فوق جثامين الشهداء.

صدى "٨ فبراير" في العنابر

عندما أذيع خبر استشهاد "أشرف وموسى" من تلفزيون العنبر، لم يصدق أحد في البداية. ثم خيم الصمت على العنبر كله، ولم يعد أحد يقوم بأي حركة.

كانت "بروين حائري"، رغم أنها كانت قد عادت من الاستجواب ولم تكن تعرف ما الخبر الذي أذيع من التلفزيون، على خلاف عادتها دائمًا، حيث كانت تمشي في العنبر بحيوية وثبات، بوجه مصمم ومبتسم، ولم تكن تسمح لأي شيء بأن يؤثر فيها، تقف وسط العنبر بوجه شاحب وملامح قلقة ومضطربة، وكأنها قد شمت رائحة الكارثة.

قلت لها: بروين، ما الذي حدث حتى أصبحت قلقة إلى هذا الحد؟ قالت: "قولي أنت، لماذا كل شيء صامت في كل مكان؟"

وكانت محقة. فقد كان الصمت هو قانون الحراس، ولهذا كان يجب أن يكون العنبر دائمًا مليئًا بالحركة والنشاط. لكن في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظات، كان الجميع يعيشون حالة من الذهول والحيرة.

إلا أن هذا الصمت لم يدم طويلًا. فقد كسرت الدكتورة "هاجر رباط كرمي" و"فاطمة آصف"، اللتان كانتا أكبر سنًا وأكثر نضجًا وخبرة من الأخريات، هذا الصمت. خرجتا من غرفتهما وقالتا: الصمت هو ما يريده النظام. فهذا النظام هو الذي يريد أن يدفع الجميع إلى الصمت، وأن يعلن أن كل شيء قد انتهى. وكانت بروين، التي كانت حتى تلك اللحظة تمشي بصمت في الممر، قد أسرعت نحوهما وقالت: أنا أيضًا أقول الشيء نفسه.

هؤلاء الثلاث، اللواتي استشهدن جميعًا فيما بعد، كسرن صمت العنبر.بدأت هاجر أولًا بقراءة زيارة عاشوراء، وعندما وصلت إلى ذلك المقطع الذي يقول: "إني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم وعدو لمن عاداكم" رفعت صوتها.

وسرعان ما حل مكان ذلك البرود والحزن الأولي نار من الغضب والحقد مضاعفة مئات المرات، نار كانت قد اشتعلت في القلوب وأخذت تتوهج. وأصبحت الفتيات يشعرن بمزيد من المحبة تجاه بعضهن بعضًا. كنت أشعر أننا أصبحنا كالسلسلة المترابطة التي لم يعد بإمكان أحد أن يفصل حلقاتها عن بعضها.

قام الجلادون بتصوير المشاهد المروعة لجثامين الشهداء في ساحة العنبر ٢٠٩، لكي يعرضوها في العنابر، وكانوا يظنون أنهم بذلك سيحطمون معنويات السجينات. لكن عرض تلك الأفلام أحدث انفجارًا في كل عنبر. خرجت جميع الفتيات من الغرف إلى ممر العنبر لكي يشاهدن صور الشهداء. وكانت حالة الفتيات في تلك اللحظات لا توصف. كن ينشدن الأناشيد، ويبكين، ويحتضن بعضهن بعضًا، ويعاهدن بعضهن على أن يبقين حتى النهاية ثابتات وصامدات في الطريق نفسه الذي بذل فيه "أشرف وموسى" دمهما.

موجة الإعدامات

كان الجلادون قد تلقوا ضربة قاسية من السجناء من مجاهدي خلق بشأن قضية "٨ فبراير"، فأخذوا ينتقمون في جلسات الاستجواب وعمليات التعذيب التي غدت أشد وحشية من ذي قبل. وهكذا بدأت حملة الانتقام والتشفي. وظلت "مهدخت"[٩] تحت التعذيب يومين كاملين. كما تعرضت "فاطمة وزهراء صميمي" مطلق أيضًا للتعذيب عدة أيام.

في اليوم الذي نادوا فيه على "فرح ترابي" و"فاطمة وزهراء صميمي مطلق"، ثم بعد ذلك على "زهراء نظري" و"إلهة عروجي"، من عنبرنا، كان شعورنا لا يوصف. كنا جميعًا نعلم ما الذي ينتظرهن. وكانت أولئك الأخوات يعرفن جيدًا أنهن ذاهبات إلى الإعدام. وما إن أعلنت أسماؤهن حتى أسرعن، واغتسلن غسل الشهادة، واستعددن.

لن أنسى أبدًا "زهراء صميمي مطلق" بذلك الوجه البريء. لم تكن ابتسامتها العذبة تفارق شفتيها في أي ظرف، وكأنها سمعت دائمًا خبرًا سعيدًا. كانت

---

[٩] كانت "مهدخت محمدي زاده" طالبة في كلية الطب، تدرس تخصص جراحة العظام. وفي السجن أصبحت مسؤولة عن قسم الإسعافات الأولية في العنبر، وكانت تعتني بالسجينات المريضات بالكثير من التعاطف والمحبة. وبين وثائق وحدة أبحاث الشهداء، عثرت على جزء من مذكرات سجينة سياسية أخرى تتحدث عنها، جاء فيه:

"في أحد الأيام كنا نتحدث في السجن مع مهدخت وسودابه رضا زاده. كانت مهدخت تقول: كم أتمنى أن أذهب إلى قرى إيران وإلى كل الأماكن النائية التي لا تتوافر فيها أي إمكانات، وأن أساعد أطفالها الصغار وأعلمهم، حتى يعرفوا أصدقاءهم وأعداءهم."

أعدمت "مهدخت" في أغسطس ١٩٨٨، ضمن مجزرة إعدام نحو ثلاثين ألفًا من سجناء مجاهدي خلق في سجن إيفين.

تستقبل كل حدث بصدر رحب. وعندما نادوا اسمها للإعدام، كانت في غاية الهدوء، وما زالت تلك الابتسامة تعلو وجهها. احتضناها جميعًا وقبلناها وبكينا. وعندما رأت دموعي تنهمر وأنا أودعها، قالت: أعظم، أإلى مكان سيئ أذهب حتى تبكي؟ لقد اخترت أفضل مصير، وأنا في غاية السعادة لأنني سأبلغه. وآمل أن أستطيع أن أؤدي مسؤوليتي حتى النهاية. ثم ودعتنا بهذه المفردات، وغادرت العنبر مع الأخوات الأخريات. وأحضرت "السيدة الحاجة" ("حاج خانم" بالفارسية و هي "الأم توانايان فرد") القرآن، وأمرت جميعهن بالمرور من تحته. فقبلنه، ثم غادرن العنبر وهن يبتسمن ويفرحن، وكأنهن ذاهبات في رحلة سعيدة.

عيد النوروز في السجن

حل نوروز عام ١٩٨٢ وأنا في الغرفة رقم ١ من العنبر ٢٤٠ في سجن إيفين. وفي الأيام الأخيرة من العام قررنا أن نقيم احتفال العيد ورأس السنة بما كان متاحًا لدينا من إمكانات محدودة داخل الغرفة.

اجتمعنا جميعًا لنعرف ما الذي نملكه ويمكن أن نصنع منه شيئًا للعيد. وفي الأيام العادية كنا نصنع في السجن شيئًا أطلقنا عليه اسم " وقود الطائرة النفاثة" ("سوخت جت" بالفارسية)، وكنا نقدمه للأخوات اللواتي يعدن من التعذيب ليستعدن شيئًا من قوتهن. ومازحتنا بعض الأخوات قائلات: هيا هذه المرة نقدمه للجميع، فما المانع أن نحلّق جميعًا مرة واحدة؟

واتفقنا أولًا على جمع مكونات الحلوى. فانطلقت كل واحدة إلى إحدى الغرف، وعندما عدنا بأوعيتنا، كنا قد جمعنا أشياء متنوعة كانت ثمينة في

تلك الظروف، من التين المجفف والتمر إلى الحليب المجفف. كما حصلنا على شيء من الكاكاو من العنبر السفلي. خلطناها جميعًا جيدًا، وبابتكار "بروين حائري"، التي كانت تتمتع بذوق رفيع، صنعنا نوعين من الحلوى؛ أحدهما يشبه حلوى السوهان بالعسل، والآخر يشبه الحلوى الجافة. ووضعنا في وسط كل قطعة حبة حمص، ثم أطلقنا على هذه الحلوى اسم أحد أشهر محال الحلويات في طهران. وعندما اجتمعت الأخوات، أخرجنا الحلوى التي صنعناها كلها بعيدًا عن أعين الجاسوسات والخائنات. فأكلتها الجميع بسرور بالغ، وأخذن يمتدحن كثيرًا أول إنتاج لصناعة الحلويات في السجن وداخل الزنزانة!

من هو "المنافق"؟

على الرغم من جميع الإجراءات التي اتخذها الجلادون لمنع إقامة احتفال العيد، فقد أقيمت مراسم نوروز عام ١٩٨٢ في الغرفة رقم ١ من العنبر ٢٤٠ في إيفين، وكذلك في سائر الغرف، وعلى حد علمي، في جميع عنابر إيفين التي كانت تضم السجناء من مجاهدي خلق. وكان من بين الفقرات التي قدمناها في غرفتنا عدة رقصات شعبية، منها الرقصة الكردية والرقصة الأذربيجانية. وبينما كانت إحدى الأخوات الكرديات تؤدي الرقصة الكردية، اقتحمت العنبر فجأة السجانات، وبينهن "علي زاده"، فأمسكت بشعر تلك الأخت الجميل، الذي كانت قد حافظت عليه طويلًا حتى في السجن، وكان يصل إلى خصرها، ولفته حول يدها، وأرادت أن تجرها إلى خارج العنبر لتضربها وتعذبها. لكن جميع الأخوات اعترضن وقاومن. فمن جهة كانت السجانات الثلاث يجرنها، ومن الجهة الأخرى كانت الأخوات يتمسكن بها.

وفي النهاية فشلت السجانات في أخذها معهن، وانصرفن مهزومات ذليلات. لكننا كنا نعلم أنهن لن يتركن الأمر، وأن علينا أن ندفع ثمن ما فعلناه. ومع ذلك كنا جميعًا راضيات، لأنه لم تحدد هي مسؤولة بوحدها، واضطرت السجانات إلى معاقبة عدد كبير منا.

وهذا ما حدث فعلًا. فما إن مضت دقائق على خروج السجانات حتى أعلن مكبر الصوت أسماء خمس عشرة سجينة للاستجواب. وكنا نعلم أن عقابًا وتعذيبًا شديدين ينتظرانهن. أخذوهن من العنبر، ولم يعدن إلا بعد يومين. وخلال هذين اليومين ظللن تحت الاستجواب والتعذيب الوحشي. وعندما أعدن، فتحت السجانة علي زاده باب العنبر، ودفعت الأخوات إلى الداخل، وكانت أجسادهن جميعًا مضرجة بالدماء والجراح، وعيونهن غائرة، ووجوههن شاحبة، ثم قالت بحقد خاص كانت تكنه لمجاهدي خلق: أيتها المنافقات، إذا أردتن الضيافة، فأقيموا احتفال العيد مرة أخرى!

ولم أشأ أن يمر كلامها بلا رد، فقلت لها: الجميع يعرف من هي "المنافق". حدقت في وجهي ثم انصرفت. وكنت أعلم ما الذي ينتظرني. ولم يطل الانتظار سوى دقائق، حتى عادوا وأعلنوا اسمي عبر مكبر الصوت. أخذوني إلى العنبر ٢٠٩ للاستجواب، وأبقوني معصوبة العينين في الممر. وهناك، كان كل محقق أو حارس يمر بي يلكمني أو يركلني بقوة، فأرتطم بالجدار.

وكان العملاء "الذكور"، بقصد إهانتي، يتحرشون بي أيضًا بصورة دنيئة، فإذا واجهوا مقاومتي انهالوا علي ضربًا. وكان بعضهم يقترب، ويلصق فمه القذر بأذني، ويكيل لي الشتائم والكلمات التي لا تليق إلا بهم، والتي هي ثمرة ثقافة الملالي، ثم ينفجرون بالضحك. وعندما واجه أحدهم مقاومتي، قال

لآخر: يجب أن نقيد هذه الكلبة المتوحشة قليلًا بالسلسلة حتى تهدأ. ومنذ ذلك الحين قيدوا يدي إلى الخلف، حتى لا أستطيع أن أبدي أي رد فعل تجاه ما كانوا يرتكبونه من أفعال دنيئة. وظلوا طوال يوم كامل يعاملونني بهذه الطريقة، ثم أعادوني إلى العنبر بعد ساعتين ونصف من منتصف الليل. وعندما عدت إلى الزنزانة، التفت إلي المحقق وقال: انظري، إذا أردت، فبإمكانك أن تضحكي مرة أخرى. تمارسون لعبة النفاق، لكن حين يحين وقت الحساب نصبح نحن المعذبين.

وفي نظر هؤلاء الجلادين المعادين للإنسانية، كان كل مظهر من مظاهر البهجة، والضحك، والعمل الجماعي بين السجينات، "لعبة النفاق"، وجريمة لا تغتفر، يعاقبون عليها بأشد العقوبات. ولم يكونوا يحتملون حتى أقل حركة، بل حتى مجرد مشي الأخوات.

"لا يتذمر المجاهد"

في إحدى المرات عندما اقتادوني إلى شعبة الاستجواب وراحوا يمارسون بحقي صنوفًا من الإيذاء المهين، قلت لأحدهم: أما لديك أخت أو أم حتى تفعل هذه الأفعال؟ من شدة الغيظ، بدا وكأنه فقد صوابه فجأة. وبينما كان يصرخ، تراجع إلى الخلف ثم قفز بكلتا قدميه على بطني وهو يقول: لدي أخت وأم، لكن ليستا مثلك!

كانت الضربة عنيفة إلى حد شعرت معه وكأن أمعائي كلها ستخرج من فمي، وأحسست فعلًا أنني أموت، ثم فقدت الوعي. وعندما أفقت بعد مدة لا أعرف كم كانت، كنت لا أزال أتلوى من شدة الألم في بطني وأشعر

بالغثيان. وبدأت في داخلي أتذمر وأعاتب الله، وقلت: يا الله، أين أنت؟ ماذا تفعل حتى يظلم هؤلاء الناس بهذا الشكل؟ لماذا لا تردعهم؟! وبينما كنت غارقة في هذا التذمر، جاءت إحدى العميلات، فسحبت حجابي واقتادتني، ثم ألقت بي في إحدى زنازين العنبر ٢٠٩.

كنت ممددة في الزنزانة، أتلوى من الألم، أحدث نفسي، وأناجي الله وأشكو إليه ما أعانيه. وفجأة سمعت صوتًا قادمًا من خلف الجدار المجاور. كنت أعرف شيئًا من شفرة مورس، فسألت: من أنت؟ أجابت: "معصومة". ثم سألتني: ماذا تفعلين؟ قلت: لا شيء... كنت فقط أشكو إلى الله من هؤلاء الجلادين وأتذمر، لأنني لم أجد أحدًا أحدثه. فأجابتني: "لا ينبغي أن يتذمر المجاهد. فهذا طريق اخترناه بإرادتنا..." ساد الصمت. وشعرت بالخجل من نفسي، ومن ضعفي أمام ذلك الأسلوب الذي يستخدمه الملالي لتحطيم المرأة. لقد تركت الكلمات القليلة لتلك الأخت أثرًا عميقًا في نفسي، وتعلمت منها معنى الصمود والصبر.

بعد ذلك واصلت إرسال إشارات مورس، لكنها لم تجبني مرة أخرى. ولا بد أنهم كانوا قد اقتادوها إلى الاستجواب، لأنني بعد ذلك لم أعد أسمع أي صوت يصدر من زنزانتها. وعندما نقلت لاحقًا إلى العنبر، سألت الأخوات: من هي معصومة التي كانت بهذه المواصفات؟ فأخبرنني أنها كانت "معصومة عضدانلو".

كانت معصومة قد اعتقلت في ٢ أبريل ١٩٨٢، بعدما قاومت لساعات عدة الهجوم المسلح الذي شنته عناصر الحرس على مقر إقامتها في طهران. وكانت قد أصيبت بالرصاص وسقطت فاقدة الوعي عند اعتقالها. وكان

النظام قد أعلن في البداية أنها قتلت أثناء الاشتباك، غير أنهم كانوا، منذ اللحظة الأولى، قد أخضعوها للتعذيب. وكانت قد أصيبت بأربع رصاصات في العنق والفك واليد، ثم أصبحت بعد مدة عاجزة عن المشي، كما صار الكلام وتناول الطعام أمرًا بالغ الصعوبة بالنسبة إليها. وكان هدف العدو أن يرغم معصومة، عبر أبشع أنواع التعذيب، على إجراء مقابلة تلفزيونية.

وفي النهاية، في ٣٠ سبتمبر ١٩٨٢، أعدموها رميًا بالرصاص، رغم أنها كانت قد فقدت القدرة على المشي والكلام وتناول الطعام، وحتى عنقها لم يعد قادرًا على الحركة.

الشهيدة المجاهدة "معصومة عضدانلو"
مواليد ١٩٥٩ في طهران، استشهدت في ٣٠ سبتمبر ١٩٨٢ في طهران (سجن إيفين).

وفي تقرير كتبته "فتانة عوض بور" عن مشاهداتها المتعلقة بمعصومة، واطلعت عليه ضمن وثائق وحدة أبحاث الشهداء، جاء ما يلي:

"كانت معصومة قد أصيبت بجروح بالغة عند اعتقالها، ورغم أنها كانت حاملًا فقد أخضعوها للتعذيب. وكانت الشهيدة 'ناهيد إيزدخواه كرماني'، وهي شقيقة زوج معصومة، قد نقلت إلى الزنزانة الانفرادية في العنبر ٢٠٩

قبل معصومة. وكانت تقول إن ملامح معصومة قد تغيرت إلى درجة أنها لم تتعرف إليها في البداية. وفي أواخر يونيو أو أوائل يوليو ١٩٨٢، وبسبب خطأ ارتكبته عناصر الحرس، نقلت معصومة إلى العنبر ٢٤٦ بدلًا من العنبر ٢٠٩. وقد أدخلوها إلى الغرفة رقم ٣، وهناك ذهبت الشهيدة 'زري ناهيدبور'، وهي من طالبات جامعة العلم والصناعة، وكانت تربطها بمعصومة علاقة وثيقة منذ أيام الجامعة، وزارتها وسألتها عن بعض التفاصيل. فقالت لها معصومة: إنهم يريدون عنوان أختي "مريم"، وهذه هي أهم معلومة يعذبونني من أجلها. إنهم يعلمون أنني أعرف، وأنا أيضًا سأصمد حتى النهاية، ولن أبوح بشيء. وحتى اليوم الذي نقلت فيه إلى العنبر ٢٤٦ وتحدثت معها 'زري'، كان الجميع يعتقدون أن معصومة قد استشهدت. وسرعان ما أدرك أفراد الحرس خطأهم، فأعادوها إلى العنبر ٢٠٩."

الشهيدة المجاهدة "ناهيد إيزدخواه كرماني" - موظفة، ٣٦ عامًا - استشهدت في ٣٦ أغسطس ١٩٨٢ في طهران (سجن إيفين).

بما أن أي عمل أو نشاط جماعي كان ممنوعًا في نظر السجانات، كانت عناصر الحرس تقتحم العنبر كل يوم بذريعة ما، وتحاول، من خلال ضرب الرفاق، بث أجواء الرعب والذعر، ومنع أي أحد حتى من أن تكون لديه الرغبة أو القدرة على إقامة أي عيد أو احتفال. وكان من بين أساليبهم الدنيئة

لتحطيم الأخوات المقاومات، توجيه اتهامات أخلاقية إليهم، ثم جلدهن بهذه التهم أمام بقية السجينات.

ولهذا الغرض، أحضروا ذات يوم مقعدًا خشبيًا إلى العنبر ووضعوه في وسط الغرفة، ثم نادوا أسماء عدد من الأخوات، منهن "زهرة عين اليقين" و"رضية آيت الله زاده شيرازي"، ليجلدوهن في تلك الغرفة نفسها وأمام أنظار الجميع.

نهضت "حورية بهشتي تبار" وقالت: إذا كنتم تريدون أن تجلدوا وتعذبوا، فافعلوا، فهذا عملكم. لكن لم يعد مقبولًا أن تجلدوا وتوجهوا في الوقت نفسه اتهامات أخلاقية وتلجأوا إلى هذه الأساليب!

لم يكن أفراد الحرس يتوقعون سماع مثل هذه الكلمات، فقالوا لها: إذن أنت أيضًا متواطئة معهن! ثم هجموا على "حورية" مثل الحيوانات المفترسة، وأخذوا ينهالون عليها باللكمات والركلات.

كانت "حورية"، التي ازدادت درجة نظارتها كثيرًا وأصبحت تعاني من ضعف شديد في بصرها بسبب التعذيب، قد فقدت نظارتها أيضًا أثناء تعرضها للضرب، ولم تعد عيناها تريان شيئًا. كان العملاء يسخرون منها، ويرمونها من جهة إلى أخرى مثل الكرة، ويعذبون الأخوات بقهقهاتهم البشعة.

ولكن "حورية" حافظت على صلابتها. بعد هذه الإيذاءات، أجبروا حورية على الاستلقاء بالقوة لكي يجلدوها. لكن حركة حورية وتصرفها أثارا جميع الأخوات، فأدرن وجوههن نحو الجدار احتجاجًا، ولم تستعد أي منهن لمشاهدة مشهد جلد زميلتهن في السجن.

وكان الجلادون الذين استشاطوا غضبًا بسبب رد فعل الأخوات، قد أرسلوا فرقة الضرب بقيادة أحد أكثر جلادي سجن إيفين قسوة، ويدعى "مجتبى حلوايي" إلى العنبر.

وكان حلوايي الجلاد الذي كنا قد أطلقنا عليه اسم "الغوريلا"، قد نزل إلى العنبر برفقة فرقة الضرب التابعة له، المؤلفة من عشرين إلى ثلاثين عنصرًا من عناصر الحرس الغلاظ، وبالتعاون مع الخائنات، انهالوا على الأخوات بالكابلات والهراوات واللكمات والركلات، لكي يجبرونا على إدارة وجوهنا نحو المقعد، ويرغمونا على مشاهدة مشهد جلد أخواتنا. ورغم أنهم ظلوا يضربون الأخوات ساعتين متواصلتين، وخلال ذلك تحطمت عدة هراوات أيضًا من شدة الضربات، وسقطت بعض الأخوات في حالة إغماء، فإن الجلادين لم يحققوا ما أرادوه، ولم تقبل الأخوات أن يكن شاهدات أو متفرجات على جلد أخواتهن، وبمقاومتهن أفشلن مخطط الجلادين وأحبطن هدفهم.

قصة حزينة لفتاة شابة

أما قصة فتاة شابة، فقد بقيت قصتها، في تلك الفترة، محفورة في ذاكرتي إلى الأبد باعتبارها واحدة من أكثر المصائر إيلامًا مما رأيته في السجن.

في إحدى الليالي، عندما لم أكن أستطيع النوم وكنت أمشي ذهابًا وإيابًا في العنبر، لفتت انتباهي فتاة لم أكن أعرفها، لأنني كنت قد وصلت حديثًا إلى ذلك العنبر، ولأنها كانت شديدة الصمت والهدوء. كانت فتاة طويلة القامة، فائقة الجمال، لكن الحزن والألم العميقين كانا قد غطيا وجهها الجميل.

في تلك الليالي، عندما رأيتها تمشي فوق رؤوس الفتيات، قررت أن أتعرف إليها، وخصوصًا أن تصرفها في ذلك الوقت من منتصف الليل كان غير عادي. كانت تضع يديها على خصرها، وبدا وكأنها تبحث عن شخص معين. كانت تصل إلى رأس كل واحدة، ثم تنحني حتى مستوى الخصر وتنظر إليها بنظرات مليئة بالدهشة، ثم تتابع طريقها.

بدت في ١٦ أو ١٧ من عمرها على الأكثر. بدأت أمشي خلفها وأراقبها، وفجأة رأيتها تنحني فوق إحدى الفتيات، وتضع يديها على حلقها، وتتخذ وضعية وكأنها تخنقها!

أمسكت بيديها وأنا في حالة خوف شديد، واحتضنتها، وأخذت أقبلها، وحاولت أن آخذها معي وأتحدث إليها. سرعان ما هدأت، وفي البداية ضغطت على يدي بقوة، ثم وضعت رأسها على كتفي وبكت لمدة تقارب الساعة.

استيقظ عدد من الفتيات، ومن بينهن "مريم كلزاده غفوري" التي كانت ضحية هذا الأمر، و"أعظم طاقدره". نظرن إلينا وأشرن إلي بإشارة لم أفهم معناها. كان الأمر غريبًا بالنسبة إلي، فإذا كن يعرفنها فلماذا رغم مثل هذا الموقف الحاد، عدن إلى النوم من دون أن يبدين أي رد فعل؟!

لكنني، وقد تأثرت كثيرًا بحالتها، حاولت أن أجعلها تتكلم. وفي النهاية أخبرتني أن اسمها "نادرة"، ومن خلال ما روته لي بقيت قصتها، باعتبارها أحزن قصة لفتاة سجينة، عالقة في ذهني إلى الأبد.

كانت قصة انهيار فتاة في ١٧ من عمرها ووصولها إلى حالة من الجنون، نتيجة الضغوط الناجمة عن مشاهدتها الاعتداءات التي ارتكبوها أمام عينيها

على أختها "طاهرة". واستعادة مشهد قيامهم بربط أختها بالشوفاج داخل العنبر كان يوصلها إلى تلك الحالة، وكانت تبحث بين الفتيات عن أختها ولا تجدها، وفجأة كانت تتخيل أنها تواجه ذلك الجلاد الذي ارتكب تلك الفظائع بحق أختها، وكانت حسب قولها، تحاول أن تمزق حنجرة الجلاد بيديها!

المحاكمة!

في عام ١٩٨٢، ذهبت أخيرًا إلى "المحكمة"، وخضعت لما سمي بمحاكمة، وصدر الحكم بإدانتي. كان قاضي الشرع الملا "محمدي جيلاني"، الجلاد المعروف لخميني.

وكان أحد أفراد الحرس، بهيئة ضخمة كالغول وملامح مرعبة، حاضرًا ظاهريًا بصفته شاهدًا! لكنني أعتقد أنه كان يقف هناك فقط لتخويف المتهم.

كانت تلك المحاكمة التي لم تكن في الواقع أكثر من بضع كلمات وقدر كبير من الشتائم واللكمات والركلات والضرب، هي كل هذه المراسم القانونية! ولم تستغرق أكثر من عشر دقائق.

الفصل الرابع:

صراع بين عالمين

نظرية لاجوردي

كان عام ١٩٨٢، وكلما مضى الوقت كانوا يزيدون الضغط على السجناء الذين بقوا، لكي يحطموهم ويغلقوا، حسب تصورهم، ملف مجاهدي خلق.

كانت نظرية لاجوردي تقوم على أن: السجناء من مجاهدي خلق ما داموا معًا فإنهم سيواصلون المقاومة. وإذا فصلناهم عن بعضهم وألقيناهم في الزنازين الانفرادية، فلن يبقى لدينا بعد عام أي سجين.

كما كان لاجوردي يتحسر لأن النظام لا يملك عددًا من الزنازين الانفرادية يكفي لجميع السجناء. وقد رأوا أن الحل يكمن في جعل ظروف السجن قاسية ومحدودة إلى درجة يحولون معها حتى الغرف والعنابر العامة إلى زنازين انفرادية بالنسبة للسجناء. ولذلك كان أي نوع من التواصل والعلاقة الإنسانية بين السجناء وحتى إلقاء التحية، يعد جريمة. وكانت مساعدة بعضهم بعضًا ممنوعة منعًا قاطعًا، وأي مخالفة لهذه القواعد كانت تقابل بأشد العقوبات وأقسى أنواع التعذيب.

وبهذه النظرية نفسها أنشئ عنبر "القيامة" في قزل حصار، وصنعوا القفص والتابوت. وباختصار، كان لاجوردي يسعى إلى تجريد السجناء من مجاهدي خلق من إنسانيتهن. كما أوجدوا على هذا الأساس تعذيبات وحشية ومستمرة مثل القفص والتابوت وعنبر "الوحدة السكنية".

كانوا يريدون أن يوصلوا السجين إلى نتيجة مفادها أن أي نوع من العمل الجماعي والحياة الجماعية والتواصل مع الآخرين هو مصدر للمصائب والتعذيب والضغط. فإذا أردت أن تمضي فترة سجنك، فعليك أن تكون

وحيدًا تمامًا، وأن تكون كالشاة؛ فإذا ذبحوا صديقك وزميلك أمام عينيك فلا يعنيك الأمر.

ولكن تبين عمليًا أن لاجوردي لم يكن قد عرف مجاهدي خلق كما ينبغي. فقد كنا، ولو بصورة غريزية، قد أدركنا حقيقة مفادها أن بقاءنا الجسدي حتى في تلك الظروف الجهنمية كان مرتبطًا بالحياة الجماعية. وكما أننا بقينا رغم كل تلك الضغوط، فلأننا لم نتخل عن الحياة الجماعية، أي عن إنسانيتنا. لأننا كنا نعلم أن الجلادين، باللجوء إلى التعذيبات الحيوانية وفوق قدرة الإنسان على الاحتمال، قد يستطيعون تحطيم هذا الفرد أو ذاك، لكنهم لا يستطيعون تحطيم الجميع.

كان الجلاد يريد باستمرار أن يوحي للسجين بأنه وحيد، وأن لا أحد يفكر فيه، وأن الجميع قد نسوه، وأن صوته لا يصل إلى أي مكان، وأن رفاقه، من أجل إنقاذ أنفسهم، قد ألقوا على عاتقه حتى الأفعال التي قاموا بها هم أنفسهم. وبالتالي فإن المقاومة لا فائدة منها، وليس لها من نتيجة سوى أن تلقي بنفسك إلى الهلاك.

لكن مجرد أن يشعر الإنسان بأنه ليس وحيدًا، وأن هناك قلوبًا في داخل السجن أو خارجه تنبض مع قلبه ومن أجله، فإنه يجد قوة على المقاومة. ولهذا السبب كان كل شيء لدينا جماعيًا.

كانت هناك أيام لم يكن لدينا فيها سوى تفاح واحدة، لكننا كنا نقسم تلك التفاحة الواحدة ونأكلها معًا بين عشر أو خمس عشرة واحدة.

أو مثلًا كانوا يعطوننا يوميًا قطعة سكر واحدة مع الشاي. لكن الأخوات يحتفظن بقطعة السكر الواحدة، بل و يجمعنها في مكان ما، حتى إذا عادت

إحداهن من تحت التعذيب ولم تعد لديها قدرة جسدية، كن يعطينها ماءً محلى بالسكر.

هنا لم تكن تلك القطعة الصغيرة من التفاح أو ذلك الماء المحلى بالسكر تحل فقط مشكلة جسدية لدى الفرد، بل كانت تحل، من الناحية الروحية والنفسية، مشكلة الفرد والجماعة المحيطة به.

فمجرد أن السجينة المعذبة لم تكن ترى نفسها وحيدة وبلا ملجأ أمام كل هذه القسوة والضغط والتعذيب، كان يجعلها صامدة. لأنها كانت تعلم أنه إذا تعرضت للتعذيب، وإذا مرضت، وإذا مرت سنوات من دون أن يكون لها لقاء، فهناك من يدعمها، ويدافع عنها في مواجهة ضربات العدو، ويرعاها ويضع المرهم على جراحها.

وفي المقابل، كان كل شخص ينهار، لأن الأمر لم يكن فقط بسبب الألم والضغط الناتجين عن شدة التعذيب، بل لأنه كان يقع تحت تأثير الحرب النفسية التي يشنها المحققون، وكان يشعر بأنه منفصل عن الجماعة ووحيدًا.

وكان رد فعل الجلادين والمعذبين تجاه أي رعاية بسيطة أو اهتمام إنساني من سجين تجاه سجين آخر يبدو جنونيًا بالنسبة إليهم، لأنه كان مخالفًا لمنطقهم اللاإنساني. كما كان العدو يرى بأم عينه كيف أن ما كان قد حطمه في الفرد، حسب اعتقاده، بعد ساعات من التعذيب والجلد، كانت المحبة الإنسانية من أخواته تعيد إليه الحياة من جديد وتجعله يزدهر.

النقل إلى سجن "كوهردشت"

كنت أنا وعدد آخر من الأخوات، اللواتي نقلن من إيفين إلى قزل حصار بهدف العقاب، يستدعين كل يوم إلى مدخل العنبر للاستجواب. في إحدى المرات، وفي الساعة العاشرة والنصف ليلًا، جاء مساعد "حاج داوود"، الذي كان جلادًا يدعى "أحمد"، إلى باب العنبر وأعطى اسمي لإحدى الخائنات التي كنا نسميها "غيستابو"، وقال لها أن تطلب مني أن أستعد بسرعة للانتقال وأن أخرج إلى خارج العنبر.

عندما أردت أن آخذ أغراضي، قال أحمد الجلاد: لا تأخذي أي شيء! فالذهاب إلى الجحيم لا يحتاج إلى أغراض! لذلك خرجت من العنبر في البرد من دون أن أحمل معي أي شيء.

أبقوني في مدخل العنبر حتى منتصف الليل، وخلال ذلك كانوا يرمونني باللمز والسخرية، ويقولون مثلًا: لا تخافي، تريدين أن تذهبي إلى الجحيم، وهذا لا يدعو إلى الخوف!... هيا، يقولون إن عليك أن تكتبي وصيتك! وأنت أيضًا ستكتبينها!... بالمناسبة، أيتها المنافقة، ما وصيتك؟ لا بد أنك ستوصين بأن يعطى قطعة السكر الذي عندك إلى إحدى المنافقات، وأن تعطى وجبة غدائك إلى تلك المنافقة التي عذبت، وأن يعطى عشاؤك إلى تلك الأخرى!...

وكانوا يريدون، بقهقهاتهم البشعة والمثيرة للاشمئزاز، أن يستفزوني ويجعلوني أفقد أعصابي. كنت أفكر في داخلي كم أنهم فقدوا كل تلك الروابط والعلاقات الإنسانية التي كانت بيننا، وكنت أشعر بفخر كبير.

في تلك الليلة، بين الساعة الثالثة والخامسة بعد منتصف الليل، جاء أحمد الجلاد وأخذني، ثم أجلسني وحدي في سيارة بيكان، وجلس هو خلف المقود وقاد السيارة. طوال الطريق كان يكرر قائلًا: اكتبي وصيتك! غني أي نشيد تريدين! ادعي على حياة بقية المنافقين كما تشائين! لأنه لن يكون هناك غد! لم يبق لك سوى ساعتين فقط! افعلي ما تريدين!

ظلوا يدورون بي عدة ساعات في الشوارع المختلفة المحيطة بقزل حصار. كانت هناك عدة سيارات، لكنهم كانوا يتظاهرون بأنهم يأخذونني وحدي، ثم بدأوا بضربي وهم يقولون: قولي ماذا فعلت حيث ورغم أنك نقلت حديثًا من إيفين إلى هنا، يريدون إعادتك مرة أخرى إلى هناك؟ قولي اسم شريكتك في النفاق وأنقذي نفسك.

مع بزوغ الصباح وصلنا إلى سجن لم أكن أعرف أين يقع. كان كل شيء فيه حديثًا وجديدًا. عندما كانت عيناي معصوبتين وكنت أتحسس الجدران بيدي لكي أصعد الدرج، أدركت أن المبنى لم يكن قد اكتمل بعد؛ حتى الأرضيات لم تكن منتهية، وكانت قدماي تعلقان أحيانًا في أماكن مليئة بالتراب والحجارة ومخلفات البناء. لاحقًا فهمت أن هذا المكان هو سجن "كوهردشت" الذي كان قد أعد حديثًا.

كان المكان سجنًا بدأ بناؤه في عهد الشاه، وأكملوه في عهد خميني. وقد ملأوا جميع زنزاناته، التي كان عددها يصل إلى ألف زنزانة، بالسجناء. عندما ألقوا بي في الزنزانة، لاحظت أنه لم يكن يأتي أي صوت من أي مكان في أي ساعة من ساعات النهار.

ما كان يثير الرعب في هذا السجن بشكل خاص هو أنني كنت أشعر بأنني وحيدة، وأن جميع حراس العنبر كانوا رجالًا أشبه بالغيلان، ذوي وجوه مهيبة، كانت نظراتهم تقطر حقدًا وخسة ووحشية. لم أكن أشعر بالأمان في أي لحظة، لا أثناء النوم ولا حتى أثناء الجلوس.

طوال فترة الشهرين التي قضيتها في هذا السجن كعقوبة، كنت في حالة تأهب دائم. كنت أمشي بالطريقة نفسها التي دخلت بها من الخارج، أو أجلس في زاوية الغرفة. أحيانًا كنت أشعر بأن شخصًا ما يمشي خلف باب زنزانتي.

كان جميع الحراس هناك يرتدون أحذية رياضية من القماش حتى لا يصدر صوت من خطواتهم، ولكي يتمكنوا من مباغتتنا والقيام بأي عمل دنيء يريدونه. لكنني كنت أتعرف على وقع خطواتهم، وأظل أحدق في نافذة الزنزانة حتى يأتي الحارس خلف الباب وينظر من النافذة الصغيرة، فيرى أنني يقظة وواعية، وإذا كان قد خطرت في رأسه أحيانًا فكرة دنيئة، يتراجع عنها. ومع ذلك، جاء الحارس الخبيث نحوي مرتين أو ثلاث مرات، وكان يبتعد بصراخي واحتجاجي.

بعد مرور عشرين يومًا كنت قد قضيتها هناك من دون أي إمكانية للحصول على الخدمات الصحية، قال لي أحد الحراس ذات يوم: أيتها المنافقة، اذهبي إلى الحمام! فقلت: لا حاجة لي بذلك! لكنه دخل وهو يوجه الشتائم والسباب، وسحب حجابي وألقى بي داخل حمام. ثم قال: ألا تذهبين إلى الحمام حتى تقوموا لاحقًا بالدعاية وتقولوا إننا لم نكن نأخذكم إلى الحمام؟!

التزمت الصمت ووقفت في زاوية الحمام كما أنا، من دون أن أقوم بأي حركة. وبعد نحو عشر دقائق سمعت صوت خطوات، فشعرت بالخوف. كان رجلًا عملاق البنية، كثيف اللحية والشارب، وعيناه جاحظتان بشكل مخيف. فتح نافذة الحمام الصغيرة وهو يطلق قهقهات، ونظر إلي، ثم قال بنبرة مليئة بالكراهية: أيتها المنافقة، هل تخافين مني؟ لماذا؟ يجب أن تخافي من ذلك القائد الذي تتبعونه! ثم فتح الباب، واقترب مني، وأمسك بفمي واقتادني إلى داخل إحدى غرف الاستحمام. هناك، ورغم محاولاتي ومقاومتي، كان ملقى فوقي ويفعل كل ما يريده. وبعد عدة دقائق، بينما كنت أضرب وجهه بقبضتي وأصرخ، وجه إلي ضربتين قويتين بقبضته على رأسي، ثم خرج من المكان.

وبعد نصف ساعة، جاء شخص آخر وقال: ألا تريدين أن تذهبي إلى الحمام؟ إلى الجحيم! هيا، اغربي عن وجهي! ابقي في الزنزانة حتى تتعفني!

كان واضحًا أنهم متفقون مع بعضهم البعض. كانوا يأتون، يهاجمون، ويرتكبون هذه الأفعال الدنيئة، ثم لا يأتون لفترة من الزمن. تكرر هذا الأمر ثلاث مرات خلال الشهرين اللذين قضيتهما في سجن "كوهردشت" بصفتي سجينة خضعت للعقوبة.

وذات يوم، بينما كانت عيناي معصوبتين ولم أكن أرى شيئًا، جاء شخص لا أعرف من هو إلى زنزانتي من أجل الاستجواب، وقال: هل ما زلت تريدين أن تكوني منافقة أم أنك نادمة؟ إذا لم تكوني نادمة، فسأجعلك تندمين.

بعد أربعة أو خمسة أيام، في إحدى الليالي، رأيت شخصًا يغني بصوت عذب جدًا، ويقرأ القرآن، ويتحدث مع نفسه، ويوجه كلامه إلى أشرف وموسى

وغيرهما من الشهداء. كانت تبكي وتضحك وتدعو وتناجي اللّٰه... كنت متأثرة جدًا بها، وكنت أسأل نفسي مرارًا: من تكون هذه؟ كانت تغني وتتحدث بصوت مرتفع جدًا ولا تخاف.

ذات مرة سألتها: ما اسمك؟ فقالت: "مهري". قلت لها: لماذا أحضروك إلى هنا؟ قالت: يقولون عني إنني مجنونة! لكنهم هم الذين جعلوني مجنونة. كانوا يغتصبونني كل يوم. يعذبون أختي و...

وبينما كانت مهري تتحدث، فجأة جاء صوت خطوات ذلك الجلاد نفسه، فأخذوا "مهري" من ذلك المكان، ولم أعد أسمع صوتها بعد ذلك، ولم أعرف من كانت أو ماذا حل بها.

في فترة نقلي إلى كوهردشت، لم يكونوا قد بدأوا بعد بنقل السجناء إلى هناك بشكل منتظم. في تلك الأيام، عندما كنت أنظر إلى الخارج من بين القضبان المعدنية لزنزانتي، كنت أرى السجناء الرجال ينقلون إلى العنابر المقابلة. وبعد شهر، سمعت أيضًا أصوات السجينات النساء، ومنذ ذلك الوقت بدأت نساء من عناصر الحرس بالظهور في العنابر.

لكن بعد عدة أيام نقلت مرة أخرى إلى سجن قزل حصار، ولم أر بعد ذلك أبدًا تلك الأخوات اللواتي كن في الزنازين الانفرادية في كوهردشت.

النقل إلى عنبر القفص

في فبراير ١٩٨٤ كنت في العنبر السابع من سجن قزل حصار. وكانت زنازين العنبر السابع مخصصة في الأصل لسجين أو سجينين، لكن كان يوجد في كل زنزانة ما بين اثنتي عشرة وأربع عشرة سجينة، وأحيانًا أكثر. وكان طول هذه الزنازين يزيد بضعة سنتيمترات فقط على طول سرير، أما عرضها فكان يزيد بنحو ٧٠ سنتيمترًا على عرض السرير ذي الطبقات الثلاث الموجود داخل الزنزانة. وكانت السجينات الثلاث عشرة أو الأربع عشرة الموجودات في كل زنزانة بالكاد يستطعن الجلوس في ذلك الحيز الضيق.

وكانوا يعاقبوننا كل يوم بذريعة ما، فيغلقون باب الزنزانة. وكان النوم في تلك الزنازين معضلة حقيقية، وكنا كل ليلة نضطر إلى حل معادلة متعددة المجاهيل لنتمكن من النوم. ولحل هذه المشكلة كانت تنام عدة أشخاص في كل طبقة وعلى عرض السرير، بحيث يكون نصف أجسادنا على السرير بينما يبقى النصف الآخر معلقا في الهواء. وكانت الأطول قامة أكثر راحة نسبيًا، أما الأقصر فكانت بالكاد تستطيع أن تسند قدميها إلى الجدار المقابل حتى لا يبقى جسدها معلقا وتتمكن من النوم.

وكان بعض الأخوات ينمن تحت السرير، ولكن بعكس اتجاه من ينمن فوقه؛ أي كن يضعن رؤوسهن خارج السرير، تحت أقدام من ينمن في الطبقة العليا، بينما تكون سيقانهن وأسفل أجسادهن تحت السرير. وكانت واحدة أو اثنتان تنامان بجوار الباب. أما إذا كان باب الزنزانة مفتوحًا، فكان الوضع يختلف، لأن الأخوات كن ينمن في الممر كله، وكانت الظروف أفضل قليلًا.

وفي الممر أيضًا كنا ننام متلاصقات كعلب السردين، وغالبًا على جنبنا. وكانت السجانات والخائنات يسرن ليلًا فوق رؤوسنا في ذلك المكان الضيق، ويراقبن ألا نتحدث مع بعضنا. فإذا رفعت إحداهن تقريرًا بأن سجينتين تبادلتا الحديث، كانو يأخذونهما إلى الاستجواب ويعرضونهما للتعذيب والضغط حتى يعرفون عما كانتا تتحدثان.

وفي قزل حصار أيضًا كانت مياه الحمام تسخن مرة واحدة في الأسبوع لمدة عشرين دقيقة فقط. وكان يوم الحمام يعد حدثًا في العنبر، وخلال الساعتين أو الثلاث التي تذهب فيها الأخوات إلى الحمام، وقبل ذلك وبعده، كانت الحركة والنشاط يعمان المكان. وكان المسؤول يعلن الدور ويرسل الأخوات إلى الحمام بحسب دورهن. وما إن يحين دور إحداهن حتى تركض نحو المرشات، لأن عشرين دقيقة من الماء الساخن كانت مخصصة لما يقارب مئتي سجينة.

وفي الوقت نفسه كانت بعض الأخوات المكلفات بإعداد الشاي من ماء الحمام الساخن يحملن صفائح الجبن المعدنية الفارغة، ويسعين إلى إعداد الشاي وتركه حتى يختمر، لتتمكن الأخوات بعد الاستحمام من شرب كوب من الشاي الخالي من الكافور. وكانت لكل زنزانة مسؤولة عن الشاي، تحمل علبة الجبن التي كانت قد غسلتها وهيأتها، وما إن يعلن عن سخونة الماء حتى تركض نحو الحمام لتملأها بالماء الساخن وتعد الشاي للأخوات في زنزانتها. وإذا ضاعت هذه الفرصة التي لا تتجاوز عشرين دقيقة، فلا شاي بعد ذلك.

وكانت الأخوات ورغم ظروف القمع والاختناق المطلق، يشربن شاي الحمام بسرور بالغ، وهن مفعمات بالفرح والابتسام والمعنويات العالية. أما شاي السجن الرسمي فكان يحتوي على كمية كبيرة من الكافور حتى إن الكافور كان يترسب في أسفل كل كوب، ولم يعد له طعم الشاي، بينما كان الشاي الذي نعده نحن بماء الحمام يحتفظ بمذاقه الطبيعي.

وكانت السجانات ينزعجن كثيرًا من هذا الجو المفعم بالحيوية بين الأخوات، وكن يحاولن إفساده بالشتائم والصراخ والاعتداء، وأحيانًا بأخذ بعض الأخوات وضربهن.

وفي أحد أيام فبراير ١٩٨٤، عندما سخنت مياه الحمام، بدأنا -كما جرت العادة- في إعداد الشاي. ملأنا الصفائح المعدنية بالماء الساخن ولففناها داخل البطانيات. وفي زنزانتنا كنت مع عدد من الأخوات جالسات على الطبقة الثالثة من السرير، وفجأة دوى صوت "غيستابو" وهي تصرخ قائلة: ليس من حقكن أن تعدين الشاي!

وكان واضحًا أنها تبحث عن ذريعة، لأنها لم تكن تعترض على شاي الحمام قبل ذلك. ولم تعرها الأخوات أي اهتمام، وواصلن عملهن؛ ملأن الصفائح بالماء ووضعن فيها الشاي ولففنها بالبطانيات، وكنا ننتظر حتى يختمر الشاي، فإذا بـ"غيستابو" تنزل إلى مدخل العنبر وهي في حالة من الهيجان.

بعد مضي عشرين دقيقة، فتح باب العنبر، ونادوا أسماء خمس وعشرين منا، كنت أنا و"هنكامة حاج حسن" من بينهن، للاستجواب. وكان ذلك مع أن سجن قزل حصار كان مخصصًا لقضاء مدة الحكم. استعددنا جميعًا وخرجنا من العنبر. وأبقونا نحو ساعة في مدخل العنبر.

وأنا واقفة هناك، كنت أفكر: ماذا دبروا لنا هذه المرة؟ إلى أين يريدون أن يأخذونا؟ إلى إيفين؟ إلى العنبر ٢٠٩؟ إلى ٣١١؟ إلى كوهردشت؟ أم إلى مكان آخر؟ وكان خوفي أن يحققوا معنا بشأن النشاطات داخل العنبر، لأننا لم نكن قد اتفقنا مع الأخوات على أي رواية موحدة، إذا سألونا، حتى لا تقع الأخوات الأخريات تحت الضغط.

وكانت تتردد في ذهني تلك العبارة المكتوبة على الجدار: "ألم التعذيب زائل، أما عار الخيانة فباق." وكنت أقول: يا إلهي، أعني حتى أبقى شريفة. فقد كنا قد سمعنا عن أساليب التعذيب الجديدة في "الوحدة السكنية"، وعن طرق الاستجواب الجديدة المتعلقة بتنظيمات العنبر، ورأينا أيضًا بعض نتائجها بأعيننا. وكنت أحدث الله باستمرار وأقول: يا إلهي، إذا كان مقدرًا أن أضعف وأقع في الخيانة، فافعل شيئًا يجعلني أموت قبل ذلك. لا أريد أن أسقط في مستنقع الخيانة من أجل أن أبقى على قيد الحياة.

نقلوا خمس عشرة منا إلى العنبر الثامن، وكان هو الآخر عنبر "المجرد" ولكن في ظروف أشد تقييدًا. أما أنا وأربع أخريات، فقد أخذونا إلى مكان لم نكن نعرفه.

وكان "حاج داوود"، كبير جلادي قزل حصار، يقول لنا: "سآخذكم إلى مكان كالجحيم. اليوم هو يوم القيامة، وكل واحدة منكن ستحاسب هناك على أعمالها. ستبقين في ذلك المكان حتى تمتن أو تعدن إلى رشدكن، وتخترن الحياة، وتعلن ندمكن على ما فعلتن. أي تقلن: كنت امرأة فاسدة، أبحث عن بيت للدعارة، ووجدت ما كنت أبحث عنه في منظمة المنافقين، فانضممت إليها."

ثم تابع "حاج داوود" وهو يطلق ضحكاته الوحشية وبملامحه المرعبة واللاإنسانية التي كانت أشبه بملامح غوريلا: "سأبقيكن هناك حتى يصبح شعر رؤوسكن أبيض مثل أسنانكن، وتصير أسنانكن سوداء مثل شعوركن."

ثم أشار إلى جدران عنابر قزل حصار، التي كانوا قد بنوها وطلوها بعد إجبار السجناء على العمل بالسخرة، وقال:

"انظروا إلى هذه الجدران، إنها تتجدد كل يوم بعملكم، أما الذي يضيع فهو أعماركم وشبابكم، ولن يعود أبدًا. أين 'مسعود'كم العزيز؟ أين شعبكم البطل؟ لماذا لا يأتون لينقذوكم من هنا؟ طبعًا لن نسمح لكم حتى بأن تطلقون صرخة واحدة، ولكن حتى لو تحول كيانكم كله إلى صراخ، فلن يسمع أحد صوتكم هنا، ولن يأتي أحد لنجدتكم. هذا هو آخر الدنيا. ومن هنا لن تخرجون إلا إلى المقبرة، أو بعد أن تصبحون بشرًا. هذا هو مصيركم المشؤوم."

ومن خلال هذه الخطبة الافتتاحية، أدركنا أنهم جاؤوا بنا إلى ذلك المكان ليحطمونا، بحسب ظنهم. إلى المكان الذي علمنا لاحقًا أنه الوحدة رقم ١ في سجن قزل حصار، والذي عرف فيما بعد باسم "عنبر القفص".

سبعة أشهر ونصف معصوبة العينين في القفص

بقينا واقفات في مدخل العنبر نحو أربع ساعات. مرت علي أربع ساعات وكأنها أربعين ساعة. وكنت أستعرض بسرعة كل شيء في ذهني؛ مررت على جميع الأخوات، وعلى كل الصلات التي كانت تربطني بهن، وكنت أفكر في الأسئلة التي توقعت أن يطرحنها علي، وأهيئ لنفسي الإجابات المناسبة.

ثم بدأت أتذكر المواجهات التي حصلت بيني وبين الخائنات العميلات في الأيام الأخيرة. وتذكرت أنني قبل بضعة أيام تشاجرت مع "شرارة" بسبب شعار المنظمة. فقد كانت إحدى الأخوات قد رسمت شعار المنظمة، فرأته "شرارة" وقالت عنه كلامًا سخيفًا، فلم أتمالك نفسي، وقفزت من السرير السفلي، وأمسكت بها من الأمام وقلت لها: انظري! مهما كنت، فلتذهبي إلى الجحيم أيتها المنشقة! أما شعار المنظمة فلا مجال لمثل هذه المزحات معه. وكنت أعلم أنها قد رفعت تقريرًا بذلك.

وكنت غارقة في أفكاري إلى درجة أنني لم أنتبه إلا عندما ناد أحد الحراس اسم "هنكامه"، وكانت في مقدمة الصف، فسحبها وأخذها معه. عندها فقط تذكرت أين أنا، وإلى أين أنا ذاهبة.

ومن هناك أخذونا، وأركبونا حافلة صغيرة، ونقلونا إلى الوحدة رقم ١. وعندما واجهت الواقع بعيني، تلاشى ذلك الخوف والقلق. أخذوا كل واحدة منا إلى قفص، وأجلسوها في زاويته وهي معصوبة العينين.

وكانت العنابر تتكون من ثلاثة أقسام. وفي كل قسم، وبحسب ما تمكنت من عده وأنا معصوبة العينين أثناء الذهاب إلى المرحاض، كانت تجلس ما بين ثمان وأربعين إلى خمس و خمسين سجينة.

وكان "حاج داوود" يبدأ جولته من أول الباب، ويمر على الجميع واحدة واحدة، وبحسب الشكاوى أو الوشايات التي كانت يرفعها أتباع الجلادين، كان يستقبل كل سجينة -على حد تعبيره- بالكابلات واللكمات والركلات، وهو يكرر باستمرار:

"إنه يوم القيامة. إما أن تصبحن بشرًا، وإما أن تذهبن إلى الجحيم."

ولأشرح قليلًا ما كانت عليه "الوحدة رقم ١"، أو ما عرف لاحقًا باسم "عنبر القفص".

فهذا العنبر لم يكن يضم غرفًا أو زنازين بالمعنى المعتاد، وإنما كان عبارة عن ممرات واسعة وقاعة كبيرة، تراصت فيها مئات طاولات تنس الطاولة فوق بعضها حتى السقف.

وقبل عام، عندما نقلنا من إيفين إلى قزل حصار، أدخلونا في البداية إلى قاعة كانت طاولات تنس الطاولة مكدسة فيها حتى السقف. وكنا نضحك نحن الأخوات، ونقول مازحات: يا للعجب! يبدو أنهم يريدون أن ينشئوا لنا قاعة لتنس الطاولة حتى نلعب فيه! في ذلك الوقت لم نكن نعرف الغرض من تلك الطاولات. لكن بعد أن دخلت عنبر القفص، أدركت لأي هدف شيطاني كان "لاجوردي" قد أحضرها. فقد جعل منها بديلًا عن الزنازين الانفرادية التي كانت تشكل أساس نظريته لتحطيم سجناء مجاهدي خلق.

ففي الممرات الواسعة للوحدة رقم ١، كانوا يثبتون طاولات تنس الطاولة بشكل عمودي، بحيث لا تزيد المسافة الفاصلة بين الواحدة والأخرى على ٧٠ سنتيمترًا. ثم كانوا يوصلون قواعدها بقضيب حديدي ملحوم، ويفرشون في ذلك الفراغ بطانية عسكرية قذرة، مليئة بالقمل، تفوح منها رائحة العفن، وكانت أليافها الخشنة تنغرز في أرجل الإنسان كأنها أسلاك. وفي المساحة التي كانت تتشكل بين كل طاولتين، كانوا يجلسون سجينة واحدة، معصوبة العينين، ليلًا ونهارًا، من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح. وكانوا يرتبون هذه الأقفاص بحيث تكون متباعدة عن بعضها إلى أقصى حد ممكن، حتى لا تستطيع السجينات في قفصين متجاورين التحدث مع بعضهن.

كما كانت تتجول هناك على مدار الساعة عدد من العميلات، صعودًا ونزولًا بين الأقفاص، لمراقبة السجينات والتأكد من أنهن لا يتبادلن الحديث.

كانت هذه الأقفاص ضيقة وصغيرة إلى درجة أن شخصًا قصير القامة، حتى لو كان وزنها ٥٠ كيلوغرامًا فقط، لم تكن تستطيع أن تجلس فيها متربعة، لأن قدميها كانتا تصطدمان بتلك الألواح، فيسقط اللوح على رأس السجينة المجاورة. وذات مرة أردت أن أختبر مساحة القفص، فاتخذت شيئًا فشيئًا وضعية الجلوس متربعة، ثم بدأت أنزل قدمي ببطء لأرى مقدار المساحة المتاحة، فإذا بي ألاحظ أن اللوح بدأ يسقط. فأوقفت حركة قدمي بسرعة. فقالت العميلة التي كانت تقف فوق رأسي: أيتها المنافقة، انتبهي! الآن سيحطم رأس صديقتك الحميمة. إن كنت تريدين التخلص منها لتتسع لك المساحة، فقولي ذلك!

أقصد إن المكان كان ضيقًا إلى درجة أنني، رغم صغر بنيتي، لم أكن أتسع فيه. ولهذا كانت السجينة تضطر دائمًا إلى احتضان ركبتيها وإسناد رأسها إليهما.

وفي أول مرة أرادوا أن يأخذونا للوضوء والصلاة، كان "حاج داوود" حاضرًا أيضًا. ومع أنني كنت أعلم أن علينا أن نبقى معصوبات الأعين وجالسات، وأنه لا يسمح لنا بفعل أي شيء، فإنني، رغبة مني في جس نبض الأوضاع، سألته: هل يمكن أن تعطوني مصحفًا أو نهج البلاغة؟ فانفجر "حاج داوود" بضحكاته القبيحة وقال: مصحف ونهج البلاغة؟! ها؟... تعالي... ثم هوى على رأسي بلكمة كانت كالمطرقة. وبعدها قال: "حسنًا، ماذا تريدين أيضًا؟ أيتها المنافقة المسكينة! اذهبي واجلسي وفكري في شقائك، وكأنك لا تعلمين إلى أين جئت! ها؟...

وضعت في نفسي ضحكة ساخرة وقلت: الأحمق هو أنت! أنا أعرف جيدًا أين جئت. وإنما أردت أن أستفزك بهذا السؤال.

وفي الأيام الأولى لم أكن أعلم كم سأبقى هناك، ولا ماذا ينبغي أن أفعل، ولا أي برنامج ينبغي أن أضعه لنفسي. كان ذلك المكان عالمًا جديدًا تمامًا، ولم تكن قوانينه واضحة بالنسبة إلي، فلم أكن أعرف كيف يجب أن أقضي الليل والنهار فيه. وكنت لا أزال متأثرة بصدمة الانتقال، ولم يكن ألم الوحدة، والفراغ الناتج عن غياب الأخوات، وافتقاد تلك العلاقات الجماعية التي كانت تجمعنا، قد استقر في داخلي بعد. وكنت ما أزال أحتفظ بحساب أيام الأسبوع، وأنتبه إلى ساعات الليل والنهار.

فمنذ الصباح كنت أبدأ بتطبيق البرامج نفسها التي كنا نقوم بها في العنبر مع الأخوات، وأتحدث إليهن في خيالي، أو أستعيد الأيام التي قضيناها معًا، فأشعر بالسرور والبهجة وأنا أعيش على ذكراهن، ولم أكن أفكر كثيرًا فيما ينبغي فعله.

لكن بعد خمسة أو ستة أيام، بدأ الصمت يضغط علي، ولم أعد أستطيع أن أواصل العيش على استرجاع الذكريات وحدها. ولا سيما أنني بدأت أصل تدريجيًا إلى قناعة بأن هذا الوضع لن يستمر أيامًا أو أسابيع فحسب، وأن تهديدات "حاج داوود" كانت جادة؛ فإما أن ننكسر هناك ونستسلم، وإما أن يستمر هذا الوضع أشهرًا، وربما سنوات. ولذلك بدأت أفكر في ما ينبغي أن أفعله، وكيف يمكنني أن أملأ هذه الأيام والساعات التي لا نهاية لها.

عندما يكون الإنسان وحدها، وعيناه معصوبتين، وكل شيء من حوله ساكنًا، يتحول إلى صياد للأصوات. يلتقط كل صوت صغير، وكل كلمة، وحتى صوت الأنفاس، ثم يحللها ويستنتج منها. يفهم أن "حاج داوود" دخل الآن. وأن شخصًا آخر برفقته، وهو مساعده "أحمد". إنه الآن يتحدث مع تلك الخائنة الفلانية القذرة، وهي تقدم تقريرًا لـ"حاج داوود". بعد دقائق قليلة سيأتي صوت ارتطام رأس إحدى الأخوات بالجدار، تُرى ألا أكون أنا تلك الشخصة؟ أم أنني الآن سمعت صوت صحن الطعام؟ إنه وقت الغداء، ذلك الحارس السمين هو الذي يحضر الطعام، أعرفه من صوت خطواته التي يجرها على الأرض، و...

وأعتقد أن أولئك الخائنات اللواتي كن يراقبننا كن يعرفن ذلك أيضًا، ولعلهن كن قد تلقين تعليمات بأن يتهامسن فيما بينهن، ليجعلن السجينة فضولية

وحساسة لمعرفة ما الذي يقلنه. وأحيانًا كن يحاولن بهذه الطريقة أن يلقنوا الإنسان أشياء كانت من نسج أكاذيبهن. فمثلًا كن يتحدثن همسًا، بحيث لا أستطيع سماعهن إلا بصعوبة، ويقلن: إن هذا أعظم قد جعل نفسه ضحية لذلك المسكينة "منصورة"، في حين أنها قالت كل شيء، والآن هي تتجول مرتاحة لنفسها و...

إن الجلوس ساعات طويلة متربعة، والتفكير في الصمت وعينان معصوبتان، يحمل خطرًا يتمثل في أن يغرق الإنسان في ذاته، وأن يضيع في أوهامه وخيالاته. وعندها قد يصاب بالانهيار النفسي. لقد كانوا قد صنعوا هذه الأقفاص تحديدًا لهذا الهدف.

كنت أخاف من الانهيار النفسي كما أخاف من الموت. لكنني وصلت إلى نتيجة مفادها أنني لا يجب أن أسمح بأن تتحقق مخططات خميني وجلاده لاجوردي وشريكه "حاج داوود رحماني" لا! لا! أبدًا!

إذن كان علي أن أعد نفسي لفترة طويلة. أن أكون مستعدة، وألا أسمح للخمول بأن يسيطر علي. لذلك وضعت لنفسي برنامجًا. بعد الاستيقاظ وصلاة الصبح، كنت أؤدي مراسم الصباح: "باسم الله وباسم الشعب الإيراني البطل" و...

كنت أقرأ نص المراسم، وفي ذهني كنت أقف منتبهة أمام راية المنظمة وعلم إيران، وأردد الأناشيد. كل يوم كنت أختار ثلاثة أناشيد وأرددها، ثم أقول: تحية لشهداء طريق الحرية! تحية لمنظمة مجاهدي خلق الإيرانية الفخورة...! كما أضفت بنفسي جملًا إلى نص الصباح: تحية للأسرى المقاومين الذين فضلوا ألم التعذيب على عار الخيانة! تحية! تحية! تحية!

بعد نص الصباح كنت أغني. كل يوم كنت أغني ثلاث أغنيات كنت أحفظها، حتى لا أنساها وحتى لا أنغلق على نفسي. بعض المقاطع التي كنت قد نسيتها، كنت أكررها كثيرًا بمساعدة اللحن والموسيقى التي كانت ما تزال في ذهني، حتى أتذكرها.

كنت أفرح عندما تعود إلي مقاطع وجمل لم أكن أظن أبدًا أنني سأتمكن من تذكرها، وكأنني عثرت على شيء ثمين، وكنت أستعيد ثقتي بنفسي.

وضعت لنفسي برنامجًا يحدد في أي ساعة ماذا أقرأ، بل وحتى في ماذا أفكر. كنت أرى أنني أتعلم من جديد كيف أستخدم عقلي، وكيف أستخرج الأشياء التي كانت موجودة في ذهني وقد نسيتها، وأعيد إحياءها.

تذكرت أنني خلال فترة النشاطات السياسية قبل ٢٠ يونيو ١٩٨١ كان لدي كتاب أناشيد بعنوان "الجبل" ("كوهستان" بالفارسية)، وكنت أحفظ معظم أشعاره وأناشيده، لكن لأنني لم أقرأها منذ سنوات، فقد نسيتها.

قررت، لكي أجعل ذهني نشطًا، أن أستعيد تلك الأشعار نفسها التي لم أكن أتصور أبدًا أنها ما زالت موجودة في ذاكرتي. كان ذهني قد بدأ بالنشاط. كانت أشياء كثيرة تعود إلى ذاكرتي. كنت أجمع الأبيات والمقاطع التي أتذكرها، مثل قطع الأحجية، إلى جانب بعضها بعضًا، حتى تكتمل تدريجيًا أو تصبح شبه مكتملة. أما الأجزاء التي لم أستطع تذكرها، فكنت أفكر فيها بنفسي وأضع لها ما يقابلها. كنت أستمتع كثيرًا بهذا العمل، وكنت أشعر بأنني في حالة نشاط وحيوية، وأنني أنسى الظروف التي كنت أعيشها.

بعد ذلك كنت أفكر في الكتب التي كنت قد قرأتها، والتي في ذلك الوقت لم أكن أفهم الكثير منها أو لم يبق منها شيء في ذاكرتي. كنت أجلس مع

نفسي وأقول مثلًا: يجب أن أتذكر أن هذا الموضوع ورد في كتاب "التاريخ"، أو أن أتذكر في أي كتاب قرأت هذا الموضوع، أو ما هي الموضوعات الأخرى التي كان هذا الموضوع مرتبطًا بها؟

كان مجرد التفكير بهذه الطريقة يقودني إلى الانضباط في التفكير والسيطرة على ذهني، وينقذني من الملل والانغماس في الذات. والأهم من ذلك أنني كنت أكتشف أن في ذهني أشياء كثيرة، لكنها أصبحت غامضة ومبعثرة. كنت أتعلم تدريجيًا كيف أعثر عليها، وكيف أنظمها، وكيف أزيل عنها غبار النسيان، وأعيد كل شيء إلى مكانه الصحيح. كان هذا الأمر يشبه اكتشاف أرض جديدة مليئة بالمتعة.

وضعت في برنامجي أيضًا نصف ساعة لقراءة أجزاء من القرآن ونهج البلاغة التي كنت قد حفظتها. في السجن كانوا لا يعطوننا للقراءة إلا القرآن ونهج البلاغة والكتب الدينية، وكانوا يقدمون لنا كتبًا فارغة المضمون مثل كتب "دستغيب" و"بهشتي" و"مطهري" وما شابه ذلك. أما أنا فكنت أقرأ فقط القرآن ونهج البلاغة وأحفظهما، ولم تكن لدي رغبة إطلاقًا في النظر إلى تلك الكتب الأخرى. وكم كنت سعيدة حينها لأنني كنت قد فعلت ذلك.

وفي العنبر، كنا أنا والأخوات قد وضعنا برنامجًا لحفظ سور وآيات من القرآن وخطب من نهج البلاغة. كنا قد حفظنا الجزء الثلاثين كاملًا، وقسمًا من الجزء التاسع والعشرين، وعددًا من الخطب. وفي ذلك الوقت كان هدفنا أيضًا أن احتمال أن ينقلونا إلى الزنزانة الانفرادية كان قائمًا، وكان علينا أن نمتلك شيئًا نفكر فيه. والآن أصبح كل ما كنت قد حفظته في تلك الأيام رصيدًا لي، وكنت أراجعه وأفكر فيه. كنت أقرأ هذه الأشياء يوميًا لكي تبقى

حاضرة ومتجددة في ذهني، وكانت أيضًا نوعًا من التمرين والرياضة العقلية. ثم كنت أختار آية واحدة وأفكر فيها.

وفي العنابر السابقة كان أحد ممتلكاتنا أيضًا كتاب "شعاع من القرآن" ("پرتوى از قرآن" بالفارسية) -تفسير القرآن لـ"الأب طالقاني"- وقد كنا نخفيه سرًا عند أمهات السجينات، وكنا نقرأه بالتناوب.

والآن، حيث كنت أقضي أيامي في عنبر القفص في ظروف أسوأ بكثير من السابق، كانت تعاليمي من هذا الكتاب أيضًا جزءًا من ممتلكاتي. حتى إن جملة واحدة منه بقيت في ذاكرتي كانت تصبح أحيانًا موضوع تفكيري وتأملي لفترات طويلة.

من جملة الأشياء التي استطعت، بجهد وضغط، أن أستخرجها من ذهني، كانت الأدعية التي كنت قد قرأتها ذات مرة مع الشهيدة "أشرف أحمدي". كانت أدعية من "الصحيفة السجادية"، أخذت أستعيدها تدريجيًا، حتى أصبح مجموعها كبيرًا إلى درجة أنني عندما كنت أقرأها من أولها إلى آخرها كان ذلك يستغرق ساعة ونصف الساعة. كنت أحب بشكل خاص "زيارة عاشوراء" و"زيارة الوارث"، لأنهما كانتا تحددان في كل جملة منهما حدود الموقف والمواجهة، وكنت أستمد منهما الإلهام والدافع حول كيفية الثبات والمقاومة.

عندما كنت أقرأهما كنت أشعر بأنني مثل جبل صلب ثابت. أحيانًا كانت تعود إلى ذاكرتي لحظات خوفي في بداية اعتقالي، وكنت أرى كم كبرت، وكيف تغير عالمي، وكيف أصبحت ساحة النضال أمامي أكثر اتساعًا ووضوحًا. كأنني خلال هذه الفترة، وبقدر ما يعادل عشرات السنين من

الدراسة وقراءة الكتب، كنت قد تعرفت على خميني وأيديولوجيته الرجعية والمتخلفة، وأصبح كرهي له أكبر من ذي قبل بقدر عالم كامل، ولم يعد هناك شيء يستطيع أن يبعدني عن النضال ومواجهته.

كلما كنت أفكر أكثر، كنت أفهم أشياء جديدة لم أكن أفهمها سابقًا ولم أكن قادرة على فهمها. وخصوصًا كنت ألمس بوضوح معنى هذا القول بأن القرآن وآياته لا يمكن فهمها إلا من خلال العمل وفي ميدان النضال.

فعندما كنت أقرأ مثلًا هذه الآية من القرآن: "فإن مع العسر يسرًا"، كنت في البداية أفهم منها أن بعد الصعوبة يأتي الفرج. وبعبارة بسيطة: أي أن هذا الأمر أيضًا سيمضي! أو كما يقول المثل المعروف: "إن نهاية الليل الأسود هي الصباح". لكن عندما كنت أتأمل في هذه الآية، أدركت فجأة أنها لا تقول: "إن بعد العسر يسرًا"، بل تقول: "فإن مع العسر يسرًا"، ثم تكررها مرة أخرى: "إن مع العسر يسرًا". أي أن مع الصعوبة نفسها، وفي داخل الصعوبة ذاتها، يوجد اليسر والفرج!

أي أن المكان الذي تظن فيه أن الأمر أصبح بالغ الصعوبة وأنك وصلت إلى أقصى حدود الاحتمال، إذا صبرت، وإذا لم تخف ولم تستسلم، وإذا حاولت الخروج من تلك الصعوبة، فإنك بلا شك ستصل إلى "اليسر"، إلى الانفراج. لكن شرط ذلك فقط هو ألا تغفل، وأن تكون مستعدًا لقبول كل صعوبة. أي ألا تصاب بالهلع والحزن واليأس بسبب صعوبات الطريق، وألا تفقد روحيتك، وألا "تتذمر" كما يقال!

تذكرت "معصومة" بخير، التي علمتني: "المجاهد لا يتذمر!". لقد كنت قد اختبرت هذا الأمر إلى حد ما في الزنزانة، وفي الاستجواب، وتحت التعذيب.

ثم تذكرت أننا كنا نعيش التجربة نفسها حتى داخل العنبر، الذي كان يسمى عنبر العقوبة.

لقد ألقانا الجلادون في ذلك العنبر، وكانوا يزيدون الضغط علينا كل يوم، لكي يكسرونا بأي طريقة ويقودونا -حسب تصورهم- إلى الانهيار والاستسلام. لكننا كنا نستمد القوة والامتلاء من مقاومتنا للعدو، وكنا قد وصلنا من "العسر" إلى "اليسر!"

والآن كنت أعلم أيضًا أنني في هذا القفص نفسه، وفي هذه الظروف التي صنعوها من أجل تحطيمنا وسحقنا، إذا قاومت وإذا أفشلت محاولات الجلادين، وإذا بقيت صابرة وثابتة أمام الاختبارات التي وقعت فيها في مسار النضال، فسأصل إلى "اليسر".

وهكذا حاولت أن أتعرف على قوانين هذا العالم الجديد وأكتشفها.

قانون الصمت المطلق

كان قانون الصمت المطلق هو السائد في القفص. ولم يكن يسمح لنا بالكلام إطلاقًا. وإذا كان لدى إحدانا أي أمر، أو أرادت شيئًا، كان عليها أن ترفع يدها، وتبقيها مرفوعة حتى تراها إحدى السجانات أو إحدى الخائنات، فتأتي إليها بنفسها. كان تقترب وتدني فمها القذر إلى أذن السجينة، وتقول: تكلمي بهدوء! فإذا ارتفع صوتنا قليلًا، كن ينهلن علينا باللكمات والركلات، ثم يرفعن تقريرًا يقلن فيه: هذه المنافقة تريد بهذه الطريقة أن تخبر زميلتها المجاورة بأنها هنا. وعندئذ كان يظهر "حاج داوود" ومساعده العميل "أحمد"، فتُنهال على السجينة ضربات وحشية من اللكمات والركلات

والسياط. وكان أبشع ما يفعلونه أن يضربوا رأس السجينة ووجهها بالحائط، وكانوا يقولون، على حد تعبيرهم، إنهم "يعيدونها إلى رشدها"، حتى لا يخطر ببالها بعد ذلك أن تطلب شيئًا!

وقبل توزيع الطعام كانوا يوجهون إلينا ضربة على الرأس. وكان معنى ذلك: الطعام!... كلي! لكنهم في معظم الأحيان لم يكونوا يعطونني الطعام، بل يتجاوزونني، ولم أكن أعرف أن الطعام يوزع إلا من خلال حركة الذهاب والإياب، وأصوات الأواني. وبعد أن ينتهوا من التوزيع، كانوا يقولون: من لم تحصل على الطعام؟ لترفع يدها. لكنني لم أكن أرفع يدي، ولذلك كانوا في كثير من الأيام لا يعطونني الطعام، ويقولون: أيتها المنافقة، ستحتاجين إلينا في النهاية يومًا ما! كانوا يريدون أن يركعوني عن طريق الطعام، لكنني لم أفعل ذلك.

وطوال الأشهر التسعة التي قضيتها هناك، منها سبعة أشهر ونصف في القفص، ونحو شهرين في الحجر، ظلوا يعاملونني بهذه الطريقة في سبيل إرغامي على الركوع.

وبسبب الجوع والحرمان من الطعام، كنت في الأيام الأخيرة قد أصبحت ضعيفة إلى درجة أنهم عندما كانوا يأتون ليأخذونني إلى الصلاة، ويمسكون بشادوري (العباءة) لكي أنهض، لم أكن أستطيع الوقوف. وكانت يداي وقدماي قد تيبستا بسبب الجلوس الطويل والجوع، ولم تعد فيهما قوة. كانوا يرفعونني بالقوة. وما إن أقف حتى أسقط على وجهي على الأرض. عندها كانت السجانات والخائنات ينفجرن بالضحك، ويقلن: ها هي البطلة تنهار!

وكان "حاج داوود" الجلاد يقول: سأبقيك هنا حتى تموتي! سأجعلك تتحسرين على حلمك بأن تخرجي من هنا بصفتك مجاهدة تعرضت للتعذيب. لن أسمح لك بأن تصبحي بطلة. ثم كان يطلق ضحكاته ويقول: إني أنا البطل! أنا الذي أجعل أنتم المنافقين تركعون!

تذكرت يومًا جاء فيه شقيق الملا خامنئي مع وفد لزيارة عنبرنا، العنبر الثامن. وكانت "أم عفت شبستري" التي كانت تبدو في نحو ٦٥من عمرها، بيننا أيضًا. كانت جميع مفاصلها مصابة بالتهاب المفاصل، ولم تكن تقوى على المشي، ولذلك بقيت في زنزانتها الواقعة في آخر العنبر ولم تخرج. وكان أحد مرافقي شقيق خامنئي، ويبدو أنه كان تربطه بها قرابة، قد قال للأم بسخرية: "أنت التي تدعين أنك شجاعة، تعالي إلى هنا وتكلمي!" وأجبر الأم على الخروج من زنزانتها والذهاب إلى الزنزانة الأولى في العنبر. وبسبب التهاب المفاصل، وغياب أي دواء أو علاج، كانت الأم تمشي بصعوبة بالغة، فسقطت في الطريق. فضحك أولئك العملاء الذين جاءوا -بحسب زعمهم- للنظر في شكاوى السجينات، وراحوا يطلقون عليها السخرية والاستهزاء: "ألم تكوني شجاعة؟ كيف لا تستطيعين المشي؟!"

كانت الأم، رغم حالتها الجسدية البالغة السوء، أسدًا حقيقيًا من حيث المعنويات. وهناك كنت أجيب عنها في داخلي: اضحكوا أيها الحمقى! نعم، سأسقط على الأرض، وسأقع عشر مرات أخرى، لكنني لن أستسلم! وفي النهاية أنا المنتصرة وأنتم الخاسرون! وأنتم محكوم عليكم بالفشل. وعندما كنت أنا أيضًا أسقط على الأرض هنا ويضحك الجلادون، تذكرت ذلك المشهد وكلمات ذلك اليوم، وقلت في نفسي: نعم، سأسقط، لكنني لن أستسلم! وسنرى في النهاية من الذي سيهزم ومن الذي سينتصر!

استمر هذا الوضع أكثر من سبعة أشهر، ليلًا ونهارًا. وخلال هذه المدة لم يكن لنا أي اختيار أو إذن في أي شيء، لا في الذهاب إلى المرحاض، ولا في تناول الطعام، ولا في الصلاة، ولا في أي أمر آخر. كنا نمضي الليل والنهار كلهما جالسات بلا حركة، بلا صوت، معصوبات الأعين، في وضعية القرفصاء. ولم يكن مسموحًا لنا حتى أن نسند ظهورنا إلى جدار القفص. فإذا استندت إحدانا، سقط الجدار الفاصل فوق رأس السجينة المجاورة، وكان ذلك يعقبه الضرب المبرح وضربات الكابل. وخلال النهار لم يكن مسموحًا لنا بالنوم، ولا حتى بالغفوة. وكان أقل أثر للنوم أو النعاس، وكذلك إحداث أقل صوت، حتى عطسة أو سعال لا إرادي، يعد إشارة إلى الأخريات، ويستتبع وابلًا من اللكمات والركلات من "الحاج" وأفراد الحرس وعميلاتهم الخائنات، أو ضربات السياط.

والساعة الثانية عشرة ليلًا كانوا يقولون: ناموا!. لكن القفص كان قصيرًا إلى درجة أنني، رغم أن طولي ١٥٧ سنتيمترًا، لم أكن أستطيع التمدد فيه. فإذا وضعت رأسي على الأرض، استقر فوق الحديد الموجود عند حافة السريرين الملحومين ببعضهما، وكانت الحافة الحديدية الحادة تغرس في رأسي. وعندما كانوا يسمحون لنا بالنوم، كان علينا أن ننام بالملابس نفسها، وبالشادور، ومعصوبات الأعين. لكن في تلك اللحظة بالذات كان وقت الضرب بالكابلات قد بدأ للتو.

بعد الساعة الثانية عشرة ليلًا، كان "حاج داوود" ومساعده العميل "أحمد" يطوفان، والكابل بأيديهما، على عنابر الأقفاص، ليمنحانا حصتنا اليومية من الضرب!

ومنذ منتصف الليل كانوا يشغلون المذياع ويرفعون صوته إلى أقصى حد ممكن حتى لا نستطيع النوم. وكان هذا يتكرر كل ليلة. في البداية كان ذلك يرهقني، ولم أكن أستطيع التكيف معه، لأنني، إلى جانب تعب النهار والضغوط النفسية، كنت أتمنى على الأقل في الليل أن أكون مع نفسي وأن أنام بضع ساعات. لكنني كنت أحاول أن أحول كل وسيلة يستخدمها العدو لتحطيمي إلى عاملًا إيجابيًا يفيدني.

واكتشفت أن ذلك وفر لي فرصة جيدة لجمع المعلومات وتخزينها، ثم التفكير فيها طوال النهار. فمثلًا، كنت أتابع الأخبار من خلال خطب صلاة الجمعة التي كانت تبث كل يوم من إحدى المدن، ولا سيما يوم الجمعة حين كانوا ينقلون صلاة جمعة طهران، إذ كنت أحصل منها على أخبار كثيرة.

كنت سعيدة جدا بهذه الإمكانية الجديدة التي وجدتها، حتى إن النوم كان يطير من عيني، ويصبح ذهني أكثر يقظة، فأفكر: كيف أستفيد من كل برنامج يبث؟ من الآيات القرآنية أو مقاطع نهج البلاغة التي كانوا يبثونها أحيانًا، إلى القصائد التي كانت تذاع في برنامج "درب الليل" ("راه شب" بالفارسية)، إلى خطب أئمة الجمعة، إلى برنامج "العمل والعامل" الذي كان يرسم صورة عن بؤس الناس، أو البرامج التي تتناول الإدمان والمخدرات وغيرها...

وكانت بعض البرامج مضحكة فعلًا، حتى إنني وأحيانًا كنت أستلقي وأضحك، في برنامج الساعة السادسة صباحًا، حين كانوا يبثون برنامج "العمل والعامل"، كانوا يعرضون أخبارًا وتقارير عن الوضع المؤلم للعمال

والكادحين، فكانت تشكل بالنسبة إلي مادة فكرية ثمينة أتأملها طوال النهار، وأستمد منها دافعًا إضافيًا للمقاومة.

كما تعلمت كيف أغفو أثناء النهار، في الأوقات المناسبة، من دون أن يلاحظني أفراد الحرس أو الخائنات، وبذلك أعوض جزءًا من قلة النوم في الليل.

أما تقديم الطعام فلم يكن له وقت ثابت؛ كانوا يقدمونه متى شاؤوا، وكذلك كانوا يأخذوننا للصلاة أو إلى المرحاض متى أرادوا. وفي العادة كانوا يسمحون لنا بالذهاب إلى المرحاض ثلاث مرات في اليوم، لكن حتى هذا لم يكن يحدث دائمًا. وحتى عندما كانوا يأخذوننا إليه، لم يمنحونا دقيقة واحدة. فما إن ندخل، حتى يفتحوا الباب من جديد، بقصد الإيذاء والتعذيب، ويقولوا: أيتها المنافقة، انتهى وقت!

وبسبب شدة الضغط والتوتر، كنت قد أصبحت مريضة، ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئًا حتى خلال تلك الدقيقة الواحدة، فأصبت بتشنجات. وكان الألم في مختلف أنحاء جسدي شديدًا، نتيجة الجلوس المتواصل ساعات طويلة في وضع القرفصاء، حتى إنني لم أعد أستطيع الجلوس على قدمي. وكانت قدماي، بسبب طول الجلوس، قد امتلأتا بالجروح.

وأحيانًا كنت أضع قدمي الواحدة فوق الأخرى كأنهما كرسي صغير، لأرفع جسدي قليلًا فتخف آلام الجروح، لكنني لم أكن أستطيع الاستمرار على ذلك أكثر من بضع دقائق. وإذا تحركت أكثر قليلًا لأغير وضعي، كانوا يضربونني على رأسي ويقولون: أيتها المنافقة! ما بك تتلوين هكذا؟ هل يحكك

جسدك؟! ثم يرفعون تقريرًا ضدي، وفي الليل كانت الكابلات واللكمات والركلات تنهال علي مرة أخرى، فتضيف ألمًا جديدًا إلى آلامي.

التدريس وصنع التماثيل داخل القفص!

كان من بين الأعمال التي أشغل بها نفسي داخل القفص التدريس. وبما أنني كنت شغوفة جدًا بالتعليم، فقد خصصت جزءًا من وقتي لإعطاء الدروس. كنت أستحضر الصف الذي كنت أدرسه، وأتخيل تلك الصغيرات واحدة تلو الأخرى، بأسمائهن، وبأماكن جلوسهن في الفصل، فقد كنت أحبهن حبًا جمًا. ثم أبدأ أشرح لهن الدروس، وأتحدث إليهن، وأعرض عليهن ما كنت قد فهمته، بلغتهن التي يفهمنها. وكنت أفكر في مشكلاتهن؛ فأحيانًا أبكي كلما تذكرتهن وتذكرت معاناتهن، وأحيانًا أتذكر أمنياتهن وأحلامهن، فأقول لهن: يا صغيراتي، لم أنسكن. ما زلت أتذكر الوعود التي قطعتها لكن، وأعمل على الوفاء بها. قد يتأخر ذلك قليلًا، لكن لا بأس. ستذقن طعم المحبة، وطعم الرفاه والطمأنينة، وسوف تشهدن إيران خضراء مزدهرة.

أتذكر "منصورة" الصغيرة، تلك الطفلة الجميلة العذبة اللسان، التي كانت تأتي إلى المدرسة في برد الشتاء القارس مرتدية معطفًا خفيفًا فقط، وخداها محمران من شدة البرد، وعيناها دامعتان، فتلتصق بالمدفأة لتستدفئ.

وأتذكر "فاطمة"، التي كانت تختبئ تحت الطاولة وتبكي، لأن والدها كان قد تشاجر مجددًا مع والدتها بسبب مصروف البيت. وكانت قد اختبأت خلف السرير وسمعته يقول إنه لم يعد قادرًا على إطعامها وإخوتها الأربعة، وإنه

سيأخذهم إلى دار الرعاية. وكانت أمها قد هددته قائلة: لا تدفعني إلى أن أسكب النفط على جسدي وأحرق نفسي اليوم! ومنذ ذلك اليوم، كانت فاطمة تأتي إلى المدرسة كل صباح وهي تعيش هاجسًا واحدًا: أن تكون أمها قد أحرقت نفسها أثناء غيابها.

كنت أستحضرهن بهذه الصورة، وأربت عليهن، وأواسيهن، وأقول لهن: عندما تنتصر الثورة، سيجد والد منصورة العمل الذي يتمناه، وسيستطيع أن يشتري لابنته معطفًا وحذاءً جيدين وملابس دافئة. أما والد فاطمة، فسيحصل على راتب كريم، ولن يضطر إلى إرسال أطفاله إلى دار الرعاية. وكنت أخاطب أم فاطمة قائلة: لماذا تحرقين نفسك؟ اصبري قليلًا فقط، فكل شيء سيتغير إلى الأفضل. سيكبر الأطفال، وسيدخل كل واحد منهم المدرسة ثم الجامعة، أو يجد عملًا كريمًا، وستصلين أنت أيضًا إلى السعادة! ...

وتذكرت الابنة الصغيرة لصديقتي "رقية أكبري"، وتذكرت يومًا في سجن قزل حصار حين رأيت رقية أكبري غارقة في التفكير، فقلت لها مازحة: "بماذا تفكرين؟ حتى أفكر أنا أيضًا في الشيء نفسه من بعيد!" -كنت قد حفظت هذه العبارة من قصيدة نشرت عام ١٩٧٩ في جريدة "المجاهد" إلى جانب صورة "محمدرضا سعادتي".- رفعت "رقية" رأسها، وابتسمت، وقالت: لا أدري لماذا، لكن ابنتي "مهناز" خطرت ببالي فجأة، فدعوت الله في سري أن تصبح ابنتي مجاهدة. فسألتها: كم عمر ابنتك؟ فقالت: إنها ما تزال صغيرة جدًا، لكن المهم أنها ابنتي، وأشعر يقينًا أنها ستصبح مجاهدة.

استشهدت الشهيدة المجاهدة "رقية أكبري" عن عمر يناهز ٣٠ عامًا خلال مجزرة سجناء مجاهدي خلق عام ١٩٨٨.

الشهيد المجاهد "عبدالرضا أكبري" (في اليمين) استشهد في ٦ أغسطس ١٩٨٨ عن عمر ٢٣ عامًا خلال مجزرة سجناء مجاهدي خلق، و الشهيد المجاهد "غلامرضا أكبري" (في اليسار) استشهد في ٢٥ أغسطس ١٩٨٥ في طهران.

الشهيدة المجاهدة "رقية أكبري" وابنتها "مهناز"، ووالدتها وشقيقها الشهيد المجاهد "غلامرضا أكبري". بعد أن تحملت والدة رقية سنوات من الأسر في سجون خميني، توفيت في نهاية المطاف أثناء مسيرها للالتحاق بمجاهدي خلق وجيش التحرير الوطني. أما ابنتها "مهناز" فقد التحقت بجيش التحرير الوطني.

كنت أستمد من كل ذلك دافعًا جديدًا. وكنت أقول لنفسي: إنما أنت في هذا القفص من أجل هؤلاء. فإذا كنت تريدين أن تبقى "منصورة" و"فاطمة" وأمثالهما تعيسات، يواجهن مستقبلًا مجهولًا، فقومي إذًا وقولي، مثل أولئك "الثوار!" الذين لم يصمدوا سوى أسبوع واحد، ثم أعلنوا توبتهم أمام الجلاد، إنك آمنت بإسلام "حاج داوود"، وإنك لم تدركي إلا الآن كم كنت ضالة من قبل!! لكنك مجاهدة. وأنت تعلمين أن لهذا العالم حسابًا، وأنك تعرفين جيدًا لماذا أنت هنا. عليك أن تتحملي، وأنت قادرة على التحمل! ثم كنت

أخاطب "الحاج الغوريلا" في سري قائلة: سنرى أينا سيغلب الآخر في النهاية! فليحكم الزمن بيننا!...

وفي مرحلة من مراحل القفص، خصصت جزءًا من وقتي اليومي لوضع كتاب للغة الفارسية موجه إلى تلميذات الصف الثاني الابتدائي. كنت أفكر فيما ينبغي أن يتضمنه هذا الكتاب، وما الموضوعات التي سأختارها، وما الجوانب التي سأركز عليها في كل درس. وكنت أكمل في ذهني كل يوم جزءًا منه، حتى أصبح القسم الأكبر من الكتاب مرتبًا في ذاكرتي. وهكذا كان وقتي ممتلئًا، حتى إنني كثيرًا ما لم أكن أشعر كيف تمر الساعات، ولا كيف ينقضي النهار ويحل الليل.

وحين يأتي الليل، وما إن أتهيأ للنوم، حتى أبدأ أفكر فيما سأفعله في اليوم التالي. وفي البداية كنت أقول لنفسي: سأفعل كما فعلت بالأمس... لكنني كنت أستدرك فورًا: لا، ليس كما فعلت بالأمس! فالتكرار ليس صحيحًا. التكرار يستهلكني، ويجعل عدوي هو المنتصر. ثم أقول لنفسي: بعد دقائق سيشغلون المذياع، وعلي أن أستمع جيدًا لأرى ما الجديد الذي يبث، حتى أستطيع أن أبني عليه برنامج الغد، فلا يتحول يومي إلى روتين مرهق مكرر. وكان هذا الأسلوب يجعلني لا أشعر بقلة النوم ولا بالضغط، ويبقي ذهني متيقظًا، دائم البحث عن فكرة جديدة.

وأحيانًا كنت أبتكر لنفسي مسابقات وألعابا ذهنية، مثل مسابقات الذكاء ولعبة "عشرين سؤالًا" ، أو غيرها من وسائل التسلية. فمثلًا، كنت ألعب لعبة لعبة "اسم، جماد، حيوان، نبات..." التي عرفتها منذ الطفولة. كنت أختار حرفًا، كحرف الباء مثلًا، ثم أبدأ أستحضر أسماء المدن، والبلدان،

والأشخاص، والفواكه، وكل ما يبدأ بذلك الحرف. وكانت تلك وسيلة جيدة لتنشيط الذهن، كما كانت نوعًا من التسلية، لكنها لم تكن ترهقني كما يفعل التفكير المتواصل. ولا سيما أن هذه اللعبة كانت تعيد إلى ذاكرتي ألعاب الطفولة، ثم الألعاب التي كنا نمارسها داخل الزنازين مع الأخوات، فأتذكر أخوات اللعب، وصديقات ذلك الزمن، وأخواتي في الزنزانة، وأغرق في ذكرياتهن.

كانت أيام القفص المتشابهة والساكنة لا تخلو أحيانًا من أحداث. ففي إحدى المرات، بعد نحو ثلاثة أيام من الامتناع عن الطعام، جاءت إحدى السجانات وصفعتني على قفاي، ثم أعطتني طبقًا من الطعام وقطعة خبز. وما إن نظرت إلى الطعام حتى شعرت بالغثيان. لم أعد أستطيع الأكل، وكأن معدتي فقدت قدرتها على تقبل الطعام. في ذلك اليوم كنت أشعر بالخمول والضيق، فأخذت الطعام ووضعته على الأرض، وأخذت أفكر في الأخوات داخل السجن. تذكرت "خيرية صفايي"، التي كنا معًا مدة قصيرة في العنبر الرابع من سجن قزل حصار. وقد أعدمت "خيرية" بعد سنوات، في مجزرة سجناء مجاهدي خلق عام ١٩٨٨. كان الحديث بين الأخوات في العنبر الرابع ممنوعًا، لكن "خيرية" كانت تحدثني بنظراتها، وأحيانًا بالإيماءات والإشارات، وكنت أرد عليها بابتسامة.

وذات يوم جلست إلى جانبها وقلت لها: لماذا كل هذا الحذر؟ طوال هذه المدة التي أنا فيها هنا، لم تحدثيني إلا بالنظرات والإشارات! امتلأت عيناها بالدموع وقالت: كلما تحدثت مع إحدى الأخوات يأخذونها إلى الحبس الانفرادي ومدخل العنبر ويضربونها. ليتهم يأخذونني أنا ويضربونني. وأثناء حديثنا كانت تشكل بقطعة من عجين الخبز تمثالًا صغيرًا لوجه فتاة شابة.

ثم قالت لي: هذا التمثال يجسد إحدى أعز صديقاتي في فترة "الكفاح السياسي"، وقد استشهدت. أهديه إليك.

ومع عودة ذكريات "خيرية" إلى ذهني، شعرت بشيء من الحياة يدب في داخلي. فتذكرتها، وأخذت قطعة الخبز وغمرتها في مرق "الآبغوشت"، وحين لانت قليلًا بدأت أعجنها. وفي تلك اللحظة بالذات جاء السجان، وكعادته، بعد أن صفعني على قفاي، قال: أعطيني طبقك! فأعطيته الطبق بإحدى يدي، ولم ينتبه إلى العجين الذي كنت أخفيه في اليد الأخرى. وما إن غادر حتى واصلت عجن العجين.

كنت قد عقدت العزم على أن أصنع تمثالًا. لم أكن قد فعلت ذلك من قبل، ولم يخطر ببالي أصلًا، لكنني لا أدري لماذا اشتقت إليه إلى هذا الحد. كنت قد سمعت في طفولتي قصة امرأة كانت تعيش وحيدة، فصنعت تمثالًا من الشمع لتؤنس وحدتها، وأطلقت عليه اسم "التمثال الشمعي" ("ننه مومي" بالفارسية)، وكانت تبثه آلام قلبها. ولعل حاجتي إلى مؤنس هي التي دفعتني إلى صنع التمثال.

تذكرت أخواتي الشهيدات: "هاجر ومهدخت وسيمين وعطية" وغيرهن... فقررت أن أصنع لهن تماثيل، وأتحدث معهن. ومن تحت عصابة العين، وتحت الشادور، بدأت أشكل التماثيل. لا أتذكر أي واحدة منهن كنت أصنعها وبدأت أحدثها. كنت مستغرقة تمامًا في عملي، حتى شعرت فجأة بمن يضربني على ظهري ويقول: انهضي! ارتبكت وظننت أنهم اكتشفوا ما أفعله. ولو رأوا التمثال وصادروه، لكنت تعرضت بالتأكيد لضرب شديد. فأخفيت التمثال وبقية العجين على عجل في جيبي، ونهضت. لكن الأمر لم

يكن إلا موعد الذهاب إلى المرحاص وأداء الصلاة. أدركت حينها أنني كنت غارقة في عملي إلى درجة أنني لم أشعر بمرور الوقت. فتنفست الصعداء، وبعد عودتي واصلت عملي، وصنعت من بقية العجين تماثيل أخرى لأخوات أخريات، وقضيت ساعات أتحدث إليهن. صار لدي الآن عدة مؤنسات، فانشرح صدري كثيرًا، واستعدت نشاطي، وزال ذلك الشعور بالخمول والمرض الذي كان يلازمني.

مرة أخرى، عندما ذهبت إلى المرحاض، رأيت مشطًا صغيرًا هناك، وقد حفر عليه بإبرة وكتب: "شوري صديقتك". أدركت أن عزيزتي "شوري" تركته خصيصًا لي. ولم تكن السجانات قد انتبهن إليه. أخذته وخبأته في ملابسي وعدت به معي. كان عندي رباط رأس، وعندما جلست فككته، ثم بدأت، بالإبرة التي كانت معي، أكتب عليه. وحتى موعد الذهاب التالي إلى المرحاض، كنت قد أنهيت الكتابة. كتبت عليه: "تم الاستلام. أحبكن جميعًا وأنا لا أعرف كم عددكن. أعظم حاج." ثم أخذته معي، ووضعته في المكان نفسه الذي كن قد تركن فيه المشط.

وعندما أردت العودة، دخلت إحدى السجانات إلى المرحاض وهي تطلق الشتائم والسباب. خفت، وظننت أنهن من وضعن ذلك الرباط ليمتحنني، لكن الأمر لم يكن كذلك. فقد كانت السجانة نفسها قد تأخرت في المجيء لأخذي، وكانت تريد الآن أن تعوض الدقائق الإضافية التي منحتني إياها عن طريق الخطأ في المرحاض، بإظهار شيء من التشدد.

وفي المرة التالية التي ذهبت فيها إلى المرحاض، رأيت أن رباط الرأس لم يعد هناك. فرحت كثيرًا لأنني استطعت أن أقيم صلة مع إحدى الأخوات

اللواتي كنت أحبهن كثيرًا. وظللت نحو ساعة أفكر فيما يمكن أن أتركه لـ"هنكامه" وبقية الأخوات اللواتي كنت واثقة أنهن هناك، وكيف أستطيع أن أقيم معهن علاقة. وهكذا امتلأت لحظات وحدتي، وأحيانا كنت أنسى تمامًا أنني وحيدة.

يوم ٢٨ يونيو، الذي كان يوافق ذكرى هلاك "بهشتي" ومن كانوا معه، كان أفراد الحرس والمحققون يولولون ويصرخون بطريقة هستيرية، ويلطمون رؤوسهم ووجوههم. جاءوا فوق رؤوسنا، وأخذوا يتمشون ذهابًا وإيابًا ويكررون المشاهد نفسها. كانت تصرفاتهم مضحكة إلى درجة أنني لم أتمالك نفسي من الضحك. وكان أحدهم قد لاحظ من حركتي من الخلف أنني أضحك، فأخبر "حاج داوود".

جاء "حاج داوود" من خلفي، وركلني في رأسي ركلة عنيفة، ولأن مكاني كان ملاصقًا للجدار، ارتطم رأسي بالحائط. أحدث رأسي صوتًا قويًا حتى ظننت أن أسناني قد تحطمت. وضعت يدي على فمي وتحسست أسناني لأتأكد أنها ما زالت في مكانها. كان "حاج داوود" ينهال علي بالضرب بجنون، ويكرر باستمرار: الضرب الذي أنزله بك لا يكفي! دم المنافقين أصبح حلالًا، وأنت ما زلت تتنفسين كثيرًا! أنت قاتلة "بهشتي" وأعوانه، و"الإمام" أحل دماءكم وأموالكم، وأنت ما زلت تتنفسين هذا النفس الحرام!

كان يضربني وهو يقصد قتلي. وكنت، بسبب الجلوس الطويل، أعاني ألمًا في ظهري وفي جميع أعضاء جسمي، ومع كل ركلة كانت تصيبني، كان نفسي ينحبس في صدري، وأشعر أن عظامي تتحطم، وأنه لن يبقى مني شيء.

لم أكن أتحمل ذلك الضغط والجوع المتواصلين إلا بدافع المقاومة في مواجهة هذا النظام الإجرامي. أما من الناحية الجسدية، فقد أصبحت في حالة تشبه الشلل النصفي. كنت أشعر أن عظامي أصبحت فارغة وهشة. وأحيانًا لم أكن أستطيع تحريك إحدى يدي، فأحركها باليد الأخرى. وأحيانًا كنت أتحول إلى ما يشبه التمثال الجامد، فلا أقدر على الحركة، وكأن أيًا من أعضاء جسدي لم يعد يخصني. ولهذا السبب، كانت كل ركلة من "حاج داوود" تقذفني كأنني كرة من جانب إلى آخر، ولا سيما أن عيني كانت معصوبتين، فلم أكن أرى شيئًا، ولم يعد لدي أي سيطرة على جسدي. وحتى لو أردت، فلم تعد لدي القدرة أو الطاقة لأتحكم في نفسي.

والغريب أنه، رغم الألم الشديد الذي كنت أعانيه، ورغم أنني كنت جسديًا عند نقطة الصفر، فإنني كنت أشعر في أعماقي بالفرح والانتصار، وأقول في نفسي: اضرب أيها الجلاد! سنرى من الذي سينكسر، ومن الذي سينتصر؟ أنا أم أنت؟ لكنني أنا التي سأنتصر، لأنني مجاهدة! لقد كنت فعلا أنسى ألم جسدي.

وفي ذلك اليوم ظل "حاج داوود" يذهب ويعود لمدة ساعتين، يضربني، ومع ذلك لم يهدأ غيظه. ولم يكن يضربني وحدي، بل كان ينهال على الجميع بالضرب الوحشي نفسه. وكنت أتألم من أجل الأخوات اللواتي كن يتعرضن لذلك الضرب الوحشي أكثر مما أتألم لنفسي. لم أكن أعرف من التي كانت تتعرض للضرب، لكن من خلال الأصوات وحركة المأجورين ذهابًا وإيابًا، كنت أفهم أنني لست الوحيدة التي تضرب، بل إن الأخريات أيضًا يتعرضن لذلك.

بعد تلك الضربات، تمنيت في تلك الليلة أن أنام. كنت أشعر بإنهاك شديد وآلام في جميع أنحاء جسدي، لكن الصوت المزعج للراديو، الذي كان لا يترك لنا لحظة هدوء أو راحة منذ منتصف الليل فصاعدًا، كان بانتظارنا. يضاف إلى ذلك كابوس وجود الجلاد "حاج داوود"، الذي كان، ما إن يكون هناك، حتى ينهال بالضرب، سواء وجد سببًا أم لم يجد. فقد كان هو نفسه قد أطلق على ذلك المكان اسم "القيامة"، ومكان الاقتصاص، وكان يقول: إذا شعرتم بالراحة ولو للحظة، ستفكرون في المقاومة.

لكن ذلك الأحمق التعيس لم يكن يعلم أن أفعاله كانت تمنحنا أعظم دافع للمقاومة، لأنها كانت تثبت لنا عدالة قضية مجاهدي خلق وصحة طريقهم، أي طريق المقاومة المسلحة. وكل من كان لا يزال يساوره أدنى شك في إمكانية مخاطبة هؤلاء الجلادين والمجرمين بغير لغة السلاح، كانت كل شكوكه تزول هناك، وتتحول إلى يقين. ومن أعماق وجوده كان يهتف: عاش مجاهدي خلق! وعاش مسعود! ذلك الذي عرف منذ اليوم الأول حقيقة هذا خميني السفاح وزمرته.

وفي ذلك اليوم أيضًا، ورغم أنني كنت محطمة تمامًا، فقد كنت أشعر بالرضا لأن هذا الجلاد كان في غاية الاضطراب. وتذكرت يوم ٢٨ يونيو ١٩٨١، يوم هلاك "بهشتي" ومن كانوا معه. في ذلك اليوم كنت في شارع "جمهوري"، واستغرق الأمر أربع ساعات حتى تمكنت من مغادرة تلك المنطقة. وكلما ذهبت إلى مكان، كنت أرى أفراد الحرس قد اقتحموه. كانوا قد داهموا منازل كل من يعرفونهم. ركبت سيارة أجرة لأخرج من المنطقة، لكن أحد أفراد الحرس كان يضرب بيده على غطاء السيارة ويقول للسائق: لا يجوز أن

تعمل! لقد استشهد "بهشتي"! فأجابه السائق: إذا لم أعمل، فهل ستؤمن أنت لقمة عيش زوجتي وأطفالي؟!

كنت قلقة من أن يؤدي جدال سائق الأجرة مع أفراد الحرس إلى إثارة الشبهات حولي وحول صديقتي، فيعتقلوننا. فقلت للسائق: يا أخي، دعنا الآن نصل إلى أمرنا. فقال: لقد هلك مجرم، فلماذا يجب أن أتوقف أنا عن عملي وحياتي؟ ثم قلت أنا وصديقتي له: نحن من مجاهدي خلق، أرجوك أوصلنا إلى مقصدنا بأسرع وقت. ففرح السائق كثيرًا وقال: من أجل أن تصلا بسرعة إلى مقصدكما، سأقود بهدوء ولن أرد على هؤلاء. في ذلك اليوم كان الناس ينظرون إلى بعضهم بعضًا بفرح، ويتبادلون الابتسامات.

لقد جعلني الضرب الذي تلقيته على يد الجلاد "حاج داوود رحماني" أسترجع تلك الذكريات لساعات، فخفف ذلك من ألم الضرب ومعاناته. كان في كل يوم ما يشغل الفكر. كان السجناء الذين يعيشون في تلك الظروف ينهارون جسديًا يومًا بعد يوم، لكنهم كانوا، من الناحية الروحية، يجدون كل يوم ما يمنحهم دافعًا جديدًا للصمود.

الإنهاك الجسدي

إن حالة القعود بلا حراك، وأنا معصوبة العينين، لم تكن يومًا أو يومين أو أسبوعًا أو أسبوعين... بل استمرت أكثر من سبعة أشهر متواصلة، إلى جانب سوء التغذية والحرمان الشديد من الطعام، وقد بدأت آثار هذا الإنهاك الجسدي والبدني تظهر تدريجيًا.

بعد فترة، أصبحت عضلاتي قاسية ومؤلمة كأنها خشب. كان جسدي كله وكأنه جرح واحد. كل مكان ألمسه كان يؤلمني، ولم أعد أستطيع تحريك أطرافي بسهولة كما في السابق. في الأسابيع الأخيرة، عندما كنت أتعرض للكمات والركلات، كنت أشعر وكأن عضلاتي أصبحت كخشب يابس، وأن عظامي قد فرغت من قوتها وأصبحت هشة، وستتحطم تحت وطأة هذه الضربات. كان جسدي كله، وخصوصًا أخمصا قدمي، يصابان بالخدر والتشنج.

وبهدوء، وبطريقة لا يراها الجلادون، كنت أزيح شيئًا فشيئًا البطانية التي كانت تحت قدمي، والتي كانت أليافها تخترق قدمي كالإبر وتزيد إحساسي بالحرارة والخدر، حتى أضع قدمي على البلاط البارد. فقد كنت أختنق من شدة الحرارة التي كنت أشعر بها في جسدي، كأنها حمى مشتعلة بداخلي.

كان ألم الجوع في منطقة المعدة يشتد أحيانًا إلى درجة تجعلني عاجزة عن الاحتمال. لكنني كنت أوبخ نفسي وأحاول ألا أفكر فيه. وأحيانًا كان الألم فعلًا يسلبني قدرتي على التحمل.

وبسبب الامتناع الطويل عن الطعام، تيبست أمعائي، وأصبحت تؤلمني، حتى إنني كنت أحيانًا أدخل المرحاض فلا يخرج مني سوى الدم، وكنت أنهار بالبكاء من شدة ألم بطني.

وكان الجانب الإيجابي الوحيد أن أحدًا لم يكن وقتها فوق رأسي، فكنت أستطيع أن أبكي، وكان هذا البكاء يخفف عني قليلًا. كنت أحاول عندما أخرج من القفص أن تبدو ملامحي هادئة. لم يكن ينبغي لهم أن يفهموا أنني أتألم أو أنني أبكي. لأنهم لو اكتشفوا نقطة ضعف، لكانوا بالتأكيد سيزيدون الضغط علي كي يحطموني من خلالها. وكان أقل ما سيحدث أنهم سيفرحون ويظنون أنهم قد انتصروا.

عندما كنت أبكي، كنت أشعر بالخجل من نفسي، وكنت أوبخها قائلة: أعظم، والبكاء؟ أبدًا! أبدًا! ألم تكوني أنت التي لم تكوني بهذا الضعف؟ هل نسيت شجاعة وصلابة وصبر الأخوات تحت أقسى أنواع التعذيب؟ ثم كانت أخواتي واحدة واحدة تخطرن في بالي...

"سيمين هجبر والدكتورة هاجر رباط كرمي وفاطمة آصف وسيبا شريف‌بور والدكتورة مهدخت محمدي‌زاده..." وكنت أقول لنفسي: أولست من نسل هؤلاء المجاهدات؟ فلماذا تبكين أمام الألم؟

لطالما قال لي الجلادون بحقد وضغينة: أيتها التعيسة، ستنهارين في النهاية! ستصبحين ترابًا في النهاية! أنت فقط تعذبين نفسك! وكنت أقول في داخلي: فلنرَ إذن! "حارب كي نحارب"!

استشهدت الشهيدة المجاهدة "فاطمة محمود حكيمي (آصف)" في ١٨ يوليو ١٩٨٢، عن عمر ناهز ٢١ عامًا، في سجن إيفين.

إن آثار ومضاعفات تلك الفترة التي استمر سبعة أشهر ونصف، وبعد مرور أكثر من ٢٠ عامًا على تلك الفترة، ما زالت حتى اليوم باقية في جسدي على شكل اضطرابات هضمية مزمنة، وآلام في العظام والمفاصل والأعصاب.

لقد فقدت في السجن العديد من أسناني. فقد أصبحت لثتي ملتهبة ومليئة بالقيح، وخلال شهر واحد فقط خلعت عشرة من أسناني داخل

السجن. ولأنني خلال فترة اعتقالي بين عامي ١٩٨١ و١٩٨٦ لم أكن أملك تقريبًا أسنانًا، وكنت أمضغ الطعام نصف مضغ باللثة، إذ كانت لثتي قد انحسرت وضعفت. ورغم كل الجهود التي بذلها أطباء الأسنان في جيش التحرير، لم يتمكنوا من صنع أسنان مناسبة لي.

وفي إحدى المرات، وبسبب الحالة السيئة جدًا لأسناني، أخذوني إلى عيادة السجن. وعندما حقنني طبيب الأسنان بإبرة تخدير كي يخلع أحد أسناني، أصبت بسبب ضعفي الجسدي بصدمة وتسارع شديد في ضربات القلب. نقلوني إلى طبيب مختص بالقلب كان قد أحضر إلى هناك مصادفة في ذلك اليوم. لكنهم لم يخبروا الطبيب بالسبب الحقيقي لحالتي، ولذلك لم يدرك حقيقة ما يجري. كنت في حالة شبه إغماء، وكنت أفهم كلامهم بشكل متقطع.

وكما كان يحدث عادة في مثل هذه الحالات، أحضروا "الدكتور شيخ الإسلام زاده". فقال: لا شيء خطير، أنا أعرف ما مشكلتها. وبسرعة أحضر مصلاً وأفرغ فيه عددًا من الأمبولات المقوية، ثم بدأ بإعطائي المصل. ومع تسريب المصل، أخذت أستعيد عافيتي تدريجيًا.

في الأيام الأخيرة داخل القفص، كنت قد بدأت أعاني أيضًا من النسيان. لم أعد أستطيع تذكر الأشياء التي كنت أحفظها تمامًا كما ينبغي. حتى كلمات الصلاة، التي كنت أرددها عدة مرات في اليوم، بدأت تفلت من ذاكرتي. أصبت بالهلع، وقلت في نفسي: هل أفقد عقلي؟ هل بدأت أصاب بالجنون؟ وأحيانًا كان يغلبني البكاء، ورغم أنني كنت قد عاهدت نفسي ألا أتذمر، كنت أتذمر وأقول: إذن أين عونك يا الله؟

حيلة دنئية لكسر النساء

في أحد الأيام، حين كان الألم يعصف بجسدي، جاؤوا وأخذوني إلى مدخل العنبر، وأبقوني واقفة نصف النهار. ثم جاء "حاج داوود" وقال: تعالي لنتناقش معًا، أنت دافعي عن فكرتك، وأنا أدافع عن "الإمام"، ولنرَ أيًا منا يستطيع إقناع الآخر.

وبينما كان يتحدث، سقطت فجأة على الأرض، ولم تعد لدي قوة حتى على الوقوف على قدمي. جاء بعض الجلادين والمحققين الذين كانوا هناك، وكانوا يحققون مع الأخوات حول تنظيمات السجن، ووقفوا فوق رأسي وقالوا: أيتها البائسة، هل ترين إلى أي حد أصبحت ضعيفة؟ أنت لا تستطيعين حتى الوقوف على قدميك، فكيف تريدين أن تقاومي وتواصلي النضال؟ أيتها البائسة، من أجل من تريدين أن تناضلي؟ من أجل من تفنين نفسك؟ تعالي فكري قليلًا في نفسك وفي عائلتك! انظري ماذا فعلت بنفسك!

وبينما كان ذلك الجلاد يتحدث، كانت صور شهداء المنظمة من أخوات دربي الذين عشت معهن، إلى "حنيف نجاد" و"سعيد محسن" و"بديع زادكان"، و "فاطمة أميني" و"مهدي رضايي"، وقصص مقاومتهم، تمر أمام عيني كأنها شريط سينمائي. كنت أرى نفسي ذرة لا قيمة لها أمامهم. واستمددت القوة من التفكير بهم. وبكل ما تبقى لدي من جهد نهضت، ووقفت على قدمي، وأمسكت بيدي بقوة بالجدار حتى لا أسقط مرة أخرى.

كان "حاج داوود" قد غضب من هذا التصرف مني، فقال لهم: اتركوها! دعوها تقف هنا حتى تموت، فهي أصلًا فتاة جيدة جدًا، لا شأن لكم بها!

كان يبدو أن هذه العبارة كانت رمزًا وإشارة بينهم. فمنذ تلك اللحظة، كان كل واحد من أولئك الجلادين يمر بجانبي، ومع ما كانوا يمارسونه من تحرشات وأذى، يقولون لي: أنت ما زلت تلك الفتاة الجيدة!

ولأنني لم أعد أملك القدرة على إظهار رد فعل كما كنت أفعل من قبل أمام هؤلاء الوقحين، كنت أتوتر وأضطرب. وعندما كانوا يرون أنهم لا يستطيعون إخضاع المرأة المجاهدة بأي نوع من التعذيب أو بأي أسلوب آخر، كانوا يلجؤون إلى هذه الحيلة الدنيئة.

في مثل هذه المواقف، كنت أحيانًا أبكي من شدة الضغط، لكن بعد لحظات كنت أقول لنفسي: لا تنسي أنهم يريدون كسرك بهذه الدناءات أيضًا. هذا أيضًا مثل السوط، فما الفرق؟! وبهذا التذكير لنفسي، كنت أهدأ، وأشعر أنني اكتسبت قدرة أكبر على الصمود أمام تلك الأفعال.

لفترات طويلة، كانوا يأتون كل يوم مثل سوط ينهال، يمسكون بطرف شادوري ويأخذونني من دون أن يقولوا شيئًا حتى لا يلاحظ أحد، حتى من كان في عنبر القفص، ثم يخرجون بي إلى خلف الباب مباشرة ويفعلون بي هذه الأمور.

كنت قد بقيت عدة أشهر ليلًا ونهارًا جالسة في القفص، ولم أكن أسمح لأحد أن يشعر بدموعي الناتجة عن الألم والضغط الذي كنت أتعرض له. لكنني كنت أحيانًا أنهار أمام هذه الرذائل الدنيئة للملالي، وأشعر أنني لا أملك القدرة على الصمود أمامها. كان كل صوت خطوات يأتي بالنسبة لي كابوسًا: من هذا الشخص هذه المرة؟ وماذا يريد أن يفعل بي؟

في أحد الأيام قررت أنه مهما كان الشخص الذي يأتي، فسأهاجمه بكل ما لدي من قوة. ركزت ذهني حتى أعرف هل هناك شخص يقترب مني أم لا.

حتى رأيت من تحت عصابة العين أن شخصًا يقترب مني. جمعت كل قواي وركلته. ذلك الحيوان، الذي كان قبل دقائق شاهدًا على سقوطي على الأرض ولم يكن يتوقع مثل هذا الرد مني، وجه إلي ضربات باللكم والركل، وبعد عدة دقائق أعادوني إلى داخل العنبر، أي إلى نفس القفص.

كنت سعيدة جدًا، وفي الوقت نفسه كنت أشعر بالخجل والندم: لماذا لم أفعل ذلك في وقت أسبق؟ ومرة أخرى تعلمت هذا الدرس: إن السجين الأسير، عندما يهاجم في أي مكان، يتراجع الجلاد.

في صباح اليوم التالي، جاؤوا وأخذوني للاستحمام. كلما كانوا يأخذون شخصًا إلى الحمام، كانوا يفحصون الحمام أولًا حتى لا يكون الشخص السابق قد ترك أثرًا من نفسه. لأن مجرد أن يعرف الإنسان أن أشخاصًا آخرين غيره موجودون هناك، وخصوصًا إذا عرف من هم، كان ذلك يمنحه الدافع. هم كانوا يريدون أن يوحوا لنا بأن الجميع قد استسلموا ورحلوا، وأنك وحدك من بقيت وأنك تهلكين نفسك!

في ذلك اليوم، عندما دخلت الحمام، لم تكن لدي القدرة حتى على الاستحمام، لكنني رأيت هناك حبل غسيل علقت عليه عدة قطع من الملابس. اقتربت منه وقرأت على ياقة تلك الملابس أسماء بعض الرفاق. رأيت صبانة صغيرة كتب عليها اسم "شوري"، ورأيت ليفة في زاوية أخرى كتب عليها اسم واحدة أخرى من الأخوات. عندما رأيت هذه الأشياء شعرت بسعادة كبيرة، وكأنني رأيت أولئك الأخوات بأنفسهن. كنت سعيدة إلى

درجة أنني كنت أضحك مع نفسي من الفرح، ومع أن وقتي المتبقي من عشر دقائق لم يكن قد تجاوز خمس دقائق، فقد امتلأت بهذه الحيوية لدرجة أنني خلال تلك الدقائق الخمس فقط استحممت، وغسلت ملابسي، ووقفت مستعدة، وبدأت أنظر إلى تلك الملابس.

عندما جاءت السجانات لأخذي، لاحظن أنني أحدق في الملابس وأنظر إليها. كنت أتعمد النظر إليها لكي أستفزهن، ولكي أقول لهن: اعلموا كم أنتن حمقاوات وعاجزات. سحبت السجانة طرف شادوري بغضب وأخذتني معها، وبينما كانت توجه إلي الشتائم قالت: لا أعرف أصلًا لماذا يأتين بك أنت بالذات إلى الحمام! وكنت أضحك في داخلي وأقول: واحد أمام لا شيء، لصالحي هذه المرة!

في تلك الحرب المستمرة، كنت قد عقدت عهدًا مع نفسي بأن يكون لي كل يوم انتصار وفوز. كان هذا الشعور بالانتصار، رغم كل الألم والمعاناة، إحساسًا رائعًا وحلوًا بصورة استثنائية.

كان الجلادون، بهدف تحطيمنا من الداخل، يمرون أحيانًا من فوق رؤوسنا، ويذكرون كذبًا اسم إحدى الأخوات اللواتي كانوا يعلمون أن بيننا وبينها علاقة حميمة وقريبة، ويقولون: انظري، فلانة قد استسلمت وذهبت لتلحق بحياتها، وهذه المسكينة جالسة هنا وتزول شيئًا فشيئًا.

بعد ذلك، عندما خرجنا من القفص، كانت الأخوات اللواتي كن في العنبر يروين أن "غيستابو" كانت تقوم كل يوم بجولة داخل العنبر، وتتحدث همسًا مع الخائنات، وكان يذكر أسماء بعض الأخوات اللواتي كن في القفص بطريقة يسمعنها، وتقول: أعظم، شوري، هنكامه، أو... غدًا سيأتين

للمقابلة... وكان هؤلاء وبهذه الطريقة يحاولون تحطيم معنويات الأخوات في العنبر.

كان هذا أسلوبًا يستخدمونه مع الجميع. ومن جهة أخرى، كانت الأخوات، حتى يخبر بعضهن بعضًا بأنهن ما زلن موجودات، عندما يذهبن إلى المرحاض أو عندما يمررن بجانب الأقفاص الأخرى، يصدرن صوتًا بالسعال أو العطاس، أو يفتعلن أعذارًا مختلفة لإصدار صوت، أو يقلن "آه". وكانت كل واحدة تعرف طبعًا أن ثمن هذا الفعل هو الضربات التي ستأتي بعدها. لكن الأخوات كن يتحملن الضربات ويشترينها بأرواحهن من أجل الحفاظ على التواصل بينهن.

في إحدى الليالي، نادوا اسمي واسم خمس أخريات، وأخرجونا. إحدى تلك الأخوات التي بقيت صورتها في ذاكرتي كانت أختي المجاهدة الشهيدة "سبيدة زركر"، وكانت ممرضة لها ١٢ عامًا من الخبرة في العمل. وبسبب الضغوط التي تعرضت لها خلال تلك الأشهر، والضربات التي وجهت إلى رأسها، كان بصرها قد ضعف بشدة، ولم تعد ترى من دون نظارتها. بل إنهم كانوا غالبًا يأخذون منها تلك النظارة أيضًا. وأعدمت "سبيدة" لاحقًا لأنها رفضت الذهاب إلى المقابلة تحت الضغط.

نقلونا من الوحدة رقم ١ إلى وحدة أخرى، وإلى مكان كان بجانب جداره عدد من عوارض الحديد. وأجبرونا على الوقوف هناك عدة ساعات في ذلك الممر. وبعد ساعات عدة، شعرت أن رأسي بدأ يدور، وأنني لم أعد أملك التوازن أو القوة الكافية للوقوف. عندما قلت ذلك للسجين الموجود هناك، قال لي: أنت منافقة وتقومين بالتمثيل! لم أفهم إلا من صوت سقوط رأسي أنني

وقعت، وعندما سقطت اصطدمت بإحدى الأخوات، فسقطت هي أيضًا إلى جانبها.

عندما وقعنا، جاء أفراد الحرس إلينا، وسمعت أحدهم يقول للآخر: انظر هل ما زالت حية أم لا؟ وكانوا، وهم مرتبكون قليلًا، يقولون لبعضهم: هؤلاء المنافقون يفعلون أي شيء لكي يقولوا إنهم هم من قتلونا!

في عنبر القفص أو عنبر القيامة، كان الوضع الصحي منخفضًا جدًا، وكنا محرومات من الحد الأدنى من الشروط الصحية. فعلى سبيل المثال، في هذا العنبر لم يكن لدينا حمام لمدة عشرين يومًا. وبعد هذه المدة، عندما أرسلونا إلى الحمام، لم يمنحونا سوى عشر دقائق فقط لغسل الملابس والاستحمام.

وكان الجلادون، الذين كانوا يريدون في كل تصرف يقومون به أن يهينونا ويؤذونا، قد أعطونا وعاءً بلاستيكيًا لغسل الملابس، وكان مليئًا بماء قذر كانوا قد مسحوا به الأرض. سلمتني السجانة ذلك الوعاء نفسه وقالت: تعالي أيتها المنافقة! هذه هي الأوساخ تحت أقدامكن، أفرغيه واستعمليه!

لكنني، إذ لم تكن لدي رغبة إطلاقًا في غسل ملابسي في ذلك الوعاء، لم استخدمه. وفي ذلك الوقت القصير جدًا، غسلت ملابسي بيدي، واستحممت، وخرجت. لأننا لو لم نخرج في الموعد المحدد، كانوا يفتحون باب الحمام ويقولون: إما أن تخرجي بنفسك أو نسحبك إلى الخارج.

وكانت لدينا المشكلة نفسها أيضًا في الذهاب إلى المرحاض. ففي الليل والنهار، لم يكونوا يسمحون لنا بالذهاب إلى المرحاض سوى ثلاث مرات فقط: صباحًا وظهرًا وليلًا، إذا شاؤوا هم ذلك.

وفي محيط القفص أيضًا، ومن أجل خلق الرعب والخوف، كانوا يخرجوننا من الوحدة بين حين وآخر بحجة الاستجواب، ويدورون بنا حول الوحدة أو ينقلوننا إلى وحدة أخرى. وأحيانًا كانوا يركبوننا في السيارة ويدورون بنا، ويخلقون أجواء الإعدام، ويقولون: اتخذي قرارك النهائي! إما أن تصبحي إنسانة أو ترتاحين إلى الأبد!

وكانوا يستخدمون أسلوبًا آخر، إذ كانوا يأخذوننا يوميًا إلى مدخل العنبر، ويبقوننا هناك لعدة ساعات واقفات. كانوا يريدون إبقاء السجينة باستمرار في حالة من الخوف والقلق طوال فترة الاستجواب.

وكان من أساليبهم الأخرى في بث الرعب أنهم كانوا يشغلون لنا أشرطة صوتية لتعذيب أشخاص آخرين. كانوا يتصرفون بطريقة تجعل السجين يعيش باستمرار في حالة من القلق والخوف من الاستجواب. كان هدفهم من ذلك هو إنهاك الشخص بهذه الطرق، وفي النهاية دفعه إلى الانهيار والتراجع والشعور بالندم.

الفصل الخامس:

نهاية الصراع!

هزيمة عنبر "القيامة"

استمر عنبر القفص أكثر من سبعة أشهر، إلى أن جاء في أحد الأيام أشخاص موفدون من قبل "حسينعلي منتظري" إلى السجن ودخلوا عنبر القفص، وتحدثوا مع واحدة أو اثنتين من الأخوات. وسألوا إحداهن: أخبريني، ماذا يجري هنا؟ فأجابت: أنا معصوبة العينين ولا أرى ما الذي يجري، أما أنت فلا تضع عصابة على عينيك، فانظر بنفسك لترى ما الذي يحدث !ثم جاء ذلك الملا ووقف أمامي وقال: لا تنسبوا هذه الأفعال إلى الإسلام، لقد جئنا للتحقق من أوضاع هذا المكان!

وتزامن ذلك مع إبعاد الجلاد "لاجوردي"، ظاهرًا. وبدا أن النظام، بعدما لم يحقق غايته من تلك الأساليب، أراد أن يوحي بأن الأوضاع قد تغيرت. إلا أن لاجوردي، رغم إبعاده ظاهريًا، ظل مكتبه في الطابق الثالث من مبنى النيابة، وقد أكد كثير ممن أحيلت ملفاتهم إلى النيابة بعد الإفراج أنهم رأوه هناك مرارًا.

على أي حال، تحدث أولئك الأشخص يومها ببعض الكلمات، وصوروا المكان بأكمله، ثم غادروا. وبعد ثلاثة أيام، بينما كنا لا نزال جالسات في المكان نفسه، جاءوا وأزالوا الألواح، كما نزعوا العصابات عن أعيننا. وبعد سبعة أشهر كاملة، أصبحنا نرى بعضنا بعضًا من جديد.

وحين أزيلت العصابة عن عيني، وقع بصري فجأة على "شوري" بوجهها المشرق وابتسامتها الجميلة. ثم نظرت إلى الجهة الأخرى، فإذا أنا بـ"هنكامة" تبتسم لي بعينيها المليئتين بالمشاكسة كما عهدتها دائمًا. كان ذلك منظرًا لا يصدق؛ أجمل ما وقعت عليه عيناي بعد سبعة أشهر من

العيش معصوبة العينين. شعرت وكأن الدنيا كلها قد وضعت بين يدي. فبادلت الجميع الابتسام. ثم رأيت عزيزتي "سبيدة" تجلس غير بعيد، وكانت تخاطبنا بنظراتها من بعيد، وكأنها تقول: أرأيتن يا أخوات؟ لقد انتصرنا!

وبينما كنت أحدق في الوجوه بصمت، غلبتني دموعي من شدة الفرح. وبعد أن غادر العملاء وبقينا وحدنا، جاءت "شوري" واحتضنتني وقالت: أعظم، لماذا تبكين؟ وضعت رأسي على كتفها، وأطلقت العنان لدموعي. فأخذت تربت علي بحنان وقالت: أرأيت؟ لقد انتهى كل شيء. فقلت لها: شوري، أشعر أنني نسيت كل شيء، وكأنني أصبحت متخلفة عقليًا.

رفعت رأسي، ونظرت في عيني، ولن أنسى أبدًا وجهها الحنون ولا ذلك البريق في عينيها؛ بريقًا كان يشع تصميمًا وإرادة وعزمًا لا يتزعزع. ثم قالت لي: أعظم، أتبكين؟! البكاء ليس من شيم المجاهدة! لم يحدث شيء!

كانت "شوري" طبيبة. وحين رويت لها شيئًا مما كنت أعانيه جسديًا، أصغت إلي بكل مودة وصبر، ثم قالت: كل هذا نتيجة الضعف الجسدي الناجم عن قلة أكل الطعام. ستستعيدين قوتك، وستعود إليك ذاكرتك تدريجًا... فقلت لها: شوري، أما دموعي التي ذرفتها من أجل نفسي فسأستردها، أما تلك التي سالت فرحًا برؤيتكن، فاقبليها! فضحكت ضحكة عذبة... وكانت "هنكامة" تقف إلى جانبي، تحاول بنظراتها أن تحدثني، وكانت بقية الأخوات كذلك؛ يتخاطبن بالعيون، ويروين لبعضهن، بلغة لا تحتاج إلى كلمات، حكاية الأشهر السبعة التي لا يمكن أن تحتويها العبارات. كانت حكاية لا تختصرها إلا جملة واحدة: "الصراع من أجل البقاء إنسانًا".

نهضت ووقفت، ثم رأيت بقية الأخوات. وكلما رأت إحداهن الأخرى، كانت تطلق، دون إرادة، صيحة خافتة امتزج فيها الفرح بالذهول: "يا إلهي! كيف أصبحت هكذا؟"!

كن الأخوات، خلال تلك الأشهر السبعة أو الثمانية، قد شخن وتهالكن وكأن خمسة عشر أو عشرين عامًا قد مرت عليهن. ولأنه لم تكن هناك مرآة، لم تكن أي واحدة ترى وجهها أو حالتها الخارجية، فكانت كل واحدة تشفق على الأخرى، دون أن تدري أن المصير نفسه قد حل بها أيضًا.

وكانت رؤيتي لكل واحدة من الأخوات تشرح صدري شيئًا فشيئًا. ولأنني لم أكن أستطيع الجلوس، أخذت أمشي، حتى وصلت إلى "هنكامة"، التي كنا معًا طوال فترة القفص. وكانت، كعادتها، مفعمة بالحيوية والمشاكسة؛ تتحدث بسرعة وبصوت مرتفع، وتثير الضجيج، وتمزح مع هذه وتلك، وتقلد "الحاج".

خشيت أن يكون بين الخائنات من تسمعها، فيتخذوا منها ذريعة جديدة ضدها، فقلت لها: يا فتاة، اخفضي صوتك قليلًا حتى نعرف أولًا ماذا يجري في الخارج! فأجابت، بروحها الهجومية المعهودة: "دعك من هذا! ماذا بقي أصلًا ليأخذه منا "الحاج"؟! ماذا يستطيع أن يفعل بنا أكثر مما فعله؟!

ثم واصلت ضجيجها، بينما كنت أكتفي بالنظر إليهن. ومن مجرد رؤيتهن، كنت أشعر وكأن الحياة تعود إلى جسدي، وكأن خلاياي تمتلئ من جديد بمادة الحياة. وكان قلبي يغمره الفرح لأننا جميعًا، معًا، هزمنا العدو بكل ما امتلكه من رذالة، وكنت أغرق شعورًا بالفخر والاعتزاز لأنني كنت إلى جانب أولئك البطلات.

كلما نظرت إلى واحدة من الأخوات، كنت أرى في وجوههن ونظراتهن، التي امتزج فيها الضحك بالبكاء، عالمًا كاملًا من الكلمات يتدفق بصمت. وكأنهن، مثلي، كن يقلن لبعضهن البعض بعيونهن: يا "لاجوردي"، أرأيت كيف انهارت نظريتك الإجرامية انهيارًا مخزيًا؟ أرأيت كيف مرغنا كبرياءك في التراب؟ وكنت أقول في نفسي مخاطبة "حاج رحماني": أيها الجبان الأحمق! لماذا اختبأت الآن؟ لماذا لم تعد تتبجح؟ تعال وانظر من هو البطل حقًا!

كنت أعد اللحظات انتظارًا للعودة إلى العنبر، لأرى بقية الأخوات. فكنا نسمع دائمًا، عبر مكبرات الصوت التي كانت تبث الاجتماعات في ممر الوحدة الثالثة، عنبر النساء، أنهم كانوا يقولون للسجينات: هناك مكان يشبه القيامة...

كانوا يريدون بهذه الأحاديث أن يصنعوا في نفوسهن كابوسًا، وأن يحطموا مقاومتهن داخل العنابر. ولذلك كنت أتوق إلى العودة سريعًا، لأحكي لهن قصة هزيمة عنبر "القيامة". كم كنت أشتاق إلى كل واحدة منهن! كنت أشعر أن لدي لكل واحدة منهن عالمًا من الكلام، ولا بد أن عندهن أيضًا الكثير ليقلنه لي. فلا شك أن أمورًا كثيرة قد جرت في العنبر خلال تلك الأشهر...

وهكذا انتهى ذلك "الجحيم و القيامة" الذي استمر سبعة أشهر ونصف، والذي كان في حقيقته صراعًا ضروسًا بين خميني ومجاهدي خلق، بانتصارنا وهزيمة العدو هزيمة قاطعة.

كان هذا العدو المعادي للإنسانية قد أنشأ هذا العنبر وهو يتوهم أنه خلال أسبوع، أو في أقصى الأحوال شهر، سيصل جميع سجناء مجاهدي خلق إلى

حافة الانهيار، فيرفعوا راية الاستسلام والتوبة. وكان "لاجوردي" الجلاد، بعد أن أخفقت كل حملات الإعدام التي أشرف عليها في استجواب غايتها، يظن أن المشكلة تكمن في عدم توفر عدد كاف من الزنازين الانفرادية، وأنه إذا وضع الجميع في ظروف العزل، فلن يبقى بعد شهر واحد أي سجين ثابتًا على موقفه.

ومن هذا المنطلق أنشأ عنبر "القيامة"، بتلك الأقفاص والتوابيت، التي كانت ظروفها أشد رعبًا من الزنازين الانفرادية نفسها. لكنهم في النهاية ارتد كيدهم عليهم، واضطروا إلى الاعتراف بهزيمتهم، وإلى إبعاد "لاجوردي"، ولو شكليًا، عن الأنظار مدة من الزمن، لعلهم يخففون، في ظنهم، من موجة السخط واللعنات التي جلبها عليهم، ويغيروا واجهة المشهد.

فهم لم يكونوا يعرفون إلا الكائنات الحقيرة من طينتهم، ولم يدركوا حقيقة الإنسان ولا القوة الكامنة فيه؛ الإنسان الذي يعقد العزم على المقاومة، ويصر على أن يبقى مجاهدًا.

عنبر "العزل"

بعد أن جمع الجلادون الأقفاص، أدركوا أنه لا يمكن نقل الأشخاص الذين خرجوا من الأقفاص مباشرة إلى العنابر العامة. فالأخوات، بعد ٧ أشهر من الجلوس المتواصل معصوبات الأعين وتحمل تلك الظروف الجهنمية، لم تكن أي واحدة منهن في حالة جسدية طبيعية، بل كانت كل واحدة منهن وثيقة حية على جرائم النظام ووحشيته وطبيعته الافتراسية. ولو أنهم أدخلونا إلى العنابر، وحتى لو افترضنا أنهم لم يسمحوا لنا نحن أنفسنا بالزيارة، فإن

الأخوات الأخريات كن سيخبرن عائلاتهن أثناء الزيارات عن وضعنا، ولكانت الأخبار قد انتشرت بين العائلات.

لذلك رأوا أن من مصلحتهم أن يحتفظوا بنا مدة من الزمن، امتدت لشهرين، في المكان نفسه، أو حسب تعبيرهم في "العزل" (كانوا يسمونه "الحجر")، حتى تستقر أوضاعنا قليلًا، ثم ينقلونا إلى العنبر.

فعلى سبيل المثال، كانت عيون إحدى الأخوات قد انحرفت بسبب بقاء عينيها معصوبتين سعبة أشهر والنظر من أسفل العصابة، وكانت أعين جميعنا قد أصابها الانحراف. كما أن معظمنا لم تكن لدينا القدرة على الوقوف على القدمين أو المشي.

لكن خبر القفص كان قد انتشر بشكل أو بآخر بين العائلات، وكان أفراد العوائل الذين لم يكونوا قد تلقوا أي خبر عن أبنائها منذ أشهر، يراجعون أجهزة النظام ومسؤوليه مطالبين بالسماح لهم بلقائهم. ونتيجة لذلك، اضطر النظام إلى أن يمنح بعض الرفاق، بعد شهر واحد، لقاءات مع عائلاتهم التي كانت تمارس ضغوطًا من الخارج.

وبعد ثمانية أشهر، كانت العائلات التي سمح لها بلقاء أبنائها قد صدمت من رؤية أوضاعهم الجسدية، وكانت تسعى لمعرفة ما الذي حدث حتى أوصلهم إلى هذه الحالة.

وخلال فترة سجني التي استمرت أكثر من خمس سنوات وستة أشهر، كنت محرومة تقريبًا من الزيارات. كانت أختي الكبرى "مهين"، عندما أطلقت سراحها بعد عامين من الأسر، تراجع السجن بشكل مستمر لعدة سنوات من أجل الحصول على زيارة لي ولأختي الصغرى "نجمة"، وكانت تنتظر

ساعات طويلة خلف أبواب سجني "إيفين" و"قزل حصار"، لعلها تتمكن ولو لمرة واحدة من لقائي ولقاء أختي التي كانت قد أنجبت أيضًا أحد طفليها في السجن. لكن طوال هذه الفترة، لم يمنحوها الزيارة ولو لمرة واحدة، بل لم يكونوا يعطونها حتى جوابًا واضحًا: هل نحن في إيفين أم في قزل حصار؟ هل نحن أحياء أم أموات؟ وكانوا يتركونها في حالة من الضياع وعدم معرفة المصير.

كانت "مهين"، وهي تحمل بين ذراعيها أحد طفلي نجمة المصاب بالشلل، تتابع لسنوات، في البرد والحر، محاولاتها للحصول على زيارة لنا. لكنها طوال هذه المدة لم تكن تتلقى أي جواب، بل كانت تواجه باستمرار تهديدات وترهيب أفراد الحرس. إلى أن اضطروا أخيرًا، بعد انتهاء فترة القفص وبسبب انتشار خبرها بين الناس، إلى السماح لها بزيارتي وزيارة "نجمة" مرة أو مرتين. لكنهم سرعان ما قطعوا هذه الزيارات من جديد.

كان طعام عنبر "العزل" خلال هذه الفترة، في أغلب الأوقات، عبارة عن "مرق اللحم". وكان هذا المرق، كما كانوا يسمونه، يتكون من قطعة عظم واحدة، وقطعة بطاطًا واحدة، وملعقة ماء. حتى إنه لم يكن من الممكن إطلاق اسم "طعام" على ما يقدمونه، لأن ذلك الطعام في الواقع لم يكن يكفي حتى للحفاظ على البقاء على قيد الحياة.

العائدات من عنبر "الوحدة السكنية"

كانوا قد أعادوا بعض السجينات اللواتي أرسلن إلى وحدة "الوحدة السكنية"، وجاؤوا بهن إلى عنبر "العزل". كانت الكثيرات منهن قد فقدن توازنهن النفسي بسبب الضغوط الجسدية والروحية التي تعرضن لها، ومن بينهن فتاة جامعية تدرس الهندسة الميكانيكية تدعى "شيوا"، أصيبت باضطراب شديد في حواسها وإدراكها. كانت "شيوا" التي كانت تتمتع بذكاء استثنائي وذهن خلاق وموهبة كبيرة، قد تحولت خلال فترة وجودها في وحدة "الوحدة السكنية" إلى مريضة نفسية كاملة، كانت تعاني بشدة من الاختلاط بالآخرين ومن الأوهام، وكانت تبتعد عن جميع الفتيات.

كان لدى شيوا صندوق كرتوني وضعت بداخله صينية وملعقة وكوبًا ومصحفًا وكتاب أدعية وسجادة صلاة. كانت تضع هذه الأشياء أمامها، كما كانت تضع بطانية ووسادة خلف رأسها. وبهذه الطريقة صنعت لنفسها مساحة لا تتجاوز ٧٠ سنتيمترًا، وكانت تقول: لا ينبغي لأحد أن يقترب مني داخل هذه المساحة. وفي إحدى المرات، في المرحاض، عندما تناثر قليل من الماء من يدي عليها، ظلت تضرب رأسها بكلتا يديها لمدة عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة! إلى درجة أنها فقدت وعيها وسقطت. بقيت نصف ساعة ملقاة في المرحاض، ولم يجرؤ أحد على الذهاب لرفعها، لأنها لو علمت أن أحدًا لمسها، لأقامت ضجة كبيرة.

وكانت "فرزانة" مثالًا آخر. كانت ترتدي دائمًا قميصًا أحمر طويلًا، وتتجول في العنبر وهي تتحدث مع نفسها، تضحك وتبكي، وكانت تجلس ساعات طويلة أمام حقيبتها وتنظر إليه. أو كانت تنام، أو تذهب وتقف فوق رؤوس

الأخوات وتحدق بهن، بحيث كان المرء يظن أنها تريد خنق إحداهن. أو كانت تجلس في الحمام أو المرحاض وتفتعل مشاهد مقززة ومؤلمة لا يمكن وصفها.

وهكذا كانت "الوحدة السكنية" التي كانت أكثر رعبًا من عنبر القفص، قد تسببت في أن يفقد عدد من السجينات توازنهن النفسي بشكل غير قابل للعلاج.

بعد شهرين من بقائنا في "العزل"، وحين أصبح مظهرنا الخارجي طبيعيًا إلى حد ما، أعادونا مرة أخرى إلى العنبر الثامن، وبقينا هناك أيضًا مدة شهر.

في العنبر الثامن، كانوا يسلطون الخائنات علينا. كانت مهمتهن أن يستفززننا من خلال الجدال والمشادات معنا، وأن يدفعن الأمور إلى الشجار، ويصنعن ذريعة وحجة لممارسة الضغط علينا. لكن هذه المحاولات لم تجد نفعًا كثيرًا، لأن قصة القفص كانت قد انتشرت بشكل واسع بين العائلات، كما أن القضية كانت قد طرحت بين فئات من الناس وأصبحت، كما يقال، قضية اجتماعية. وكانوا قد أطلقوا على العنبر الثامن، الذي كان معروفًا طوال السنوات بأنه عنبر تأديبي، اسم "عنبر الحرية!"

كما نقلوا إلى العنبر ٨ مجموعة من السجينات من العنابر الأخرى اللواتي انتهت مدة سجنهن، وكذلك عددًا ممن قالوا، حسب تعبيرهم، إنهم منحوا العفو، ونقلوا السجينات اللواتي كن قد نقلن من القفص إلى هناك، إلى العنبرين ٣ و٤. أما أنا فنقلت إلى العنبر ٤.

كان هدفهم أن يخرجوا، حسب تصورهم، العنبر ٨ من وضعية عنبر تأديبي ومركّز، وأن يعيدوا إليه وضعًا عاديًا. لكن رغم هذه الإجراءات، كانوا يبقون

العنبر دائمًا تحت سيطرتهم، ويدخلون إليه عددًا من العميلات والسجانات الجديدات للسيطرة على الوضع.

وكانوا يقومون بذلك طبعًا بحيلة وتحت غطاء أجواء الحرية. فمثلًا كانوا يقولون إن كل شخص يستطيع أن يتحدث مع من يشاء وأن يدرس ويطالع، لكنهم كانوا يتذرعون بأسباب مختلفة للتضييق على السجينات وإزعاجهن.

ذات مرة، وبسبب الضعف الجسدي الشديد الذي كنت أعاني منه، لم أكن أستطيع لا المشي كثيرًا ولا حتى الجلوس، ولذلك كنت أقضي معظم الوقت في حالة استلقاء. وكانت بعض الخائنات في العنبر يمشين معًا، ويقمن بنظرات ساخرة، ويشرن إلي ويقلن إن هؤلاء، من خلال هذه التصرفات، يحاولون خلق أجواء وإيحاء بأنهم يريدون القول إننا كنا تحت الضغط.

كانت جميع زنازين قزل حصار تحتوي على أسرة ثلاثية الطوابق. وفي إحدى المرات، عندما أردت الصعود إلى السرير العلوي، وما إن رفعت قدمي حتى أصابتني تشنجات عضلية مفاجئة، وتحولت إلى حالة أشبه بالشلل، فلم أعد قادرة على الحركة. عندها ساعدتني الأخوات وأنزلنني من سريري، ثم وضعنني في أحد الأسرة الموجودة في الطابق السفلي.

ولأن سريري كان بجانب قضبان الزنزانة، كانت الخائنات يأتين مجددًا إلى الممر، ويجلسن خلف القضبان، ويتعمدن الحديث مع بعضهن البعض لإيذائي واستفزازي، ويسخرن مني، ويلقين عبارات تهكمية ويضحكن. لكنني، بما أنني كنت أعلم أن كل هذه التصرفات كانت تهدف إلى خلق أجواء للصدام وإثارة الفوضى داخل العنبر، لم أكن أعير أي اهتمام لهرائهن.

وبعد ذلك قامت الأخوات بتغيير مكاني، وبذلك فشلن في تنفيذ المخطط الذي كن قد أعددنه.

انعكاس "الثورة الإيديولوجية" داخل السجن

كان ذلك في أوائل يوليو ١٩٨٥. كانت فترة عنبر القفص قد انتهت للتو، وكان النظام قد بدأ يستعرض ما أسماه "تغيير النهج"، في محاولة للتستر على الفضيحة التي تسبب بها، والتي أدت إلى تعميق التناقضات داخل أجهزته.

في إحدى الليالي، كنت مستلقية في مكاني كالمعتاد. كانت الساعة تقارب ٨ مساء. وعلى خلاف ما اعتدنه السجانات، إذ كن يتحججن دائمًا بأي ذريعة لحرماننا من الصحف، وزعن في ذلك اليوم عددًا من الصحف دفعة واحدة. اندهشنا جميعًا، وتساءلنا: ماذا حدث؟ وكانت الأخوات يقلن مازحات وبنبرة ساخرة: يبدو أن الأجواء السياسية أصبحت أكثر انفتاحا!

ولم تمض سوى لحظات حتى بدأ الهمس يعم المكان، ثم بدا الأمر وكأن زلزالًا قد وقع. راحت الجميع يهرولن في كل اتجاه، وهن يرددن بصوت عال وفرح: هل رأيت ما الذي نشروه؟ وكانت كل من تقع عيناها على الخبر تصرخ من شدة الفرح: يا إلهي...! ما أروع هذا...! ثم تنطلق مسرعة نحو الأخوات الأخريات لتريهن ما قرأته.

لم أكن أستطيع المشي، لذلك كنت في غاية الفضول والانفعال، وكنت أشعر أن أمرًا بالغ الأهمية يجري من حولي وأنا آخر من يعلم به. أخذت

أنادي الأخوات باستمرار وأسألهن: يا أخوات، ماذا حدث؟ ماذا كتب في الصحف؟ أرجوكن، بالله عليكن، أخبرنني أنا أيضًا!

لكن لم تجبني أي واحدة منهن في تلك اللحظات. وكل ما استطعت أن أفهمه من أحاديث الأخوات أن الأمر يتعلق بـ"الأخ مسعود" و"الأخت مريم"، أما حقيقة ما جرى فلم أكن أعرفها.

عدت وقلت بصوت عال: يا أخوات، بالله عليكن، أخبرنني أنا أيضًا... وفجأة أسرعت "بهشتة" نحوي، وقالت وهي تضحك وتبكي في آن واحد: أغلقي عينيك حتى أريك شيئًا!

وأمام إلحاحها فعلت ذلك، ثم قالت: والآن افتحي عينيك.

وحين فتحت عيني، وجدت أمامي صورة لـ"مسعود" و"مريم" يقفان إلى جانب بعضهما! لم أصدق ما أراه. ومن شدة الانفعال بقيت أحدق في الصورة، ولم أنتبه إطلاقًا إلى العنوان المكتوب فوقها. وبعد أن ظللت أنظر إليها برهة، رأيت العنوان: تزوجت مريم عضدانلو من مسعود رجوي!

كانت جميع الأخوات، مثلي تمامًا، يفرحن لرؤية الصورة إلى درجة أنهن في اللحظة الأولى لم ينتبهن إلى العنوان. ثم ما إن يقرأنه حتى يبدأن بالتساؤل: ما الذي يعنيه هذا؟...

وكنا جميعًا ننظر إلى بعضنا بعضا بدهشة، ونسأل: ما القصة؟ وكانت نظراتنا وحدها كافية لتجيب: لا ندري... علينا أن نرى ماذا سيحدث.

ابتداء من اليوم التالي، اندلعت عاصفة حقيقية. فقد تحولت صحف النظام، في الواقع، إلى منشورات مليئة بالشتائم ضد منظمة مجاهدي خلق، وكانت تنسب إلى المنظمة وقيادتها كل ما تجود به أقلامهم القذرة.

ولأننا لم نكن نملك أي وسيلة أخرى لمعرفة الأخبار، كنا نقرأ تلك الصحف كلها. فكنا نوزعها بين الأخوات، ونقرأ بصبر وروية كل ذلك السيل من الشتائم والافتراءات، لنستخرج من بين سطورها ما يمكن أن يكشف لنا حقيقة ما جرى. وكلما عثرنا على عبارة بدا أنها تعكس جانبًا من الواقع، كنا ندونها ونتبادلها فيما بيننا.

ذلك لأننا كنا نعرف حقيقة واحدة جيدًا، وقد تعلمناها وعشناها بجلودنا طوال سنوات السجن، وهي أنه لا ينبغي تصديق ما يقوله الجلاد، بل يجب استخراج الحقيقة من بين سطوره. وكنا نعلم أيضًا أنه إذا كان النظام قد اشتعل غضبًا إلى هذا الحد بسبب هذا الإجراء، فلا بد أنه كان عملًا بالغ الأهمية، وألحق به ضررًا كبيرًا.

وأتذكر أن إحدى الصحف أشارت إلى سورة "الأحزاب" في القرآن الكريم. وعلى الفور، أصبح الاطلاع على هذه السورة ومناقشتها من أولويات الأخوات. فكنا نجتمع اثنتين أو ثلاثًا، نقرأ السورة، ونحاول أن نفهم الصلة بينها وبين ما كان يجري.

ومنذ ذلك اليوم، بدأ النظام يعقد جلسات عامة في ممرات الوحدة الثالثة، وكان يحضر إليها عدد من عناصره، ممن لا أتذكر أسماءهم الآن، لمناقشة هذا الموضوع. أما نحن، فلم نكن نشارك فيها بصورة فعلية، بل كنا نوفد كل

يوم أختًا أو عددًا قليلًا من الأخوات بصفة ممثلات، لمعرفة ما الذي يجري وما الذي يقال.

واستمر الحال على هذا المنوال نحو أسبوع، إلى أن ذهبنا ذات صباح إلى مدخل العنبر فرأينا كتيبًا معلقًا على الجدران من جميع الجهات بعنوان "الثورة الداخلية لمجاهدي خلق"، بينما لم يكن في حقيقته سوى منشور مليء بالشتائم ضد جميع قيم المنظمة.

وفي تلك الأيام، كانت العميلات والخائنات المنشقات يتحركن بحرية أكبر، وظنن أنهن حصلن على فرصة ذهبية لممارسة المزيد من الضغوط على الأخوات.

ومنذ أبريل ١٩٨٦، بدأت تعقد جلسات عامة في ممر الوحدة الثالثة، وكان حضورها إلزاميًا لجميع السجينات. وكانت هذه الجلسات تدار من قبل الملا الأنصاري ومساعدي المدعي في سجن إيفين، وجميعهم من العنبر ٢٠٩.

كان النظام قد أعد حملة واسعة، معتقدًا أنه يستطيع استغلال انقطاعنا عن الأخبار، أن يحطم الصمود في السجن. غير أن هذه الحرب النفسية لم تحقق أي نتيجة، ولم تستطع، على حد علمي، أن تكسب حتى سجين واحد إلى صفها.

أما نحن، فبفضل ذلك القدر المحدود من المعلومات المتفرقة التي استطعنا جمعها، تمكنا، في حدود ما كان متاحًا لنا، من فهم جانب مما جرى، وأصبحنا أكثر صلابة وثباتًا في مواجهة الجلادين.

أتذكر أن الأخوات، في أي عنبر أو في أي مكان كنا نلتقي فيه، كن يسألن بعضهن بعضا: ماذا فهمت؟ وكان معظمهن قد توصلن، بدرجات متفاوتة، إلى أن "مريم" تريد أن تكسر القيود والأغلال التي تكبل عقول الآخرين، ولا سيما القيود المفروضة على المرأة.

وكانت الأخوات يشعرن بالفخر لأنهن خرجن من مؤامرة النظام هذه مرفوعات الرأس، ولم يتمكن النظام من استغلال أي واحدة منا كورقة رابحة لصالحه. وكان الجلادون يزدادون حنقا لذلك، وحين أدركوا أنهم أخفقوا، عادوا من جديد إلى أساليب العنابر التأديبية، والضرب، والتعذيب.

النقل إلى سجن إيفين

بالإضافة إلى أن الخائنات في العنبر الرابع كن يلتفن حولنا باستمرار لجمع المعلومات، ومعرفة من تجالس من، ومن تقرأ كتابًا، ومن تتحدث مع من، فإن تلك العروض الشكلية، التي كان مضمونها: "اعذرونا، لقد وقع خطأ، ولا تنسبوا هذه الممارسات إلى الإسلام..." لم تستمر أكثر من ثلاثة أشهر.

ثم أعادوا من جديد إدخال عدد من السجانات من عناصر الحرس إلى العنبر الرابع حيث كنا نقيم. وكن يتجولن بيننا، ويخترن بعض السجينات، تمهيدًا لإعادة فتح العنابر التأديبية من جديد. وهذا ما فعلوه بالفعل.

وبعد ثلاثة أشهر من إنهاء عنبر القفص، جمعوا مرة أخرى نحو ٧٠ سجينة، كنت إحداهن، من العنابر الثالث والرابع والسابع، ونقلونا إلى مدخل العنبر في سجن قزل حصار. وبعد أن أبقونا هناك ساعتين أو ثلاث ساعات، أمضوها في التهديد وإطلاق الألفاظ السوقية والبذيئة التي كانت تعكس

الثقافة المنحطة للنظام، والتي لم تكن تدور إلا حول الإهانات ذات الطابع الجنسي، نقلونا إلى سجن إيفين، وأسكنونا في العنبر الثالث، الذي كان قد أخلي بسبب تهالكه.

وهناك جاء "فكور" -وكان آنذاك رئيس سجن إيفين-، وقال في كلمة لم تخل من الشتائم والإهانات الموجهة إلينا: لقد جمعوا القمامة والنفايات من قزل حصار وألقوا بها هنا.

وعندما دخلنا العنبر، كان خاليًا تمامًا. وما إن دخل فكور إلى المرحاض ليتفقده، حتى انسكب فجأة فوق رأسه دلو مملوء بالقاذورات، فكان ذلك مشهدًا بالغ الفضيحة. فضحكت الأخوات جميعًا، وكان معنى تلك الضحكات واضحًا: أرأيت؟ أنت نفسك القمامة! وهذا هو جوابنا لك.

وقد أثارت تلك الضحكات غضب فكور بشدة، وانتقامًا لما حدث، اقتاد في اليوم الأول نفسه خمس سجينات إلى الاستجواب، ثم أعادهن بعد يومين وقد بدت عليهن آثار التعذيب الوحشي. وكانت "مهري وسهيلا رحيمي" وهما شقيقتان، من بينهن، أما أسماء الأخريات فلم تعد عالقة في ذاكرتي.

ومنذ ذلك الحين، وضعونا، نحن ٧٠ شخصًا، في ثلاث غرف مغلقة، ثم أخذوا، تباعًا، ينقلون عددًا آخر من الأخوات من قزل حصار، كما جمعوا بعض الأخوات السجينات القديمات إلى حد ما من مختلف عنابر إيفين ونقلوهن إلى هذا العنبر.

أما بالنسبة إلينا، فقد كان هذا التجمع باعثًا على السرور، إذ بعد سنوات قضيناها إما في عنبر القفص أو متفرقات في عنابر مختلفة، أصبحنا مجددًا معًا.

غير أن الجلادين، ومن أجل زيادة الضغط علينا، خصصوا غرفة كاملة للخائنات. فقد كان النظام، خلال تلك الفترة، قد عمل عليهن إلى درجة جردتهن من كل إنسانية، حتى تحولن إلى كائنات لا تختلف عن عناصر الحرس والجلادين والمعذبين. بل حتى في هيئتهن ومظهرهن أصبحن يشبهن عناصر الحرس، ولم يعد بينهن وبين الأخوات أي قاسم مشترك. ووفقًا للتعليمات التي تلقينها، لم يكن يترددن في ارتكاب أي دناءة بحق الأخوات. فكن يجبن العنبر كل يوم، يوجهن الشتائم إلى الجميع، ويستفزنهن بكل وسيلة.

وكانت السجانات يفتحن أبواب الغرف ثلاث مرات يوميًا ليأخذننا إلى المرحاض، كما كانت الأبواب تفتح ثلاث مرات أخرى لتوزيع الطعام.

وقد عشنا في تلك الفترة أيامًا مرة وأخرى جميلة. صحيح أن معظم الأيام كانت تقترن بهجمات وحشية تشنها العميلات ووحدة التدخل التابعة لسجن إيفين، التي كانت تقتحم المكان كجحافل المغول، تضرب وتحطم وتقتاد الأخوات؛ لكننا كنا نشعر أن كل ذلك ليس إلا جزءًا من مقاومتنا ومعركتنا ضد هذا النظام المعادي للإنسان، وأننا، من خلال صمودنا، كنا ندافع عن إنسانيتنا. ولهذا، كانت كل تلك المعاناة تكتسب بالنسبة إلينا معنى مختلفًا.

فعلى سبيل المثال، كانت في الغرف أجهزة تلفاز، لكن السجانات كن يأتين في كثير من الأحيان، وبذرائع مختلفة، ويصادرنها عقابًا لنا، حتى نحرم من أي مصدر للأخبار أو وسيلة للتسلية.

أتذكر أنه في تلك الفترة كان مسلسل تاريخي بعنوان "سربداران" (بالفارسية) يعرض على تلفزيون النظام. وبما أن هذا المسلسل كان يتناول إحدى الحركات النضالية في التاريخ القديم لإيران، فقد كانت الأخوات مهتمات به. ولهذا السبب، لم يكن الجلادون يرغبون في أن نشاهده، وكانوا يبحثون عن أي ذريعة لأخذ جهاز التلفاز. ونحن أيضًا، لأننا كنا ندرك ذلك، كنا نحاول ألا نعطيهم أي فرصة في هذا المجال وألا ندخل في صدام مع الخائنات.

عند بدء المسلسل، كن يأتين ويصرخن: أيتها المنافقات، لقد صمتن! ما القصة؟ مم تخفن حتى صرتن صامتات؟ ماذا حدث؟ هل أصبحتن فجأة من أهل مشاهدة الأفلام؟ كيف نسيتن النضال؟!

وكانت الخائنات يحاولن، بكل جملة يقلنها، استفزازنا كي نبدي ردة فعل، وندخل في مواجهة معهن، فيتمكن من أخذ التلفاز. لكنهن لم ينجحن في ذلك.

كانت الحلقة تعرض كل ليلة اثنين من كل أسبوع، في الساعة التاسعة مساءً. وكنا نجهز كل شيء قبل تناول العشاء. نأكل العشاء، ثم نجمع كل الأغراض ونرتبها، ونفرش البطانيات، وتجلس كل واحدة في مكانها.

ومع بدء الفيلم، كانت إحدى الأخوات تقوم بالعد: واحد، اثنان، ثلاثة!

وفور انتهاء العد، كنا جميعًا نتحرك بسرعة ونستلقي على جانبنا لمشاهدة المسلسل، لأننا لو تركنا لكل واحدة أن تنام بالطريقة التي تريدها، لما كان هناك متسع للجميع، ولذلك كنا ننتظر بداية المسلسل بهذه الطريقة.

قد يبدو هذا التصرف، للوهلة الأولى، مجرد لعبة أو حركة طفولية، لكن في تلك الظروف الجحيمية، في الوقت الذي كان النظام يريد فيه أن تقضي السجينات حياتهن في صمت مطلق ووحدة كاملة، كنا نحن على النقيض تمامًا؛ كنا ننجز كل أعمالنا بالتنسيق مع بعضنا، ونحوّل كل عمل عادي إلى وسيلة للترفيه، وإلى عامل يساعد على خلق الفرح والحيوية والمرح بيننا، وعلى تعزيز محبتنا لبعضنا البعض. ولم يكن بوسعنا مواجهة تلك الظروف القاسية والصمود تحت كل ذلك الضغط والإهانة والتعذيب إلا بهذه الطريقة.

ومن جهة أخرى، كانت العميلات اللواتي أزعجهن هذا التصرف منا يفتحن باب الزنزانة تمامًا عند الساعة التاسعة ويقلن: أيتها المنافقات، اذهبن إلى المرحاض!

لكن وكأنهن كن يتحدثن إلى الجدار، لم تكن إحدانا تتحرك من مكانها. كن يغتاظن بشدة، فيوجهن الشتائم والسباب، ثم يهددن قائلات: إنكن لن تحصلن حتى صباح الغد على المرحاض؛ ثم كن يغلقن الباب بقوة ويرحلن.

وكانت الجلادات ينزعجن من هذا التصرف منا إلى درجة أنهن، انتقامًا، كن في صباح اليوم التالي يؤخرن أخذ الأخوات إلى المرحاض عدة ساعات، بهدف وضعهن تحت مزيد من الضغط.

أسبوع من الإعدامات الوهمية!

كلما بدأ الجلادون وذيول الجلادين بالصراخ والضجيج، كنا ندرك أن هجومًا واقتحامًا جديدًا على وشك الحدوث، فنستعد له.

في أحد الأيام، سمعنا صراخ "حلوايي"، ذلك المجرم صاحب الصوت القبيح، الذي كان يصرخ من مدخل العنبر، طالبًا مواجهة السجينات ويقول: ما هو كلام هؤلاء المنافقات؟ من لديه كلام فليأت إلى هنا!

ثم بدأ يطرق باب العنبر بعنف، ودخل وهو يواصل صراخه. ذهب "حلوايي" إلى أبواب جميع الغرف وكرر الكلام نفسه. لكن لم تلتفت إليه أية واحدة منا.

لا أتذكر ما الذي حدث قبل ذلك، لأننا كنا دائمًا نطرق الأبواب ونطرح مطالبنا، وهي الحد الأدنى لحقوق أي سجينة. وعندما لم يسمع "حلوايي" أي جواب من أحد، قال: حسنًا جدًا، إذا لم يكن لديكن كلام، فنحن لدينا كلام معكن. ثم أمر الجميع بالخروج من الغرف. فخرجنا جميعًا من العنبر.

كان فصل الشتاء، وكان الطقس شديد البرودة. وكان إيفين، الواقعة عند سفوح جبال شميران، أبرد من طهران بعدة درجات.

لم تكن الأخوات يملكن أحذية، فاضطرت كل واحدة منهن إلى ارتداء زوج من النعال، وبعضهن لم يجدن سوى نعلين ممزقين بالكاد يثبتان في القدم. ثم انطلقنا جميعًا في الطريق.

لم نكن نعرف إلى أين نذهب. أخرجونا وأعيننا معصوبة. وبينما كنا نسير، شعرنا بأننا عند الجدار خلف العنبر ٢٠٩. ومن هناك بدأ طريق صاعد،

فصعدنا ذلك المنحدر جميعًا الواحدة خلف الأخرى في صف، ووصلنا إلى أرض مستوية في أعلى التلة.

كان كل شيء هناك متجمدًا، وكان البرد القارس ينفذ حتى إلى أعماق العظام. كنا جميعًا نرتجف بشدة، لأننا لم نكن نملك لا ملابس دافئة ولا حتى أحذية عادية.

عندما وصلنا إلى الأعلى، فصلونا واحدة واحدة عن بعضنا. لم يقولوا شيئًا عن سبب إحضارنا إلى هنا، ولا ماذا يريدون منا.

نظرت من تحت عصابة العين، فرأيت أن الأخوات كلهن واقفات على مسافة متر أو مترين من بعضهن. وكنت أرى أحيانًا أقدام رجل أو رجلين يمران بجانبنا، وكانوا يراقبوننا ويسيطرون علينا في صمت.

نظرت إلى ما تحت قدمي. كانت الأرض مغطاة بفوارغ طلقات الكلاشينكوف والمسدسات. أثار ذلك فضولي، وأخذت أتساءل: أين نحن؟ ولماذا جاؤوا بنا إلى هنا؟

تفقدت ما حولي، وفي لحظة انحنيت والتقطت عدة فوارغ للطلقات، وأبقيتها في قبضتي. كنت قد اكتشفت سر هذا المكان.

كان هذا هو التل المعروف في إيفين، وكانت هذه الفوارغ مرتبطة بليالي الإعدام، حيث كانوا يحضرون الإخوة والأخوات في مجموعات من ١٠٠ و٢٠٠ شخص، ويطلقون عليهم الرصاص.

دققت النظر أكثر، فأصبحت أميز بقعًا من الدم على الأرض المتجمدة، وبين ثنايا الثلوج.

لمست فوارغ الطلقات. فعادت إلى ذاكرتي "عطية محرر خوانساري"، و"طاهرة محرر خوانساري"، و"فاطمة عاصف"، و"زهرا نظري"، و"إلهه عروجي" التي كانت حاملًا عند استشهادها، و"فرح ترابي"، و"زهرا شب‌زنده‌دار"، و"هما رادمنش"، و"أعظم طاقدره"، و"فاطمة وزهرا صميمي مطلق"، و"هلن أرفعي"، و"راضية آل طاهر"، و"قدسي محمدي"، و"شورانكيز طباطبايي"[١٠]، و"مهدخت محمدي زاده"، و... كانت صور الشهيدات تمر بلا توقف أمام عيني. تذكرت "سيمين هجبر". يا لها من امرأة شجاعة...!

[١٠] "شورانكيز طباطبائي" هي ذاتها الدكتورة "معصومة كريميان".

الشهيدة المجاهدة "فريدة ترابي (فرح بيات)"
استشهدت في سجن إيفين بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٨٢، عن عمر ٢٦ عامًا.

الشهيدة المجاهدة "إلهه عروجي"، مهندسة معمارية، تبلغ من العمر ٢٥ عامًا كانت حاملاً عند استشهادها بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٨٣.

وتذكرت "سيبا شريف‌بور"، التي حتى آخر يوم لم تفصح عن اسمها أمام المحققين. كانت "سيبا" قد تعرضت لتعذيب شديد إلى درجة أن ملامح وجهها تغيرت بالكامل. كانت "سيبا" تحمل شهادة البكالوريوس، وكانت مديرة مدرسة ثانوية، وكانت من أعز صديقاتي، وفي تلك اللحظات كنت أتذكرها.

في أحد أيام شهر سبتمبر ١٩٨٢ في إيفين، جاءتني إحدى الأخوات، وكنت أعرفها من قبل وقد عملنا معًا، وقالت لي: أعظم، رأيت امرأة كانت تشبه "سيبا". وما إن سمعت اسم "سيبا"، حتى انتفض شيء في داخلي، فسألتها: أين رأيتها؟ قالت، وعيناها تذرفان الدموع وصوتها مخنوق بالبكاء: عندما كنت قد ذهبت إلى الاستجواب، كانوا قد أخذوني إلى فوق رأسها، وكانوا يريدون مني أن أتعرف عليها.

الشهيدة المجاهدة "سيبا شريف بور"، معلمة، تبلغ من العمر ٢٨ عامًا،
تاريخ الاستشهاد: ٢ يناير ١٩٨٢.

كانت "سيبا" صديقتي، وقد عملت معها لمدة ثلاث سنوات في النشاطات السياسية قبل ٢٠ يونيو ١٩٨١. وفي منتصف عام ١٩٨١، كنت قد سمعت أن "سيبا" قد اعتقلت، لكنني لم أجد لها أي أثر في السجن. كنت أظن أنهم قد أعدموها.

في ذلك اليوم نفسه، بعد الغداء، حوالي الساعة الثانية، انطلق مكبر الصوت، وبدأوا ينادون الأسماء للاستجواب. لم أستطع أن أفهم من أين اشتبهوا بها حتى أخذوا هذه الأخت لكي تتعرف عليها. ففي حال كانوا قد شكوا في أنها "سيبا شريف‌بور"، كان ينبغي أن ينادوني أنا أيضًا لكي أتعرف عليها.

كانت الأسماء تنادى الواحد تلو الآخر، وكنت أعدهم واحدًا واحدًا. وبعد الاسم التاسع عشر، حدث توقف قصير، ثم قالوا: أعظم حاج حيدري!

وجدت نفسي أنهض وأركض دون أن أشعر. وعندما خرجنا من باب العنبر، أخذوني إلى صف متهمي ٢٠٩. كان صمت ثقيل قد أحاط بي. كان قلبي يغلي كالمرجل، وكنت أقول في داخلي: يا إلهي، أين كانت "سيبا" طوال هذا الوقت، حتى إنهم الآن فقط يأخذون السجينات إلى فوق رأسها لكي يتعرفن عليها؟ وبينما كنت في هذه الحال، أمسك رجل فجأة بطرف شادوري، وقال في أذني: قبل أن تذهبي، اعلمي أنه عندما تصلين إلى هناك سيصيبك الاختناق! ستصمتين! لن تتكلمي! وكل ما أقوله لك ستفعلينه هناك!

بينما كان قلبي يخفق بشدة، وصلت إلى باب إحدى الزنازين. أخذني الرجل المحقق نفسه، إلى داخل الزنزانة وأغلق الباب من الداخل. سحب عصابة عيني من خلف رأسي وقال: لا تنسي ما قلته لك! إذا أخطأت ولو بحركة واحدة، فسأضعك أنت أيضًا إلى جانب صديقتك العزيزة! هي نفسها أعطتهم اسمك!

انظري كم هو مثير للسخرية أن تكون هي رمزًا للمقاومة بالنسبة لك؟! انظري ماذا ستكون عاقبتكن أنتن؟! أنقذي نفسك!

كان الجلادون يكررون هذه الكلمات السخيفة والعبارات المبتذلة الواحد تلو الآخر لتحطيم السجناء ولإظهار أن كل شيء فارغ ولا جدوى منه. والغريب أنهم كانوا، من أجل كسر الآخرين، يذكرون أسماء أكثر الأشخاص صمودًا ومقاومة.

ورغم أنني كنت قد تهيأت مسبقًا لرؤية "سيبا"، فإنني كلما حدقت فيها لم أستطع التعرف على وجهها. ولم يبق في وجهها أي موضع سليم يمكن أن يدلني عليها. لكن شفتيها وحدهما، بابتسامتهما التي لم تفارقها يومًا، جعلتاني أتيقن وأزداد إصرارًا.

كان المحقق يواصل الضغط علي بلا توقف، يضربني ويشتمني لكي أقول من تكون هي؟ لكنني كنت أقول: لا أعرفها. ومن خلال صرخات المحقق العاجزة، بعدما اضطر إلى إحضار السجينات أمامها، فهمت أن "سيبا" لم تكن قد أعطتهم حتى اسمها. ثم فهمت أنهم، بما أنهم كانوا يريدون إعدامها، كانوا يصرون على التعرف عليها لكي يحصلوا أيضًا على معلوماتها.

كنت أنظر إلى حالة عينيها وشفتيها لأتأكد. وعندما وقفت إلى جانبها، هوت فجأة ضربة الكابل على رأسي كالمطرقة، وصرخ المحقق: لماذا ذهبت إلى هناك؟ ألم أقل لك ألا تتحركي من مكانك؟ قلت: ألم تقل أنت بنفسك أنظر لأرى من يكون هذا الشخص؟ حسنًا، تقدمت لكي أراها!

كان هدفي أن أرى هل ستعطيني هي بنفسها أي إشارة أم لا. وفجأة تحركت يدها ولامست سروالي، لكنها لم تكن تملك القدرة على الإمساك به. وقفت بضع دقائق، وكانت الغصة تخنقني في داخلي، لكنني قلت: لا أعرفها، خذوني!

قال المحقق: ستندمين لأنك تقولين إنني لا أعرفها! هي نفسها قالت إنها كانت معك... مرة أخرى نفس العبارات المكررة التي كان يرددها المحققون... التزمت الصمت حتى نقلوني إلى العنبر.

كان قد مضى أكثر من شهر على تلك الحادثة عندما سمعت أن سجينتين جديدتين دخلتا العنبر. كنت في الغرفة الأولى من العنبر ٢٤٠. ذهبت للبحث عنهما وسألتهما عن اسميهما: "زهراء صميمي مطلق" و"فاطمة صميمي مطلق".

قلت: لم أكن أرغب أن أراكما هنا، لكنني سعيدة لأنكما أتيتما إلى عنبرنا. امتلأت عينا "فاطمة" بالدموع، وقالت لـ"زهراء": أعتقد أنها هي نفسها. تعجبت وقلت، وقد امتزج الخوف والهلع في صوتي: من تقصدين بـ"هي نفسها"؟ لأن أول ما خطر ببالي في تلك اللحظة هو أن تكون هاتان المرأتان من عناصر النظام. وبإلحاح وتوسل غريبين قالتا لي: قولي لنا اسمك لكي نحكي لك شيئا. قلت: أعظم. سألتا: أعظم ماذا؟ قلت: حاج حيدري!

استغرق الأمر بضع دقائق حتى هدأت غصة وبكاء هاتين الأختين.
وأخيرًا قالت "زهراء": تعالي، لدينا أمانة نريد أن نسلمها لك، حتى لا يفوت الأوان.

كان وصف ما حدث لهما قاسيًا إلى درجة أنهما كانتا أحيانًا تدخلان في البكاء؛ كانت "فاطمة" تتحدث ثم تنقطع، و"زهراء" تكمل الحديث، وأحيانًا يحدث العكس.
وفي مثل هذا الجو المليء بالألم والحزن، روتا لي قصة استشهاد "سيبا"

العزيزة، التي لم تنطق حتى بكلمة واحدة ولم تخبر العدو حتى باسمها. لقد عرفت عن نفسها فقط بأنها مجاهدة من مجاهدي خلق.

روتا أن الدكتور شيخ الإسلام زاده، ذلك المجرم، كان يأتي إلى زنزانة "سيبا في عيادة سجن إيفين، ويحاول دفعها إلى الخيانة قائلًا لها: تعالي، ارحمي شبابك! أجري مقابلة واحدة، إنهم لا يحتاجون إلى هذه المقابلة ولن يبثوها، أنقذي نفسك فقط بهذه الطريقة! لكن "سيبا"، بابتسامتها البطولية، جعلتهم حتى يتمنون لو أنها قالت كلمة واحدة. وكآخر كلماتها، كانت قد قالت لزهراء وفاطمة: إذا دخلتما يومًا إلى عنابر داخل السجن، ورأيتما شخصًا بهذه المواصفات، فقولا لها إن "سيبا" حتى اسمها لم تقله. ولكل من يخرج حيًّة من السجن، قولوا لها أن يوصل سلامي إلى "مسعود"، وقولوا له إنني حاولت أن أوفي بعهدي معك.

الشهيدة المجاهدة "فاطمة صميمي مطلق"
استشهدت في إيفين بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٨٢، عن عمر ٢٦ عامًا.

لا أعرف لماذا، في تلك اللحظة، كنت قد تذكرت كل شهيدة واحدة تلو الأخرى. لم أعد أرتجف. كنت منشغلة إلى حد كبير بذكريات الشهداء، لدرجة أنني كنت أشعر بحرارة وجودهن بكل كياني. كنت أفكر باستمرار أنهن أوفين بعهدهن مع الله ومع الشعب. كان ذكرهن يملؤني بالفرح والفيض، ويوقظ في داخلي اندفاعًا عظيمًا، بحيث وقفت في ذلك الجو

البارد، من دون أي لباس دافئ، ولم أكن أرتدي سوى نعلين ممزقين، وكان شوق الالتحاق بهن والوفاء بالعهد قد أشعل كياني كله.

كنت أقول لنفسي: هل يمكن أن يكون اسمي أيضًا من بين الشهيدات اللواتي لهن شرف كسر تعويذة الظلم والاختناق لخميني؟ هل يمكن أن أكون أنا أيضًا مرفوعة الرأس أمام الله والشعب؟

كنت غارقة في هذه الأفكار لدرجة أنني لم أدرك كم من الساعات مرت. وكنت سعيدة لأنني كنت أشعر أنني سألتقي قريبًا بأخواتي الشهيدات. كنت أقول لهن: هل رأيتن أنني أنا أيضًا وفيت بعهدي؟ هل رأيتن أنني لم أرضخ أمام الجلاد؟

كنت غارقة في عالمي، حين باغتني فجأة أحد الجلادين والذي كان يدور حول الأخوات بضربة قوية على رأسي بقبضته. لم أستطع السيطرة على نفسي، فسقطت على الأرض واستقر جسدي عند حافة التلة. كدت أتدحرج إلى الأسفل، لكن الجلاد نفسه أمسك بقدمي وسحبني إلى الجانب، ثم أعادني مرة أخرى إلى المكان نفسه الذي كنت أقف فيه وقال: لا تنزعجن، فأنتن أيضًا ستلقين قريبًا مصير سائر المنافقين! عندما نريد أن نوصلكن إلى درك واصل، سنضعكن هنا إلى جانب البقية!

استمر هذا الوضع من حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر حتى حدود الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كنا جميعًا نقف بأقدام شبه حافية، لا نرتدي سوى نعال ممزقة، في ليلة باردة في إيفين، وننتظر متى سيعدموننا.

بعد عدة ساعات، بينما كان عدد من الأخوات قد فقدن الوعي من شدة البرد والجوع والتعب، وكن قد سقطن على الأرض، نقلونا إلى العنبر ٢٠٩ بدل

العنبر الذي كنا فيه سابقًا، وألقوا بكل واحدة منا في زنزانة منفردة. لم يعد لدي أي خبر عن بقية الأخوات. لكنني، على الأقل، أنا والزنزانتان المجاورتان لي، حيث استطعنا التواصل مع بعضنا البعض عبر شفرة مورس، كنا وحدنا.

كانت أقدامنا قد تجمدت من شدة البرد. عندما ألقوا بي داخل الزنزانة، وبأمل أن تكون المدفأة دافئة، أسرعت نحوها، لكن لم يكن هناك أي أثر للدفء. ومع ذلك، ورغم أن الزنزانة كانت باردة أيضًا، فإنها كانت، مهما يكن، أفضل بكثير من ذلك البرد القاتل في الأعلى.

كنت ملقاة في زاوية الزنزانة بين النوم واليقظة. أحضروا طعامًا لا أعرف ما هو، ووضعوه في زاوية الزنزانة وغادروا. لكن البرد والإرهاق كانا قد سلباني كل طاقتي، بحيث إنني رغم الجوع الشديد لم أكن أملك القدرة على النهوض، والذهاب إلى جانب باب الزنزانة، وتناول الطعام.

مر في ذهني للحظة: ليتهم كانوا قد أعدموني؛ عندها كنت سأتخلص من كل هذا الضغط والتعذيب الذي كان علي أن أتحمله كل يوم، ولألتحق بأخواتي اللواتي كنت أحبهن كثيرًا. لكنني وبخت نفسي وقلت: لا! هذا هو بالضبط ما يريده الجلاد. تذكرت أيام القفص وكلمات "حاج داوود" الذي كان يكرر دائمًا: سأجعلكم تتمنون الموت! وأدركت أن هذا هو تمامًا ما يريده الجلاد. تخيلت "حاج داوود" وهو يطلق قهقهاته البشعة ويقول: ألم أقل إنني أكثر بطولة منكم جميعًا؟ لقد جعلتكم ترضخون.

قلت له: خاب ظنك أيها الجلاد! انتهى زمن القفص، ورأينا من الذي رضخ. وهذا سيمر أيضًا!...

ما إن بدأ جسدي يستعيد بعض الدفء واستعدت شيئًا من قوتي، حتى عادوا مرة أخرى، وطرقوا باب الزنزانة وقالوا: الاستجواب!

هيأت نفسي. كنت أعلم أنه لا يوجد استجواب حقيقي، وأنهم يريدون تكرار البرنامج نفسه الذي نفذوه في الليلة السابقة. وهكذا كان.

ورغم أنني كنت ما زلت متعبة ومنهكة، فإنني شعرت بأنني أقوى من الناحية الروحية مما كنت عليه في الليلة السابقة. لم يعد الأمر يعني لي كثيرًا، سواء كان الإعدام الحقيقي ينتظرني أم كان هناك إعدام وهمي آخر وتعذيب نفسي. كنت أعتقد أن أي مشهد، مهما كان، هو بحد ذاته شكل من أشكال المقاومة.

كان الجلاد يريد بكل وسيلة أن يجعلنا نرضخ ونستسلم. وبعد أن لم يحصل على نتيجة من كل تلك الإعدامات، لجأ الآن إلى هذه الأساليب. إذا أعدمونا، فستستمر المقاومة؛ فالأخوات موجودات وسيواصلن طريقنا. وإذا لم يتم الإعدام وعدنا، فنحن نكون قد هزمنا الجلاد مرة أخرى.

استمر مشهد الإعدام الوهمي لمدة أسبوع. وطوال أسبوع كامل، كان عملهم أن يأخذونا من بعد الظهر حتى منتصف الليل، وأحيانًا حتى الفجر، إلى أعلى تلة إيفين، ويبقونا واقفات في البرد القارس، حفاة إلا من نعال ممزقة، ويهددوننا، ويشتموننا، ويضربوننا... ثم يعيدوننا ويلقون بنا منفردات في الزنازين.

بعد أسبوع أعادونا إلى العنبر السابق، وقالوا: من لديها كلام فلتأت وتقله! كانوا يظنون أنهم قد أخافونا وأرهبونا، وأن الجميع سيصمتن ابتداءً من الغد، وأن مطالبهم ستتحقق. ولكن هيهات! كان ذلك مجرد وهم. عاد كل شيء

من جديد، وعادت الأخوات إلى أعمالهن وفي الحقيقة إلى مقاومتهن. كان الجلادون وذيولهم الخائنات يرون ذلك، وكانوا يغتاظون بشدة ويشعرون بالقهر.

كانوا كل يوم يختلقون موضوعًا جديدًا. فمثلًا، كان وجود المقص والإبرة في العنبر محظورًا. لكننا كنا نملك كليهما في العنبر، وكانت السجانات يكتشفن ذلك من خلال الآثار التي يتركانها. فعلى سبيل المثال، عندما كانت واحدة أو اثنتان من الأخوات تقصصن شعرهن، كن يفهمن أن لدينا مقصًا. أو عندما كن يرين أننا خطنا شيئًا جديدًا، كانوا يدركون أن لدينا إبرة.

ولأنهم، رغم كل عمليات التفتيش والمداهمات والمراقبة، لم يكونوا قادرين على العثور على هذه الأدوات، كانوا يصابون بالجنون. فقد كانوا، مهما فكروا، لا يستطيعون أن يفهموا أين يمكن أن نكون قد أخفيناها في غرفة فارغة وجافة، بحيث يعجزون عن العثور عليها. ولهذا كانوا يشنون حربًا علينا، وكانت هذه الحرب دائمًا ترافقها حملة اقتحام للعنبر.

كانت الخائنات يأتين ويصرخن بأقذع الشتائم التي تليق بهن: هل ظننتن أنكن قادرات على الصمود؟! ثم يقتحمن العنبر، وينهلن على الأخوات ضربًا بوحشية لا توصف.

وفي الواقع، كانت هذه حربًا بين ظاهرتين. إحداهما كانت نظرية ورؤية "لاجوردي" الذي كان يقول: لو كان لدينا زنزانة انفرادية لكل واحد من السجناء، ووضعنا هؤلاء المنافقين في العزل الانفرادي لمدة شهر واحد فقط، لانتهى الأمر. والأخرى كانت رؤيتنا نحن؛ نحن الذين كنا قد أدركنا جيدًا أن

"الجماعة" و"البقاء مع الجماعة" هما السلاح الدفاعي الوحيد والدرع الذي نملكه. ولم نكن نقبل التخلي عنه بأي ثمن.

وخلال سنوات السجن، تعلمنا هذا الدرس بأرواحنا وأجسادنا: أن السبيل الوحيد للنجاة من الهلاك على يد الجلاد، وألا نتحول إلى مجرد بقايا إنسانية بلا قيمة وأداة في يده، هو "الجماعة" وليس إلا.

وفي المقابل، كان الجلاد أيضًا يريد بأي ثمن أن يفتت هذه الجماعة ويفرقها. وحتى في الزنازين الانفرادية، حيث كنا نظهر وكأننا وحيدات، لم نكن نغرق لحظة واحدة في ذواتنا، بل كنا نقضي كل لحظاتنا، ليلًا ونهارًا، ونحن نستحضر في ذاكرتنا الأعمال التي كنا نقوم بها معًا.

وكان "لاجوردي" بدوره منشغلًا باستمرار بالتفكير في كيفية تفتيت جماعة مجاهدي خلق. ولهذا الغرض أنشأ "عنبر القيامة" و"القفص" و"الوحدة السكنية" و"عنبر الراحة"، والزنازين التي أطلقوا عليها أسماء مثل "الطويلة" و"مربض الكلاب"، وغيرها من أنواع الزنازين وأشكالها، في ظروف غريبة وعجيبة.

لكن أيًا من هذه الوسائل لم تستطع أن تحطم السجينات والسجناء من مجاهدي خلق. صحيح أنه كان يحطم أجسادهم، لكنه لم يكن قادرًا على الانتصار عليهم من الناحية الأيديولوجية، ولا على إجبارهم على الاستسلام.

النقل مجددًا إلى العنبر العام

في أواخر عام ١٩٨٤، وبعد نحو ثلاث أشهر من نقلنا إلى إيفين، وبعد كل تلك الظروف الجحيمية التي فرضوها علينا، بدا أن هذه الإجراءات لم تؤد إلا إلى إنهاك العملاء أنفسهم. ومن جهة أخرى، بدا أنهم خلصوا ظاهريًا إلى أن جمع السجناء في مكان واحد لم يكن قرارًا صائبًا. وكان كل من "فكور" و"حلوايي" وقد أفصحوا عن ذلك صراحة في صرخاتهم العنترية.

وعلى أي حال، قرروا مرة أخرى توزيع السجناء. ففي أحد الأيام جاءوا وقرأوا أسماءنا ضمن مجموعات من عشر أو خمس عشرة منا، ثم وزعونا على أجنحة مختلفة، في الطوابق العليا والسفلى. وكنت ضمن مجموعة من عشر سجينات، نقلنا إلى العنبر ٢ في الطابق العلوي.

وقبل أن يأخذونا، جاء "حلوايي الغوريلا" إلى باب العنبر، وبدأ يرسم لنا الحدود ويقول: عندما تذهبن إلى هذا العنبر الجديد، عليكن الالتزام بقوانينه! وويل لمن لا تلتزم بها! وأخذ يطلق تهديدات من هذا القبيل...

وحين دخلنا العنبر الجديد، كنا نتحدث معًا ونضحك. لكن ما إن واجهنا الصمت الذي كان يخيم على العنبر، أي صمت السجينات اللواتي كن فيه قبلنا، حتى ساورنا للحظة شك: ترى، هل نحن من يقوم بشيء غير مألوف؟ كنا ننظر إلى وجوه السجينات الصامتات، ولم نكن نفهم سر هذا السكون الثقيل. لم تكن إحداهن تمشي في العنبر، ولا تتحدث مع الأخرى، ولا تضحك. وكان هذا الصمت الجماعي الخانق يجبرنا نحن أيضًا على الصمت.

أدخلوا كل بضعة منا إلى غرفة واحدة. وبعد أن وضعنا حقائبنا القليلة وأغراضنا البسيطة في الغرفة، قمنا بجولة في العنبر. ذهبت لألقي نظرة على التلفاز الذي كان يعمل، فإذا بـ"الملا قرائتي" ذلك المهرج، يتحدث. اشمأززت من سخافاته وعدت أدراجي. وفي طريقي رأيت "م"، وكنت أعرفها من قبل. اقتربت مني بهدوء وهمست في أذني: أعظم، هل تعلمين؟ هنا من القواعد أنه عندما يتكلم قرائتي، يجب على الجميع أن يجلسوا بصمت ويستمعوا إليه. ابتسمت ساخرة، وانفجر عدد من الأخوات اللواتي دخلن معي بالضحك أيضًا. أما "م" التي يبدو أنها لم تكن تتوقع مثل هذا الرد منا، فقد ارتبكت عندما رأت أن الوضع خرج عن السيطرة وأن أنظار الجميع اتجهت نحونا، فسارعت إلى العودة إلى مكانها وجلست.

وحين حان وقت الطعام، رأينا الجميع يأخذن وجباتهن، ثم تجلس كل واحدة في مكانها المحدد، حيث كان لكل واحدة مكان ثابت، وتأكل وحدها.

أما أنا، فلم أعر ذلك أي اهتمام. جلست أمام إحدى الأخوات وبدأت أتناول الطعام معها. فجاءت إحدى الخائنات وكانت تعد مسؤولة الغرفة، وقالت: اذهبي واجلسي في مكانك! قلت لها: وهل كتبوا اسم كل واحدة على مكانها؟ قالت: لا، أنا التي أحدد الأماكن!

تجاهلتها، وواصلت تناول الطعام. وكذلك فعلت بقية الأخوات اللواتي جئن معي. وبهذا نسفنا عمليًا القواعد التي كان الجلادون قد فرضوها في ذلك العنبر.

سألت إحدى السجينات: لماذا الوضع هنا هكذا؟ لماذا الجميع ساكنات، صامتات، جامدات كأنهن تماثيل؟ فروت لي كيف ضيقت الخائنات الخناق

على الأخوات، وكيف كن يستدعين كل يوم وحدة التدخل إلى العنبر بحجة من الحجج، فينهالون على الأخوات ضربًا مبرحًا. وكيف كانت الخائنات يفتعلن يوميًا، بذريعة تطبيق القواعد، الشجارات والمشاحنات وحروب الأعصاب... حتى انتهى الحال بالعنبر إلى ما رأيناه بأعيننا.

لكن هذه التبريرات لم تكن مقنعة بالنسبة لنا نحن الوافدات الجدد. فقد كنا قد نجحنا في العنابر الأخرى في كسر هذا الخط الذي فرضه النظام. جلسنا معًا وتحدثنا، وقلنا: واجبنا أن نحطم هذا الجو الجنائزي الذي يخيم على هذا المكان. ولكن كيف؟ أول ما ينبغي علينا فعله هو كسر هذا الصمت. فنحن في الأصل لا نجيد التحدث همسًا، ولا نعرف كيف نضحك بخفوت. نحن "قليلات الأدب"، أليس كذلك؟

وبالتدريج بدأنا نرى أن الجليد أخذ يذوب. رأينا أن الأخوات في العنبر بدأن يختلطن بنا نحن الوافدات الجديدات، ويتحدثن معنا، بل وبدأن أيضًا يتحدثن ويضحكن فيما بينهن في زوايا العنبر. لكن ذلك لم يكن كافيًا بعد.

في أحد الأيام عادت "نرجس" من الاستجواب، وكانت قد أحضرت معها عددًا من الحصى الصغيرة. سكبت الحصى في وسط الغرفة وقالت: أعظم، ما رأيك أن نلعب "لعبة الحصى" ("يەقل دوقل" بالفارسية)؟ في البداية استغربت قليلًا! "لعبة الحصى" في سجن سياسي؟! وانفجرت الشهيدة "ليلا أرفعي" بالضحك، وقالت: معها حق. هيا نعد إلى أيام الطفولة، وعندما نكبر، سنرى أي مجاهدات سنصبح!

وافقت، وجلسنا نلعب. كنا في البداية خمسًا: أنا و"ليلا" و"مهري حاجي نجاد" و"محبوبة" و"نرجس". وبعد قليل انضمت إلينا خمس أخريات، فأصبحنا فريقين من خمس لاعبات، وبدأت بيننا منافسة.

تحولت الغرفة إلى خلية من الضجيج، وامتلأ العنبر بأصوات الضحك والصياح والهتاف والتشجيع.

في الناحية الأخرى من الغرفة، كانت اثنتان من الخائنات تجلسان بوجوه عبوسة متجهمة، تنظران إلينا بحنق وتتمتمان بالشتائم، لكنهما لم تكونا تجرؤان على الاقتراب لإفساد اللعبة. وفي النهاية أدركتا أن المكان لم يعد لهما، بل لنا، فنهضتا. التفتت إحداهما نحوي، وبذات اللغة الرديئة الهابطة التي تعلمتها من المحققين، ثم أخذت تهددني قائلة: أيتها المنافقة، أنت من يقود هذا النهج! انتبهي لنفسك! ثم وجهت الأخرى شتيمة إلى "نرجس". لكن "نرجس" كانت غارقة في اللعب وفي أجوائه إلى درجة أنها لم تنتبه إليها أصلًا.

غادرتا الغرفة، ولم أعرهما أي اهتمام. وتذكرت كلام "هنكامة"، وقلت في نفسي: لقد أخطأتم! ماذا بقي لديكم لتفعلوه ولم تفعلوه حتى الآن؟ افعلوا ما شئتم!

وبالتدريج بدأنا ننظم ألعابًا جماعية أخرى. وكنا نبحث عمدًا عن الألعاب التي تسمح بمشاركة أكبر عدد ممكن، حتى تعم الفوضى والضجيج. حتى حل الكلمات المتقاطعة حولناه إلى مسابقة جماعية بين فريقين، وكان يجري وسط حماس شديد.

ومن أكثر المسابقات طرافة، والتي كانت تثير جنون الخائنات، مسابقات أكل الزبادي. وكنا نخصص للمسابقة جوائز أيضًا. وكانت إحدى الجوائز المحببة هي "حكاكة القدر" ("تەديک" بالفارسية) فكنا نعطي الفائزة حصة إضافية منه فوق حصتها العادية.

كنا نستغل أي ذريعة لإثارة الحركة وكسر ذلك الهدوء الجنائزي الذي كان يلف العنبر. وفي أحد الأيام وجدت حلزونًا في طعامي. وضعته جانبًا، وبعد أن انتهت الأخوات من تناول الطعام، وقفت وقلت بجدية تامة: أيتها الأخوات، انتبهن! وحين ساد الصمت، قلت: أعتذر لأنكن أكلتن الطعام بالفعل، ولكن هذا الحلزون كان اليوم أيضاً توابل وجبتكن. فإذا وجدتن الطعام ألذ من المعتاد، فالفضل لهذا الحلزون!

ثم سلمت الحلزون إلى الأخت الجالسة بجانبي، لتناوله بدورها إلى من بجانبها. وأخذ الحلزون ينتقل من يد إلى يد في أنحاء الغرفة، بينما كان العنبر كله يغص بالهمهمات والضحكات والضجيج.

أما الخائنات، اللواتي كن يغتظن إلى حد الانفجار، فلم يجدن سوى الشتائم وإطلاق التهديدات.

وفي يوم آخر، وكانت أخواتنا مسؤولات لتوزيع الطعام، خرج من قدر الطعام عدد من لاصقات الجروح. قسمنا اللاصقات بين الغرف، واتفقنا أن تعلن المسؤولات لتوزيع الطعام في كل غرفة عند الساعة الواحدة والنصف، عن وجود لاصقات جروح في قدر الطعام. وهذا ما حدث بالفعل، فخلال ساعة واحدة ضج العنبر بأصوات الأخوات وصخبهن.

وبهذه الطريقة تبدلت أجواء العنبر ٢، وخرجت من حالة الموت والسكون. وبالطبع كان ذلك يؤدي إلى تقارير الجساسوعات عن "مخالفة الضوابط"، وإلى الضرب والجلد على يد المحققين، أو إلى عقوبات جماعية مثل حبسنا داخل الزنازين لعدة أيام. لكن الجميع كن مقتنعات بأن هذا هو الثمن الذي ينبغي أن ندفعه من أجل أن نبقى أحياء، ونحافظ على إنسانيتنا، في مواجهة الجلادين الذين يريدون أن يدفنونا أحياء.

ونحن الأخوات الوافدات إلى ذلك العنبر، تعلمنا أيضًا درسًا جديدًا. كم كان جيدًا أننا لم نستسلم لتأثير الأجواء السائدة في العنبر ٢. كما تعلمنا أنه حتى لو كنا بضعة أشخاص فقط، وفي أقلية كاملة، فإننا، إذا كنا مستعدات لدفع الثمن، نستطيع أن نغير الأجواء.

كانت الأخوات في العنبر، بعد هذا التغيير، قد أصبحن أكثر ألفة مع بعضهن. اسمحوا لي أن أروي مثالاً قد يبدو طريفًا بعض الشيء.

عندما اعتقلت، كان عمري ٢٢ عامًا، ولذلك كنت أعد كبيرة في السن مقارنة بمعظم أخوات العنبر اللواتي كن طالبات مدارس ومراهقات في ١٥ أو ١٦ أو ١٧ من العمر. أتذكر أن "محبوبة"، وهي إحدى الطالبات ولم يكن عمرها يتجاوز ١٦ عامًا، وكانت فتاة جميلة جدًا، مرحة، مفعمة بالحيوية، وجريئة، لا تهدأ لحظة، كانت دائمًا تناديني: "يا خالي!". فسألتها مرة: "محبوبة"، لماذا تناديننني "يا خال"؟ فقالت: لأن حنانك يذكرني بخالي! وكانت "نرجس"، وهي أيضًا من هؤلاء الأخوات، تناديني: "يا خالتي".

وكان الجلادون والخائنات يستشيطون غيظًا من هذه التسميات. وحدث مرات عدة، عندما ذهبت إلى الاستجواب، كان محققي أثناء الاستجواب

يذهب ويجيء فوق رأسي باستمرار، ويقول: أيتها المنافقة اللعينة، ماذا تفعلين في العنبر حتى ينادينك بالعمة والخالة والخال؟ كانوا، بحسب ثقافتهم القذرة، يربطون ذلك بكل أنواع الأوهام القذرة، محاولين تحطيمي ومنع قيام مثل هذه الألفة. أما أنا فكنت أستمتع لأنهم كانوا يغتاظون حتى من طريقة مناداة بعضنا بعضًا. لأنهم، هم أنفسهم، وكذلك عميلاتهم الخائنات، كانوا مكروهين إلى درجة أن أحدًا، حتى السجينات غير السياسيات اللواتي اعتقلن مصادفة، لم يكن مستعدات ليتحدثن معهم.

كان الجلادون يستخدمون كل وسيلة لإيذاء الأخوات وبث الرعب والوحشة بينهن. سمعت من أخوات العنبر ٢٠٩ أنهم كانوا بعد كل جلسة استجواب وتعذيب يعيدون "معصومة عضدانلو" ويلقونها وحدها في إحدى زنازين العنبر ٢٠٩. وكانت قد أصبحت، من شدة التعذيب، ضعيفة وعاجزة إلى درجة أنها لم تعد تملك حتى القدرة على مناداة السجانة. وفي أحد الأيام، بينما كانت قد تعرضت لتعذيب شديد، فتحوا باب زنزانتها، ومن أجل تعذيبها أكثر ثم ألقوا ثعبان ماء داخل الزنزانة، فمضى ويتكور بجانب "معصومة". ونظرت "معصومة" إلى الثعبان، وعرفت من لونه الأخضر أنه ثعبان الماء. وبينما كان قابعًا إلى جوارها، أخذت تمسح عليه بلطف وتنظر إليه بعينين مفعمتين بالحنان والشفقة. وبقي الثعبان متكورًا بجانبها حتى النهاية دون أن يتحرك.

وكان الجلادون، ظنًا منهم أن "معصومة" ستبدأ بالصراخ والعويل بمجرد إلقاء الثعبان في الزنزانة، ينتظرون خلف الباب. لكنهم مهما أصغوا، لم يسمعوا شيئاً، ولم يخرج أي صوت من زنزانة "معصومة". وبعد عدة ساعات

تعبوا، ففتحوا باب الزنزانة بحجة إعطائها الطعام، فخرج الثعبان من تلقاء نفسه، وبقي الجلادون في حيرة.

وكان الجلادون يستخدمون أيضًا كيسًا مليئًا بالصراصير لإيذاء وبث الرعب في نفوس الفتيات الصغيرات اللواتي كانوا يأخذونهن إلى الاستجواب، أو النساء اللواتي كن يعتقلن بسبب قضايا جنائية عادية، فيضعون أرجلهن داخل ذلك الكيس المملوء بالصراصير. كما كانوا يحاولون إدخال الرعب إلى قلوب السجينات بإلقاء الفئران أو الثعابين داخل زنازينهن...

وأتذكر أنه عندما دخلت للمرة الأولى إلى العنبر ٧ في سجن قزل حصار، رأيت الفئران وهي تتجول وتستعرض في جميع الزنازين. وعند موعد تناول العشاء، كانت تمر بجوارنا بكل جرأة، حتى إنني شعرت بالخوف في البداية. وبعد العشاء، عندما صعدت إلى السرير في الطابق الثالث لأستريح قليلًا، رأيت الفئران أيضًا تستعرض فوق الحبال التي كانت الأخوات قد شددنها لنشر الملابس، وتقفز من حبل إلى آخر. ظللت أحدق فيها لبضع دقائق، ثم سألت ضاحكة: هل لدينا اليوم عرض سيرك، أم أن الأمر يجري هكذا دائمًا؟

فهمت الأخت التي كانت إلى جانبي أنني أقصد مرور الفئران، فضحكت وقالت: لم يمضِ على وصولك سوى ساعتين، وتريدين أن تعرفي كل برامج العنبر؟ تجولي قليلًا في العنبر وستفهمين كل شيء.

فكرت في نفسي: لماذا أدع هذه الفئران تشغل ذهني؟ دعها وشأنها، فلكل واحد عمله. الفئران تمارس ألعابها، وأنا سأنام. استرحت ساعة، ثم استيقظت عندما مر أحد الفئران فوق قدمي. وبعد ذلك قلت لاثنتين أو ثلاث من الأخوات اللواتي كن يتحدثن معًا: ماذا تفعلن مع هذه الفئران حتى

أصبحت تستعرض فوق رؤوسكن طوال الوقت؟ نظرن إلى بعضهن وضحكن وقلن: هنا يوجد من هذا كثير، ومع مرور الوقت ستعتادين عليها.

وفي أحد الأيام، أثناء التشمس، كانت "هنكامة" واقفة تتحدث مع شيء في يدها، وكانت عدة أخوات يضحكن حولها. اقتربت منها وسألتها: مع من تتحدثين؟ فتحت قبضتها قليلًا، وأرتني فأرة صغيرة، وقالت: أتحدث مع هذه السيدة الفأرة! عندها شعرت أن خوفي واشمئزازي من الفئران قد زال.

وبهدف كسر هيبة الملالي وعملائهم، تعلمنا جماعيًا كيف نتعايش مع الثعابين والفئران، ولنُري الجلادين أن هذه الأساليب لن تترك أدنى أثر في عزم المجاهد على المقاومة.

يوم حلو

كان من أجمل الأيام ذلك اليوم الذي دخلت فيه إلى العنبر مجموعة من الخائنات برفقة "عليزاده"، تلك المرأة من عناصر الحرس، وبدأن يصرخن: أيتها المنافقات، لا تقرأن بعد الآن اللغة الفرنسية، اذهبن واقرأن العربية! قائدكم ذهب إلى العراق!

وهكذا علمنا بخبر مغادرة "مسعود" إلى العراق. فامتلأ العنبر بالفرح والضجيج. ربما في تلك اللحظة لم نكن ندرك تمامًا المعنى السياسي لهذه المغادرة، ولا آثارها ونتائجها، لكن بمجرد أن سمعنا خبرًا عن قائد المقاومة وعرفنا أنه بخير، غمرتنا السعادة.

وبعيدًا عن كل التحليلات والدوافع السياسية، كنا نستنتج من حالة الهياج والاضطراب التي أصابت الجلادين والخائنات أن هذا الأمر لا بد أن يكون في

مصلحة الشعب والمقاومة، وإلا لما وصل بهم الأمر إلى هذا الحد من الجنون.

وكان من أكثر تصرفاتهم غباءً أنهم اقتطعوا صورة قائد المقاومة من الصحف ولصقوها على جدار العنبر، وكأنهم أرادوا أن يثبتوا للأخوات أن الخبر ليس مجرد إشاعة أو كذبة.

وكانت الأخوات يأتين فى جماعات لرؤية تلك الصورة، وما إن تقع أعينهن عليها حتى تعانق بعضهن بعضًا من شدة الفرح، وتقبل بعضهن بعضًا، وتغلبهن الدموع من شدة الشوق والابتهاج.

أما العمليات اللواتي كن يتجولن في العنبر لكي يرفعن تقارير عن ردود الفعل على الخبر، فقد كن يكادن يختنقن من شدة الغيظ. كن يمررن بيننا ويلقين التعليقات الساخرة والاستفزازات محاولات إشعال شجار، وإدخال "حلوايي" العميل، أي وحدة التدخل إلى العنبر، ليكدروا فرحة الأخوات.

لكن لم تكن أي واحدةٍ منا تلتفت إليهن. كنا منشغلات بمحاولة إيصال الخبر بطريقة ما إلى الغرفتين الأخريين، وكذلك إلى العنبر العلوي، لأننا كنا نخشى أن تؤدي رؤيتهن لرد فعلنا إلى منع وصول الخبر إلى بقية الغرف، أو أن يقمن بإزالة الصورة. لكن وبما أن الأمر كان قد جاءهن كتعليمات من الأعلى، فإن المرتزقات الموجودات في الساحة لم يكن يستطعن تغيير شيء.

وبالنسبة لنا، نحن اللواتي كنا محرومات من كل وسائل الحصول على الأخبار، فلا صحيفة تصل إلينا ولا زيارات، كانت مثل هذه التصرفات التي يقوم بها النظام بمثابة نعمة كبيرة بالنسبة لنا.

كان أحد الأيام الأخرى التي لا تنسى في هذه الفترة التي استمرت ستة أشهر، يومًا ساءت فيه حالة بعض الأخوات، وكنا نطرق الباب حتى تأتي إحدى عناصر الحرس وتأخذهن إلى الطبيب. في إحدى المرات جاءت "عليزاده"، وهي امرأة من عناصر الحرس في العنبر، كانت تحمل أحقادًا خاصة على الأخوات، وفتحت نافذة الزنزانة لترى من هن اللواتي يطرقن الباب. ذهبت ثم عادت مع إحدى عناصر الحرس، وفتحت الباب لكي تأخذ أولئك الأخوات إلى مدخل العنبر.

لكن الأخوات، اللواتي كن يطرقن الباب بالتناوب، لم يسمحن لـ"عليزاده" وعنصر الحرس المرافقة لها بسحبهن إلى الخارج. استمر هذا الصراع عدة دقائق، وانسحبت "عليزاده" خالية الوفاض وهي تصرخ من شدة الغضب.

كنا نعلم أن علينا أن ننتظر هجومًا عنيفًا من العميلات. ولم يطل هذا الانتظار أكثر من عشر دقائق إلى خمس عشرة دقيقة. حيث فتح باب العنبر بعنف من جديد، ودخلت وحدة التدخل بقيادة "حلوايي" الجلاد المجرم، ومعها عشرين إلى ثلاثين عنصرًا من عناصر الحرس الرجال، بينما كانت مجموعة من الخائنات ترافقهن أيضًا. دخلن إلى العنبر وهن يصرخن كالمجانين.

ما إن دخلوا حتى بدأوا، بالعصي والسياط التي كانت في أيديهم، بضرب القضبان والأبواب والجدران، محاولين رفع أجواء الرعب إلى أقصى حد عبر خلق ضجيج وفوضى عارمة. ثم فتحوا أبواب الغرف الثلاث، وانقضوا على السجينات العزل، وبدأوا بضرب الأخوات بالكابلات والهراوات واللكمات

والركلات، وفي الوقت نفسه كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم بالشتائم البذيئة التي تليق بهم.

كنا محاصرات ولم يكن أمامنا طريق للفرار. أينما حاولنا الابتعاد، كانت إحدى العميلات تقف هناك وتقذفنا من جهة إلى أخرى بالكابل أو الهراوة أو باللكم والركل. كنا ندور مثل الكرة في أيديهن. كانوا يضربوننا بوحشية شديدة، حتى إن عددًا من الأخوات فقدن الوعي وسقطن على الأرض من شدة الضربات.

وبعد نحو ساعة من الضرب المتواصل، وبالتزامن مع تلك الشتائم، هاجموا أيضًا أكياسنا وأغراضنا القليلة، وقلبوها على الأرض بطريقة وحشية وغير مسبوقة. كانوا يسحبون كل شيء ويمزقونه ويكسرونه. كانوا يرمون المواد الغذائية على الأرض، ويدوسون عليها بأرجلهم ويدمرونها. كان واضحًا أنهم يريدون إخضاعنا وجعلنا نندم على ما قمنا به.

بعد أن ألقوا جميع الأغراض على الأرض ونشروها في كل مكان، اقتادوا الجميع إلى ساحة العنبر تحت ضربات الهراوات، وأوقفونا في صفوف حول ساحة العنبر. جلبوا مقعدًا إلى وسط الساحة لكي يجلدوا أمام مرأى الجميع ثلاث من الأخوات اللواتي كن يكن لهم أكبر قدر من الحقد، وهن "سولماز عزيزي" و"أعظم طاق دره"، و"رضية آيت الله زاده شيرازي"، اللواتي أعدمن جميعًا لاحقًا على يد عملاء النظام.

وهنا تجلت من جديد وحدة الأخوات ومقاومتهن، فقد كنا نحو ١٥٠ شخصًا، أدرن جميعًا وجوههن نحو الجدار ووقفن. وعندما واجه عملاء النظام الذين تجاوز عددهم ستين شخصًا هذا المشهد، ذهلوا وصدموا لبضع دقائق في

البداية، ثم عاودوا الهجوم علينا بضراوة وهيستيرية أشد من السابق؛ فإنهالوا علينا باللكم والركل والسياط والهراوات على رؤوسنا ووجوهنا، وهم يطلقون صيحاتهم البشعة ويصبون علينا ما في جعبتهم من شتائم.

استمر هذا الضرب الوحشي قرابة ساعتين حتى حلول الظلام. وبسبب تلك الضربات القاسية كان الدم يسيل من رؤوس ووجوه الأخوات. كانت الأجساد كلها مغطاة بالكدمات والرضوض، وكان عدد من الأخوات قد أصبن بجروح شديدة في الرأس واليدين والأرجل، كما فقدت بعضهن الوعي وسقطن على الأرض.

لم يكتف الجلادون بكل ذلك. فقد أعادوا الجميع مرة أخرى إلى الغرف، وأغلقوا الأبواب، وحرمونا حتى من فترة التشمس اليومية الوحيدة التي كانت متاحة لنا.

ثم جاء بعد ذلك دور الكتب؛ فلم يكن قد بقي منها سوى بضعة مصاحف وبعض الكتب الدينية والمعاجم. جمعوا كل شيء وألقوه في ساحة العنبر، ثم سكبوا عليه النفط وأضرموا فيه النار. إن أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم حماة الدين ومدافعون متشددون عن الإسلام، لم يترددوا حتى في إحراق المصاحف! وفي ذلك اليوم، شاهدنا من خلف القضبان احتراق المصاحف إلى جانب بقية الكتب. ولكن عناصر الحرس الهمجيين، رغم ذلك المستوى من الوحشية، لم يستطعوا الوصول إلى الكتب التي كانت ذات قيمة كبيرة بالنسبة لنا والتي كنا نحبها ونطالعها، والتي كانت موجودة في العنبر قبل ٢٠ يونيو، وقد أخفيناها في أماكن آمنة.

وبعد هذا الهجوم الوحشي، ورغم أجسادنا المليئة بالكدمات والجروح والرضوض، كانت معنوياتنا عالية وكنا نشعر بالنصر والفخر؛ إذ لم نسمح لعناصر الحرس المجرمين بأن يمرروا ويكرسوا أسلوبًا لا إنسانيًا للغاية من الإذلال والتعذيب، أي جلد سجينات أمام مرأى الأخوات وبذريعة اتهامات أخلاقية دنيئة.

كانت لحظات النصر تلك حلوة إلى درجة جعلت كل ذلك الضرب والتعذيب والإهانة يبدو ضئيلًا أمامها. كان الضرب والتعذيب كزبدٍ عابرٍ على سطح الماء. عندما كانوا يخرجون من العنبر، كنا جميعًا نبدأ بالكلام والضحك وسرد ما الذي حدث لكل واحدة منا وما الذي مرت به.

هذه الروح المليئة بالحياة والنشاط لم تكن تتسع في نظرة خميني، وكانت تصرفات الأخوات تغرس في قلوبهم مثل خنجر. ولهذا السبب كانوا يأخذون الأخوات بشكل متكرر إلى الاستجواب بسبب التنظيمات والنشاطات داخل العنبر، وكانوا أثناء ضربهم يقولون: قلن من هي قائدتكن؟ من التي توجهكن لكي تقمن بهذه الأعمال وتجعلن أنفسكن بائسات؟ ونحن كنا نبتسم في أعماقنا سخرية من الجلادين ونقول: سنجعلكم عاجزين بائسين.

وحتى اليوم، أشعر بالفخر لأنني عشت تلك السنوات بين أولئك الأخوات. كم هي الأماكن فارغة من وجود كل واحدة منهن. لا أعرف، وربما تكون أماكنهن قد امتلأت أيضًا. فكل الأخوات اللواتي هن اليوم في جيش التحرير، قد نبتن على الجذور نفسها التي سقينها في ذلك اليوم بدمائهن، وملأن أماكنهن.

وحتى اليوم، أعتز وأفخر بأنني عشت تلك السنوات وسط أولئك الأخوات. كم نفتقد كل واحدة منهن! لا أدري، وربما لا يكون هناك فراغ أصلًا؛ فكل الأخوات اللواتي ينتمين اليوم إلى جيش التحرير، إنما نبتن من الجذور نفسها التي سقينها يومها بدمائهن، وملأن أماكنهن.

التعليم في السجن

بعد ذلك الهجوم واقتحام عناصر الحرس، كان عملنا الأساسي هو إعادة الأوضاع إلى حالتها الطبيعية. سارعنا جميعًا إلى العمل، ومن خلال تقسيم المهام بيننا، انشغل بعضنا بجمع الأدوات والأغراض وترتيبها، وبالخياطة وإصلاح ما يمكن إصلاحه. كما تولى بعض آخر مسؤولية تعويض الكتب التي فقدناها بأي طريقة ممكنة، حتى لا نسمح بتوقف دروسنا التعليمية.

كان لدينا برنامج لكل ساعات الليل والنهار، حتى لا تمر أوقاتنا في الفراغ. بعض الأخوات اللواتي كن يحملن تحصيلات جامعية، كن يدرسن ما يعرفنه للأخريات في صفوف صغيرة من شخصين أو ثلاث، لأن إمكانية التجمع بأعداد أكبر لم تكن موجودة تحت المراقبة الدائمة للجاسوسات. وكانت بعض الأخوات الأخريات ينقلن بدورهن هذه المعارف إلى أخوات أخريات.

وهكذا كانت لدينا صفوف لتعليم اللغات المختلفة، العربية والإنجليزية والفرنسية، التي كانت بعض الأخوات تجيدها بشكل جيد. كما كانت الأخوات اللواتي درسن في فروع وتخصصات مختلفة يقمن بدروس في مجالات اختصاصهن.

كانت الشهيدة المجاهدة "حورية بهشتي‌تبار"، التي كانت تحمل شهادة الماجستير في الاقتصاد، تقيم لنا صفوفًا في الاقتصاد. وكان مصدر الدروس إما المعلومات التي كانت المعلمة نفسها تحتفظ بها، والتي كانت تدونها على الورق وتنظمها على شكل كراسات، أو الصحف التي كنا نجلبها سرًا عندما نذهب إلى الاستجواب، من غرفة الاستجواب أو غرفة الانتظار، أو تلك التي كنا نتبادلها بين مختلف العنابر. كنا نجمع هذه الصحف ونستخدم بعض موادها كمصادر لدروس الاقتصاد.

وعندما كانت هؤلاء السجانات يرين من خلال نافذة الزنزانة أن الجميع منشغلات بالعمل، كن يصبن بالغضب الشديد والهستيريا، ويكيلن لهن الشتائم والسباب؛ لأنهن كن يرين بأم أعينهن عجزهن وعجز نظامهن عن كسر مقاومة السجينات في هذا المشهد بالذات.

إعادة المحاكمة

في مارس أو أبريل أو مايو ١٩٨٦، وبعد عنبر القفص، مررت مرة أخرى بسلسلة من الاستجوابات والظروف العقابية، وكان سببها حسب قولهم، تشكيل تنظيم داخل العنبر والقيام بنشاطات في السجن. إن ما كانوا يسمونه "تنظيم العنبر" لم يكن شيئًا سوى الحياة الجماعية وعدم الرضوخ لمطالب النظام وجلاديه، الذين كانوا يريدون أن يسلبوا السجين حتى الحد الأدنى من مقومات إنسانيته، وكنا نقاوم ذلك بشكل جماعي.

وفي هذه المحاكمة أيضًا، كما في المحاكمة الأولى، كان رئيس المحكمة هو "الملا محمدي جيلاني". كنا نسميه "الديناصور"، لأنه لم تكن هناك في

وجوده بصورة حقيقية، ذرة واحدة من آثار أو مشاعر إنسانية. بل كان، في المقابل، ممتلئًا بالحقد والكراهية والوحشية تجاه كل عنصر من عناصر مجاهدي خلق والمقاومة، وتجاه كل شخص كانت تظهر في وجوده آثار من الإنسانية.

في هذه المحاكمة المزعومة، كان "جيلاني" واثنين من أفراد الحرس موجودين. أعتقد أن أحدهما كان المحقق المباشر الخاص بي، لكن لأنني كنت دائمًا معصوبة العينين أثناء الاستجواب، ولأنه في المحكمة أيضًا بقي صامتًا حتى لا أستطيع التعرف عليه من صوته، فلا يمكنني أن أقول بشكل قاطع إن كان هو نفسه أم لا. إضافة إلى ذلك، كانت ثلاث من الخائنات أيضًا حاضرات بوصفهن شاهدات.

على أي حال، سألوني مرة أخرى عن معلوماتي الشخصية، فأجبتهم. ثم قال لي "جيلاني": دافعي عن نفسك! قلت: ليس لدي شيء لأدافع عنه. لأنني كنت متأكدة من أن أولئك الخائنات الثلاث قد رتبن المشهد لكي يتمكن من تلفيق شيء ضدي.

وخلال كامل فترة العقوبة الإضافية التي استمرت ٤ أشهر في إيفين، كانت إحدى هؤلاء الخائنات، واسمها "منيجة"، وبسبب معرفتها الجيدة بي حتى من خارج السجن، تلاحقني وتفتعل المشاكل معي باستمرار. وكان حدسي صحيحًا، لأنه بمجرد أن قلت: "ليس لدي شيء لأدافع عنه، أنتم تقولون شيئًا وأنا سأقول شيئًا آخر..." بدأت "منيجة" الخائنة بالشتائم والمشاجرة، وضربتني مرتين على رأسي، وبدأت بما يسمونه بـ"كشف سوابقي" من فترة الكفاح السلمي إلى النشاطات داخل العنبر، والمقاومة في القفص...!

العفريتة البائسة ظلت تتحدث بلا توقف لمدة خمس وأربعين دقيقة، وفي الواقع كانت تصرخ فقط. كانت المسكينة تتوهم أنها كلما بالغت في الصراخ والعويل، أصبحت أقرب إلى رضا أولئك الجلادين الأعزاء، وأنهم سيطلقون سراحها بسرعة أكبر!

بعدها بدأت خائنة أخرى باسم "منصورة" بكشف ما تزعم أنه سوابقي. كان أسلوبها مختلفًا، بحماس وحرارة أقل، لكنها كانت مصحوبة بالبكاء والعويل ودموع التماسيح التي جعلتها بهارًا لكلماتها. وكانت تتحدث بشكل أكبر عن جرائمي خلال فترة شهرين من عنبر العزل. وعندما انتهت من كلامها، ولكي أثير غضب "منيجة" قلت: أنا لا أعرف هذه المرأة، ولا أعلم أصلًا ماذا تقول! فعاد صراخ "منيجة" مرة أخرى، وبدأت تنسج مجموعة أخرى من الترهات.

بعدها جاء دور "هما" الخائنة الثالثة المنشقة، لتدخل المشهد. في البداية أقسمت بصفتها شاهدة، ثم توجهت إلي وكانت في تصورها تريد أولًا أن تثبت معرفتها بي. وقفت أمامي وقالت: هل تعرفينني؟ كانت واثقة بأنني سأجيب بالإيجاب! قلت: لا!

وجاء الآن دور هذه لتصرخ هي الأخرى؛ فشرعت تتحدث عن النشاطات التي قمنا بها معًا في فترة الكفاح السلمي، وعن الفترة التي قضيناها معًا في العنبر ٢٤٠، وعن سبعة أشهر ونصف من عمالتها وخيانتها، حين كانت طوال فترة احتجازنا في القفص واقفة فوق رأسي ورؤوس الأخريات، تسعى بدافع الحقد والكراهية للانتقام مني... كل ما كان لديها، من الصدق والكذب، جمعته معًا وقدمته كتقرير، حتى تعيد إلى ذاكرتي تلك الأمور، كما كانت تتخيل. كنت ما زلت صامتة ولم أنبس ببنت شفة.

في النهاية قرأوا حكم الإدانة الجديد الذي كان عبارة عن خمس سنوات حبس قطعي وعشر سنوات حبس مع وقف التنفيذ، وانتهت المحكمة بهذه الطريقة.

لا أتذكر ما إذا كنت قد وقعت على ورقة بعد قراءة الحكم أم لا. لكن عندما خرجت من المحكمة، أبقوني هناك خلف الباب لعدة ساعات، وكل من كانت تأتي وتذهب كانت تقول شيئًا ما حتى يتمكنوا من أن يخيفني. خصوصًا أولئك الخائنات اللواتي كن قد أُنهكن من شدة الصراخ، واللواتي، على حد تعبيرهن، كن قد رأين في أحلامهن حكمًا قاسيًا بحقي. لكن بعد نحو عام ونصف على القفص، وبعد أن مررت بمختلف الظروف والأوضاع، لم يعد أي شيء مهمًا بالنسبة لي. وحتى وأنا واقفة هناك، كنت أغيظهن بصمتي، فكانت كل واحدة منهن تأتي وتذهب وهي تحاول أن تستدرجني إلى الكلام. كنّ يقلن: ماذا حدث؟ هل أصبحت "أعظم الوقحة" صامتة؟ إنها فقدت جرأتك؟ كنت أعلم أنهن يردن استفزازي ودفعِي إلى اتخاذ موقف.

الخروج من السجن

بعد المحاكمة الثانية، استدعوني مرتين أو ثلاث مرات أخرى، وأخذوني إلى الشعبة. كانوا يريدون مني إجراء مقابلة. فقلت لهم بصراحة: لن أفعل! كان المحقق يغضب في كل مرة، ويضربني بالسوط على رأسي ووجهي، ويقول: سأترك في قلبك حسرة أن تصبحي بطلة. سأبقيك هنا حتى تتعفني في هذا المكان، وكان يكرر كلام "حاج داوود": "سأبقيك إلى أن يصبح شعر رأسك أبيض مثل أسنانك، وتصبح أسنانك سوداء مثل شعر رأسك."

في سبتمبر ١٩٨٦، استدعوني مرة أخرى. وبعد أن أمطروني كالعادة بنفس الشتائم، قالوا لي: نحن نعرف أنك منافقة، وأنك إذا خرجت فسوف تذهبين من جديد إلى المنظمة. سنطلق سراحك لكي نعيدك مرة أخرى ونمزقك إربًا إربًا.

كنت حتى ذلك الوقت لا أملك أي أمل في الحرية، لكنني فهمت أنهم يريدون إطلاق سراحي. وفي تلك اللحظة قررت وعاهدت نفسي، أنه إذا أطلقوا سراحي فسأفعل بالضبط ما يخافون منه؛ أي أنني قبل أي شيء آخر سأحاول الاتصال بالمنظمة.

بعد أسبوع، أي في ١٤ سبتمبر ١٩٨٦، نادوني وقالوا لي أن أذهب إلى مكتب العنبر من أجل الاستجواب. لقد تعمدوا قول ذلك بهذه الطريقة حتى لا تفهم الأخوات أنني ذاهبة إلى الحرية، وحتى لا ينقلن أي رسالة إلى الخارج عن طريقي. بطبيعة الحال، أنا نفسي لم أكن أصدق أنني سأخرج. كان هذا آخر شيء يمكن أن يخطر ببالي. كنت أظن أن أحدًا قد قدم تقريرًا جديدًا عني، وأنهم استدعوني للاستجواب بسببه.

ذهبت إلى مكتب العنبر وأنا في حالة من الغموض والشك. وهناك، تعمد عناصر الحرس، لإيذائنا وإثارة القلق، أن يتهامسوا فيما بينهم لعدة دقائق، ثم أعلنوا عبر مكبر الصوت: أخرجوا أغراضها. قامت الأخوات بسرعة بجمع أغراضي وأخرجنها.

كنت غارقة في الذهول والدهشة. هل كنت سأفارق هؤلاء الأخوات اللواتي قضيت معهن سنوات كاملة، عشت معهن كل اللحظات المرة والحلوة؟ كان هذا الفراق مؤلمًا بالنسبة لي. تذكرت كل الإضرابات والاحتجاجات

والعقوبات والضرب والمقاومات وكل شيء مررنا به مع أولئك الأخوات اللواتي كن الآن خلف الجدار الآخر. دون أن أشعر، انفجرت بالبكاء. بكيت بشدة وبصوت عال.

كان أفراد الحرس الأغبياء والمجرمون الذين كانوا يظنون أنني أبكي خوفًا من الانتقال، يضحكون بسخرية على حالتي. خصوصًا عندما قال أحدهم: أنت ذاهبة إلى الحرية! زاد ذلك من ألمي. كنت أفكر في انفصالي عن الأخوات، وفي ما سأفعله بعد ذلك من دونهن في مجتمع يحكمه نظام خميني الرجعي، وكيف سأعيش وكيف سأتنفس؟ بينما كان أولئك الأفراد الأغبياء يفكرون في شيء آخر تمامًا!

هناك، في نفس المكان، اتخذت قراري: يجب أن أذهب. وخاصة أنني قبل عدة أشهر، عندما كانت إحدى الأخوات واسمها "فرح" تستعد للخروج من السجن، قلت لها مازحة وضاحكة: إذا أردت الذهاب، فاتركي لي أثرًا يدلني عليك، حتى إذا خرجت أستطيع أن أصل إليك. لأن عائلتي كلها من جماعة موالية لخميني، وليس لدي أحد أستطيع عن طريقه الوصول إلى المنظمة. وفي تلك اللحظة تذكرت هذا الأمر وقلت في نفسي: يا إلهي، هل يمكن أن تكون "فرح" قد تركت لي أثرا؟ وإذا لم يكن هناك شيء، إلى أين سأذهب وأين سأبحث؟

بعد ٥سنوات ونصف من الأسر، لم تكن لدي أي صورة عن المجتمع خارج السجن. وبينما كنت غارقة في هذه الأفكار، قام أفراد الحرس بتفتيش أغراضي، وأعطوني حقيبتي، ثم وضعوا العصابة على عيني من جديد، وتحركوا بي باتجاه شعبة الاستجواب.

كانوا قد قالوا الكلام نفسه أيضا لأختي الكبرى "مهين" التي جاءت إلى أمام السجن لاستلامي، بأنني إذا حاولت التوجه إلى منظمة مجاهدي خلق فسوف يمزقونني إربًا إربًا، وقد أصابها ذلك بخوف شديد.

وعندما غادرت أنا وأختي "نجمة" البلاد عبر الحدود بعد عدة أشهر، واتصلنا بها وقلنا لها إننا نتصل من خارج البلاد، فقدت وعيها وسقطت من شدة الحماس والفرح وهي تتحدث عبر الهاتف، لأنها كانت تخاف بشدة من إعادة اعتقالنا. فقد كانت قد ذاقت طوال عامين طعم سجون نظام خميني وتعذيبه، وكانت تعرف تمامًا معنى الاعتقال من جديد.

وبصراحة، أنا أيضًا لم أكن أقل خوفًا من أختي من إعادة الاعتقال. فقد رأيت وسمعت كثيرًا ما الذي فعله النظام مع الأخوات والأخوة الذين حاولوا، بعد خروجهم من السجن، الانضمام إلى المنظمة. لكنني كنت أقول لنفسي: هل كنت، عند اعتقالك، تفكرين في الخروج والحرية؟ ألم يكن الأمر كذلك أنك في كل مرة كانوا يستدعونك فيها للاستجواب، كنت تفكرين مع نفسك بأنه ربما لا يكون هناك عودة بعد ذلك؟ إذن ما الذي تغير؟ هذا النظام ما زال قائمًا. إنه النظام نفسه الذي قتل أعز أعزائك، ولا يزال عدد منهم تحت مخالبه وأنيابه. فهل يمكن تصور أمن وحياة في ظل حكم هذا النظام؟ ولا يعني العيش تحت ظل هذا النظام سوى الموت كل يوم. في كل يوم أرى فيه أحد أفراد الحرس، وفي كل مرة يرن فيها الهاتف بشكل مفاجئ، وفي كل مرة أذهب فيها إلى النيابة من أجل التوقيع الأسبوعي، أموت وأحيا من جديد. في حين أنني إذا اعتقلت أثناء خروجي من البلاد وفي محاولتي للانضمام إلى المنظمة فسأموت مرة واحدة وينتهي الأمر!

لذلك عقدت العزم، وقررت مع أختي "نجمة" أن ننضم إلى صفوف أخواتنا وإخوتنا في جيش التحرير.

... كنت ممددة في الزنزانة، أتلوى من الألم، أحدث نفسي، وأناجي الله وأشكو إليه ما أعانيه. وفجأة سمعت صوتًا قادمًا من خلف الجدار المجاور. كنت أعرف شيئًا من شفرة مورس، فسألت: من أنت؟ أجابت: "معصومة"*، ثم سألتني: ماذا تفعلين؟ قلت: لا شيء... كنت فقط أشكو إلى الله من هؤلاء الجلادين وأتذمر، لأنني لم أجد أحدًا أحدثه. فأجابتني: "لا ينبغي أن يتذمر المجاهد. فهذا طريق اخترناه بإرادتنا..." ساد الصمت. وشعرت بالخجل من نفسي، ومن ضعفي أمام ذلك الأسلوب الذي يستخدمه الملالي لتحطيم المرأة. لقد تركت الكلمات القليلة لتلك الأخت أثرًا عميقًا في نفسي، وتعلمت منها معنى الصمود والصبر...

** معصومة عضدانلو شقيقة السيدة مريم رجوي، رئيسة الجمهورية المنتخبة للمقاومة الإيرانية؛ اعتقلت معصومة وهي حامل وتعرضت لتعذيب وحشي قبل إعدامها رميًا بالرصاص.*

... وحتى اليوم، أعتز وأفخر بأنني عشت تلك السنوات وسط أولئك الأخوات. كم نفتقد كل واحدة منهن! لا أدري، وربما لا يكون هناك فراغ أصلًا؛ فكل الأخوات اللواتي ينتمين اليوم إلى جيش التحرير، إنما نبتن من الجذور نفسها التي سقينها يومها بدمائهن، وملأن أماكنهن.

ثمن البقاء إنساناً

أعظم حاج حيدري